حَبِيبَة

محمد عبد الصمد

عنوان الكتاب : حَبِيبَة
المؤلف : محمد عبد الصمد

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
تصميم الغلاف : عمرو الحوا
الخطاط : طه ناصر
رسمة الغلاف : أنوار أبو الخير

رقم الإيداع : ٢٨٠٠ / ٢٠١٧
ردمك : 978-977-6549-30-2
الطبعة الأولى: مارس 2017

المدير العام : هاله البشبيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
Dar.toya دار تويا للنشر و التوزيع
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01140899887 - (+2) 01000706014
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

حَبِيبَة

محمد عبد الصمد

دار تويا للنشر والتوزيع

إهداء

لمن ألهمني حبه، فحيرني وخيرني، فاخترت قربه...

قَبْلَ البِدَايَةِ

يحكي الشيخُ الأكبرُ لتلميذِه القونوي: "لمَّا وصلتُ بحر الروم من بلاد الأندلس عزمتُ على نفسي ألا أركب البحر إلا بعد أن أشهد أحوالي الظاهرة والباطنة الوجودية مما قدَّر الله عليَّ ولي ومني إلى آخر عمري. فتوجَّهت إلى الله في ذلك بحضور تام وشُهُودٍ عام ومراقبةٍ كاملةٍ، فأشهدني الله جميع أحوالي مما يجري ظاهرًا وباطنًا إلى آخر عمري، حتى صحبو أبيك إسحاق بن محمد، وصحبتك وأحوالك وعلومك وأذواقك ومقاماتك وتجلياتك ومكاشفاتك وجميع حظوظك من الله، ثم ركبت البحر على بصيرةٍ ويقينٍ، فكان ما كان ويكون من غير إخلالٍ ولا اختلال".

يقول الشيخُ الأكبرُ: "الأنوثةُ بوصلةٌ في طريقِ العرفان... ولا تقتصرُ الأنوثة على النساء وإن ظهرت فيهن، فالإنسانُ في جوهرِهِ انفعالٌ وإمكانٌ وأنوثةٌ".

تَمْهِيدٌ

″ليـس الـسرُّ في حبـك للـه ولا في حـبِّ اللـه لـكِ، ولكـن الـسرَّ في أني أحبـه وأحبـك، لـذا فأنـا قـادرٌ عـلى رؤيـة علاقتكـما الفريدة″.

هكـذا كان دومًـا يقـول لهـا حـين تسـأله كيـف تعـرف أني حبيبـة اللـه...

″ولكن ألا ترى في قولك هذا نوعًا من الغرور؟″

″أو الثقة″

″ثقة زائدة؟″

″لا أعلم، غير أني أعرف″

″ألا تعلم كذلك أني لن أتوقف عن جدالي لك″

″أعلم، وربما لهذا أحبك″

″ربما لحُبك هذا أنت مخدوعٌ في معرفتك″

″صدَقت، ولكنها في النهاية معرفتي لحياتي″

″إذن لـن أجادلـك مـا دمـتَ مُعترفًـا أن معرفتـك بي تخصـك وحدك ولا تنطبـق عـليَّ في عَلاقتـي بغيرك″

″بالطبـع فهـذا حقـك، أنـا فقـط أمـارسُ حقـي في أن أُبـصرَ فيـك مـا لـن يبـصره غـيري″

″ولكـن لمـاذا تريـد أن تبـصر فيَّ مـا لـن يـراه غـيرك؟ مـا الفائـدة مـن ذلـك؟″

″ولكنـي لا أريـد، أنـا فقـط أحببتـه فوهبنـي حبَّـك فـكان عـليَّ أن أشـكرَ نعمتـه بـأن أرى جـمال وجـوده في ثنايـا روحـك الجميلـة″

″إذن فرؤية ما تتوهَّمه من جمالي مفيد لك؟″

″بالنسـبة لـك أنـا أتوهـم، بالنسـبة لي أنـا مؤمـنٌ، وإيمـاني فائـدةٌ بالدنيـا ومـا فيهـا″

″ولكني لا أرى ما تراه في نفسي″

″ربمـا لأنـك لا تُحبـين نفسـك بنفـس درجـة حبـي لهـا، فحبـي لـك يكشـفُ لي مـا لا ترينـه عـن نفسـك مـا دمـتِ تُحبينهـا مثـلي″

″إذن لأرى مـا تؤمـن بـه مـن جـمالي يجـب عـليَّ أن أحـب نفـسي، ولكـن هـذا طريـقٌ طويـلٌ، أليـس هنـاك طريـقٌ أسرع؟″

″انظـري لي كمـرآةٍ لـك، فـإني كل لحظـةٍ أجليهـا لتصـيرَ ناصعـةً لتُبـصري نفسـك أوضـح″

″ولكنك ستكشفُ ما تريد لي أن أراه، فكيف أثقُ بك؟″

البِدَايَةُ

دومًا يتكرر هذا الحوارُ في ذهنها حين تتذكره...

حين يحكي لها عنه عنها، ليس عنها هي، أو ربما عنها وليس عن غيرها...

لم تكن تُريد أن تترَكَ نفسَها تنساقُ خلف ما يُريده لها عقلُها أن تنشغلَ به من أفكارٍ، كانت تُريد لنفسِها أن تكونَ هي مَن تقودُ حبلَ مشاعرِها وأحاسيسِها وما ستكتبه.

لذا أخرجتْ حبيبةُ الورقة والقلم واعتدلتْ في جِلستها على مكتبِها في تلك الغرفةِ. لم تكن قد فارقت إلا من أيامٍ معدودةٍ، ولكنها شعرتْ كما لو كان قد مرَّ عليها زمنٌ منذ جلستْ نفس الجلسة قبل أن تبدأ رحلتها الغريبة...

جلستْ وفي ذهنِها شيءٌ واحدٌ، يجب أن تكتبَ ما حدث حتى تشعرَ أنه قد حدث. كانت متأكدةً من أن وقائع الأيام الماضية قد حدثت لها وعاشتها في الواقع ولكن لشدة ما كانت وقائعَ

غريبـةً فهـي تحتـاجُ لشـاهدٍ يؤكـد لهـا أن مـا حـدث فـد حـدث بالفعـل.

لـذا جلسـتْ تكتـبُ لعـل تلـك السـطور تكـون شـاهدهَا عـلى مـا حـدث. كانـت تحتـاجُ أن تحـكي لمـن يصدقهـا، ولكنهـا كانـت تعـرفُ أنـه لـن يكـون هنـاك مـن سـيُصدقها بسـهولةٍ، لـذا قـررتْ أن تكتـب، فمِـدادُ القلـم وإن كان عصيًّـا عـلى الانقيـاد لغرائـبِ مـا رأتْ وعاشـتْ، إلا أنـه لـن يعـترضَ عـلى مـا سـتكتب، بـل سـينصاعُ لروايتهـا حتـى وإن ظنهـا غيرهـا خيـالاتٍ، حتـى وإن كان أول مـن يشـك فيهـا هـو قلمهـا الـذي تكتـبُ بـه. ولكنهـا يجـب أن تكتـب عنهـم وتحـكي عـن قصتهـا معهـم، يجـب أن تحـكي عـمَّا حـدث لهـا مـع أهـل النـور....

السَّيِّد نُور

كان يتأملها من عالمهِ، عالم الحقيقة بالنسبة لها.

كانـت جميلـة كـما اعتـاد أن يراهـا، كـما أبصرهـا في معناهـا، جميلـةً، لم تكـن حبيبـةُ بالنسـبة لـه شـكلًا ملائكيًّـا يُبهـر مَـن يـراه، كانـت دومًـا لـه معنـى يتعايـشُ معـه، عـرف مـا سـتفعله، بـل كان يعـرفُ مـا سـتفعله، كيـف لا وهـو مَـن شـاركها تلـك الأحـداث، هـو مَـن خلـق للأحـداث معناهـا الـذي سـتكتب عنـه...

اقترب منه وهمس بغير صوتٍ مسموعٍ لنا:

ـ هل ستتركها لتكتبَ عنا؟

لم يكن في صوت المُتحدث نبرة قلق أو توتر، بل لم تكن هناك صيغةُ استفهام رغم أنه كان سؤالًا.

لم يلتفت إليه، ولكنه أجابه في صمته العميق:

ـ لسنا من نصنع القَدر. نحن نسيرُ به.

ـ أعلم ولكن ماذا لو عرف الآخرون عنا، ألا تخشى أن يتهموها بالجنون؟

ـ ومَن نحن لنخشى يا أخي، نحن نرضى فنرقى. هي قد عرفت وهي من يكفيها أن تعرفَ، هي لا تكتب للناس، هي فقط تعيشنا من جديد.

ـ هي تريد وضوح الفكرة.

ـ لِمَ لا، لا تنسْ أن عمق التجربة كان أكبر مما اعتادته مشاعرها، الروح والقلب بحاجةٍ للراحة، لذا فهي ستكتب لعقلها.

ـ ولكن عقلها قد يُعيدها لنقطة الصفر فتخسر كل ما عاشته معك.

ـ هي بحاجةٍ لتخسرَ لتعلم قيمة ما تخسره، ولكنها الآن لديها ما يجعلها قادرةً على أن تستعيدَ بقوةٍ ما قد تخسره؛ لديها معرفة الحب.

ـ إذن سنتركها تكتب عنا يا أخي...

ابتسم وهو يقول بصمتٍ واثقٍ:

ـ نحن أهل النور لذا فلنُنِرْ لها الطريق لعلها تكشف لغيرها روعة ما عاشته معنا....

لتكتـب... ولكـن قصتهـا لا تبـدأ معهـا، قصتهـا تـدور مـع الأكـوان التـي وُجـدت قبلهـا وستسـتمر لمـا بعدهـا.

في اللحظـة الواحـدة يسـيرُ رجـالٌ مختلفـون بخطـواتٍ في اتجاهـاتٍ مختلفــةٍ بــدون أن يــدروا أن خطواتهــم في تلــك اللحظــة مرتبطــةٌ باختـلاف الوقـت في أماكنهـم لـدوران الأرض حـول نفسـها... ولكنهـم ارتبطـوا فيـما بينهـم بـشيءٍ واحـدٍ، بشـخصٍ واحـدٍ، لم يكونـوا يعرفونـه ولم يكـن يعرفهـم، أو لم يكونـوا يعرفونهـا ولم تكـن تعرفهـم....

وفي نفـس اللحظـة التـي ترتبـط فيهـا قصتهـا بأشـخاصٍ في زمنهـا، ترتبـط كذلـك بأشـخاصٍ في وجودهـا خـارج إطـار حاضرهـا، وجودهـا الـذي يتجـاوز الحـاضر أو المـاضي أو المسـتقبل، وجودهـا الـذي يشـمل الزمـن ولا يقـف عنـده، لأنـه وجـودٌ يتقاطـعُ مـع وجـود غيرهـا ومـع وجـوده هـو.

- فلا نهاية لقصتها..

- ولا بدايـة، فقـط وجـود، لـذا دعهـا تحـكي عـما حـضر لهـا مـن وجودهــا فشــاهدته فيــما كُشــف لهــا. دعهــا تُعَــرِف ذاتهــا بحقيقــة مــا ترتبــط بــه وحقيقتهــا.

حَبِيبَة

أجلسُ معك فأشتاقُ إليك،

أتركك فأشتاقُ إليك،

لا سبيل يجعلُ القلب يُخرجك من نبضاته الهائمة في دفقات الحب الصاعدة من أعماق معاني وجودك...

أعلم أنه قد يكون مستحيلًا أن تصيرَ معي بأكثر مما أنت فيه الآن،

ولكني أريد ما هو أكثر مما يريده الآن والزمان كله...

ربما لأني لا أعرفُ ما أريد،

ربما لأن حبي لك جماله في أنه كل يوم يأتيني بالجديد،

لذا فمن الصعب أن يكون هناك توقع،

بل من الحرام أن أقتلَ متعة الحب بالتوقع....

أنا فقط أحبك...

أشتاقُ للحظةٍ في الغيب،

لا يعلمها إلا من الغيب له تابعٌ،

فأتوجه للسيد لعل التابع يعطفُ عليَّ يومًا،

ويُلهمني كشفًا،

ويُرضيني قربًا،

فيا سيد الوجود وخالقه،

اعطـف عـلى قلـبٍ لا يرجـو إلا مـن خلقـت يـداك، ولكـن مـن عشـقي لـه لم يُخلـق إلا لأكـون لـه مـن المحبـين برضـاك...

يا خالق قلبي المحب اعطف عليه بالقرب..

يا رب!

هكـذا أخـذتُ أهمـسُ وأهتـفُ وأُناجـي الحـب والحبيـب وخالقهـما في ظلمـةٍ مـن الليـل...

أنـا حبيبـة وتلـك اللحظـة كانـت بدايـة قصتـي، أو كـما سـأعلم بعـد ذلـك البدايـة وفقًـا لمـا أدركتـه لبدايـة قصتـي..

في تلـك الليلـة جلسـتُ أشـعر بـأن الحيـاة لم تعـد تُحبنـي، لأن مـن أُحـب ليـس معـي، كيـف أشـعرُ بالحـب لوجـودٍ لا يحـضر فيـه مـن لا أشـعر بالوجـود إلا مـن خـلال وجـوده معـي؟

حيـاتي في الظاهـر مسـتقرة، بـل ناجحـة بـل يحسـدني النـاس عليها، ليـس بي شيء يمنعنـي مـن السـعادة في الحيـاة، ولكنـه ليـس معي...

أحببتـه كـما لم أحـب أحـدًا غـيره، ربمـا لأني لم أحـب أحـدًا غـيره. كان هـو حبـي الوحيـد ولا يـزال، عرفتـه حـين بـدأتُ أعـرف عـن الحـب فتعلمـتُ معـه معـاني الحـب وصفاتـه وشـخصياته وأحداثـه وقصتـه....

هـو عنـوان قصـة حيـاتي وتفاصيـل الحـب التـي غمـرت سـطورها حـين بلغـت السـابعة عـشر عامًـا...

عـشرة أعـوام مـرَّت ومـا زالـت سـطورُ قصتـي مكتوبـةً بتفاصيـل حبـي لـه... لا أقـول حبـه لي، فأنـا لا أعـرفُ الآن هـل أحبنـي أم لا،

أعـرفُ أنـه لم يعـد يحبنـي، أو هكـذا قـال، لا أظنـه يكـذب، لعلـه يكـذب، ليتـه يكـذب....

لسـتُ امـرأةً ضعيفـةً، أعـرف ذلـك عـن نفـسي، ولكنـي في يـأس حبـي أشـعرُ أني ضعيفـةٌ لأني امـرأةٌ، أو لعـلي الضعـف الـذي نـبرره بمـا خُلقنـا عليـه، لأننـا ليـس في أيدينـا تغيـيره، ضعـف لأني امـرأةٌ، ضعـف لأن الأهـل فقـراء، ضعـف لأني وُلـدت في هـذا الحـي أو تلـك الدولـة أو بهـذه الجنسـية... الضعـف الـذي نُـبرره بمـا لا قـدرة لنـا عـلى تغيـيره...

ولكنـي أعـي كل ذلـك ولم ألجـأ يومًـا لتلـك الحجـج الباهتـة للبـشر المموهـين الذيـن أراهـم في خلفيـة أحـداث الكـون... هكـذا أنـا، لا أرى عـذرًا للعجـز...

أعرف أني امرأةٌ قويةٌ...

أم فقط أني لستُ بامرأةٍ ضعيفةٍ...

مـا بـين أن أكـونَ قويـة وبـين ألا أكـون ضعيفـة مسـافة لا يقطعهـا إلا مـن يُحـب.. هـذا مـا أعرفـه الآن..

الحـب يُبعـدني عـما خُلقـت لـه مـن قـوةٍ لأكتفـي بالأضعـف. غـيري قـد يزهـو فرحًـا بذلـك المقـام، ولكنـي أرى القـرب مـن الضعـف وإن لم يكـن ضعفًـا هـو في النهايـة بُعـد عـن القـوة..

ولستُ لهذا خُلقت، لقد خُلقت لأكون قويةً......

وحبي له كان يُغذي بداخلي هذه المشاعر؛ أنت قوية...

والآن بـدون وجـودِه لم أعـد أدرك قـوتي رغـم أني أعـرفُ بصعوبـة ضعفـي....

الآن لم يعـد لـه وجـودٌ وصرتُ قصـةً تقليديـةً مثـلي مثـل كل مـن تفقـد حبيبهـا وتجلـس لتنعـى حظهـا...

لا أريـدُ أن أكـون قصـةً تقليديـةً، أن أجلـس لأبـكي أو لـكي يهتـم بي الآخـرون فقـط لأني مكسـورة، فيخرجـوا عـن طبيعتهـم ويبذلـوا جهـدًا ليهتمـوا بي بشـكلٍ مخالـفٍ لما اعتـادوا عليـه، فقـط لأني مجروحـةٌ...

يــا اللــه؛ هــل هــذا مــا ســيحدثُ لي، أن أكــون قصــةً مكــررةً كملايـين النسـاء الـلائي انكـسرت قلوبهـن ثـم مـررن بـدورة الحـزن والألم والضعـف حتـى جـاء مـن ينتشـلهن بقصـة حـب جديـدةٍ ودورة ألمٍ جديـدةٍ، كـما لـو كانـت النسـاء خلقـن فقـط لينزفـن دمًـا مـن أجسـادهن ومـن أرواحهـن...

أنا لستُ كذلك ولن أكونَ كذلك...

سأكونُ امرأةً قويةً ولن أكون (لست) امرأة ضعيفة..

إن قـوتي هـي سـبب بعـده عنـي، أعلـم هـذا، قـدرتي عـلى أن أخلـقَ عالمًـا متميـزًا مختلفًـا وممتعًـا مـن كل مـا أكتشـفه مـن قـدراتٍ وإمكانيـاتٍ وتفاصيـل في الكـون مـن حـولي، هـذه القـدرة جعلتنـي دومًـا قويـةً، قـادرةً عـلى أن أجـدَ الكـون في تفاصيـل معانيـه ويجـدني الكـون في تفاصيـل مـا أكتشـفه عـن حقائـق ذاتي...

قـدرتي عـلى ذلـك التواصـل اللانهـائي مـع الكـون والتعلـم منـه جعلتنـي قويـةً...

هـو عـرف أني قويـةٌ، وجذبـه لي تلـك القـدرة والقـوة، لم يكـن يعجــزني شيء أو يوقفنــي شيء...

هو عرف هذا...

والآن، أنا عرفتُ أنه سبب ضعفي الآن...

هـو عـرف كيـف يُحبنـي لقـوتي ويخلـق عـوالم حياتـه عـلى أُسـسٍ مـن ثبـات مخلوقـات أكـواني، رويـدًا رويـدًا، صـار مـا يجعلـه ينـام مطمئنًـا في ليـل الحيـاة، صـار يفزعـه بكوابيـس تُطـارده في ليلـه ونهـاره.....

لم أعد مَن تُعطيه الأمان....

صرت مصدرًا للقلق والخوف...

ليس قلقًا من أن أتركه لضعفه، ولكنه قلق من أن يفقدني لقوتي...

هذا ما أعرفه لأن هذا ما قاله لي...

ولو لم يقله ما عرفته، بل ما تخيلته....

كيف تخيَّل يومًا أن أتركه؟

حـين تحـدَّث معـي وأخـبرني أنـه يُريـد أن يتركنـي لخوفـهِ مـن أن أتركـه، وأن هـذا يُسـبب لـه قلقًـا لا يقـدر أن يتخلـص منـه..

قلتُ له، ولكني لن أتركك..

قال لي: ولكني عاجزٌ عن أن أصدقك..

قلتُ له: ولكني أحبك وبدونك سأصيرُ عاجزةً مثلك..

قال لي: ربما وقتها أعود، لا أستطيع أن أتحملك قوية..

قلتُ له: لماذا لا تُحاول أن تكون مثلي قويًّا؟

قال لي: أسهل عليَّ أن تصيري مثلي من أن أصير مثلك....

أعتقد أنه فعل كل ذلك لينتقمَ من رغبتي في أن يكون الكون لي، فأراد أن يحرمني مما لا يستطيع لأكون في عدم استطاعتي مكملةً لعجزه...

دار رأسي بالأسئلة، وفكَّرت أن أسأله، لعلي أقنعه، ولكن يبدو أن عجزه بدأ يستشري في عزيمتي، وذبلتْ رويدًا رويدًا أوراقُ الرغبة في أن أحافظ عليه....

أخذت فكرة لماذا لا يحافظ عليَّ هو تُسيطر على تفكيري، لماذا لا يبذلُ جهدًا ليجعلَ ما بيننا يعيش؟ لماذا عليَّ أنا أن أبذل كل طاقتي وهو يتلقى ولا يبذل شيئًا؟

هذه أسئلةُ المُحب الضعيف، من يترك عقله يُدير دفة الحب...

كنتُ أُحدِّث نفسي بتلك الكلمات، ولكني شعرتُ كما لو كان شخصًا آخر يهتفُ بها بداخلي، أو لعلها صدرت من مصدرٍ خارج ذاتي وجسدي....

لم ألتفت وقتها لذلك الإحساس، وأكملت حواري مع ذاتي...

هذه أسئلةُ المُحب الضعيف من يترك العقل ليُدير دفة الحب، المُحب القوي هو من يُؤمن بحبه، فيقود حتى لو كان في الحُب منقادًا وللحبيب منقادًا، هو لا يتوقف عند سؤال لماذا لا يبذلُ الآخر مثل ما أبذل، هو فقط يبذلُ لأنه يُحب وليس لأن من يُحب يُبادله البذل....

في قـوة الحـب لا تصمـت ليتحـدث مـن تُحـب لتسـمع منـه مـا يُرضيـك، فقـط تصمـت ليتحـدث مـن تُحـب بمـا يُريـد وتـرضى بـكل مـا تسـمع أيًّـا كان مـا تسـمع...

المُحـب القـوي يعـرفُ أنـه يُحـب للحـب، لمتعـة أن يشـعر بالحـب لمـن يُحـب، لنعمـة أن يكـون في حـبِّ مَـن يُحـب، لا أكـثر ولا أقـل، لا يبتغـي جـزاء ولا شـكورًا...

فقـط يُريـد أن يُمـارس قـوة إيمانـه بقلبـه الـذي يُحـب، فـيروض روحـه لـترضى فقـط بـأن تُعطـي وتبـذل ولا ينتظـر شـيئًا في المقابـل...

فالانتظارُ ضعفٌ، وهو بحبه قوي...

إن انتظـر شـيئًا فهـو تابـعٌ لمـن يُعطيـه، ولكنـه يُعطـي لأنـه تابـعٌ لرغبـات مـن يهبـه قلبـه وحبـه...

هو تابعٌ يُعطي وليس تابعًا يأخذ..

حـين تهبـين نفسِـك لمـن تحبـين تصـير قوتِـك في أنَّـكِ تقوديـن ذاتـك لخدمـة مـن تَحُبـين بإرادتـك فتمتلكـين ميـزان الكـون ليتناغـم بداخلـك مـا يـراه الآخـرون تضـاد ولكنـه بحبـك لـه تعرفـين أنـه كـمال.

أجل صدقتْ....

انتبهت لجملتي وأنا أهزُّ رأسي تأييدًا لما يقوله...

ولكن من هو...

قفزتُ من مكاني كالملدوغة....

أخذتُ أنظر حولي في رعبٍ ممزوجٍ بترقب....

من هذا الذي يُحدثني كما لو كنتُ أتحدث مع نفسي؟

دارتْ عينـاي في الحجـرة كالمجنونـة وجعلنـي الرعـب أكـثر جـرأةً، فأخـذتُ أقلـب الأغـراض وأبحـث تحـت السريـر، وأفتـح الـدولاب ولكـن لا أثـر لأحـدٍ....

ولكني سمعته؟

أجل لقد سمعتيني...

الصوتُ من جديدٍ...

هل أنا مجنونة؟

لا يا سيدتي أنت لست مجنونةً ولا تستمعي لهلاوس..

أغلقــت عينــيَّ وأخــذتُ أســتغفر اللــه وأســتعيذ باللــه مــن الشـيطان الرجيـم، وجلسـتُ وأنـا أضغـط بكفـي عـلى أذني لأتجنـب سـماعه..

سـيدتي أنـا هنـا مـن أجلـك، أنـت طلبتينـي، أريـدك أن تُهـدِّئي مـن روعـك وسـأحكي لـك كل شيء..

مَن أنت؟ لماذا لا أراك؟

لـن تريـني، عـلى الأقـل الآن، ولكنـي لا أسـتطيعُ أن أشرح لمـاذا الآن كذلـك.. يجـب أن نبـدأ مـن البدايـة....

- بداية ماذا؟

بداية قصتك معنا نحن أهل النور.....

- مممم البداية!!!

السيد نور

البداية معرفة الحب،

ليـس الحــب في أن تطلــب القــرب، الحــب في أن يكــون الحــب مطلوبــك فيطلبــك القــرب.

حـين عرفـتُ أني سـأحبك، لم أكـن أبحـثُ عـن كيـف أكـون بقربـك، فقـط تركـت نفـسي للحـب وهـو خـيرُ مـن يقـود الطريـق لأصـل إليك.

مــن يُحــب يريــد أن يكــون في جــوار مــن يحبــه قلبــه، ولكــن هــذا ليـس مـا يحـدث دومًـا، لـذا فخـيرٌ لمـن يُحـب أن ينعـم بجـوار شـعور الحـب لمـن يُحـب، فهـذا هـو مـا بيديـه ومـا لديـه. أمـا القـربُ بالجسـد أو قُـرب المشـاعر حـين يتحابـب الاثنـان ويتبـادلان نفـس الإحسـاس فليـس لـك مـن أمـره شـيئًا. فقـط أصـدق الحـب وأنعـم بقـرب حبـك لـه مـن روحـك في مكنـون قلبـك وبعـد ذلـك دعْ للحـب أن يوصلـك لـه...

هــذا مـا علَّمنــي إيـاه مَـن علمنــي الحـب في كـون أهـل النـور، وهــذا مـا كان عــليَّ أن أعلمهـا إيـاه....

لـذا كان يجـب أن أجعلهـا تُحـب بـدون أن يكـون للحبيـب وجـود، صعــب؟ أعلــم أنــه صعــب ولكنــه ليــس بمســتحيل، هــي مســتعدةٌ لـه ولكنهـا لا تُـدرك ذلـك، فقـط نحـن علينـا أن نكشـف لهـا مـا هـو لديهـا بالفعـل...

كيــف تُحــب في قــرب بــدون أن تشــعرَ بالبعــد حتــى وإن كان البعـدُ هـو الواقـع الـذي تعيـشُ فيـه؟

حَبِيبَة

- في كون الله لا شيء سوى الله فلو أبصرته في كل شيء كما هو في الحقيقة فلن يغيب..

شيءٌ مهما كان في الظاهر بعيدًا..

- هل هذه هي البداية؟

- أجل يا حبيبة.. البداية هي أن تُبصري حقيقة الوجود في وجودٍ لا ينتهي ولا ينفد ولا يختفي.. حينها لن تشعري بأي فقدٍ أو وحشةٍ أو غيبةٍ..

- البداية هي أن تخبرني من أنت.. كيف جئتَ إلى هنا، كيف أسمعك ولا أراك؟

كنتُ على شفا الجنون من هذا الذي يهمسُ في أذني، مَن يسمعُ أفكاري ويُحدثني بكلماتٍ بلا صوتٍ ولكني أسمعها....

في حياتي لم أكن أؤمن بالغيبيات، كيف لي وأنا بعيدةٌ عن الغيب ولا أراه إلا من خلال خطواتي في واقع الحياة، وبالتالي كل قصص العوالم الأخرى كانت لي في الغالب على رفٍّ بعيدٍ لا يصلُ إليه عقلي فلا أتعب نفسي بمحاولةِ فهمها، فقط أتركها بلا تفسيرٍ...

لذا لكم أن تتخيلوا ما شعرتُ به حين بدأتُ أُحدث صوتًا داخل عقلي..

- لست بداخل عقلك..

ـ كيف تسمع كل هذا إذا؟

ـ هـل لا بـد أن أكـونَ في مـكانٍ داخلـك لأسـتمعَ لِـمَا تُحدثـين بـه نفسـك.

ـ وكيـف إذن تعـرفُ مـا تُحدثنـي بـه نفـسي إلا لـو كنـت بداخـل نفـسي أو عقـلي أو أي شيء في داخـلي....

ـ دعينـا نبـدأ مـن البدايـة أولًا، صدِّقينـي يـا حبيبـة، لـو تتبعتنـي ستجدي الأمـور أسـهل للتصديـق..

ـ يا أيها الصوت، كيف لي أن أثق بك وأنا لا أعرفُ من أنت؟

ـ عنـدك حـق، صعـب أن تثقـي ولكنـي لا أريـد ثقتـك العميـاء الآن، فقـط سـيري معـي خطـوةً خطـوةً، ومـع نهايـة كل خطـوةٍ قـرري هـل ستسـتمرين أم لا. أنـت حُـرة الإرادة ولكنـي هنـا فقـط لأنـك طلبتنـي...

ـ أنا لم أطلبك!!!

ـ دعينا نبدأ وستجدي أنك من طلبني..

شـعرتُ بـه يبتسـمُ لي، ولدهشـتي وجـدت راحـةً في إحسـاسي بابتسـامةٍ لا أراهـا لإنسـانٍ لا أعرفـه، هـذا لـو كان إنسـانًا....

أعـرفُ أنـه يعـرفُ مـا أحـدِّث بـه نفـسي... يـا اللـه إنـه حقًّـا يبتسـمُ لمعرفتـي بمعرفتـه...

ـ لقـد قـررت أن أسـتمع لـك وأعلـم أنـك تعلـم مـا أفكـر فيـه ولكـن هـذا شـعورٌ متعـبٌ.

- لماذا؟ أليس من المريح لك أن يكون مُحدثك فاهمًا لما يجولُ في خاطرك؟

- ولكنك تعرفه كما لو كنتَ تُشاركني في خلق مشاعري وخواطري وتفكيري، أنت لا تفهم، أنت تعرف...

ابتسم لي من جديدٍ في غيب ذاتي فما كان مني سوى أن أبتسم وأكمل كلامي:

- حسنًا حسنًا سأعطيك ثقتي لخطوةٍ واحدةٍ ثم بعدها أقرر، ولكني لو قرَّرت التوقف ستتركني وتدع خواطري لذاتي، اتفقنا؟

- ليس لي من الأمر شيءٌ يا حبيبة، أنا تابعٌ لك وأنت تتبعيني..

- كيف هذا؟

- أنتِ مَن تستدعينني لحياتك بما تكشفينه لذاتك من اضطرابِ وجودك، وإذا حضرت فأنتِ ستتبعينني لما فيه كشفٌ لمعاني راحة حياتك...

- وكيف تعرفُ أن وجودي مضطربٌ؟!!

- هذا الوجودُ وجد بالحب، فحين لا نبصر حقيقة الحب في مظاهر الكون فلا بد أن هناك اضطرابًا يحتاجُ ممن هم مثلي التدخل لاستعادة الحب...

- إذن أنت جئتَ متأخرًا سيدي، فلم يعد للحب وجودٌ في حياتي..

- بالعكس يا حبيبة، أنا جئتُ في الوقتِ المناسبِ لأُنيرَ طريقك فتُبصري الحب على حقيقته..

- ولكني رأيتُ الحب وعشته لا أعتقد أن هناك جديدًا فيما ستقوله لي...

- هذه هي البداية يا حبيبة، أن تعرفي حقيقة الوجود لتبصري حقيقة الحب...

- نظرتُ له بعدم تصديقٍ، أقصد شعرتُ بأني أنظرُ له بعدم تصديق، وهتفتُ به:

- حسنًا سيد... اعذرني ولكن ما اسمك؟

- لا اسم لي، ولكن يمكنك أن تدعيني نور.

- حسنًا يا سيد نور، لنبدأ احكِ لي وأخبرني عن حقيقة الوجود!

- ابتسم السيد نور وسألها في ثقةِ مَن يعرف الإجابة:

- هل تعرفين هذه الأبيات؟

أنا القرآنُ والسبعُ المثاني وروحُ الرُّوحِ لا روح الأواني
فؤادي عندَ مشهودِي مُقيمٌ يشاهدُهُ وعندكُمُ لساني

خرجتْ مني شهقةُ دهشةٍ:

- أجل أعرفها، كيف عرفتَ عنها؟

أكملَ حديثه في هدوئه:

- أغمضي عينيْك وتذكري تلك اللحظة التي استمعت فيها لأول مرة لشعر ابن عربي...

غريبٌ أمرك يا هذا الغريب، لماذا هذه الأبيات، وما علاقتها بما يُحدثني عنه عن حقيقة الوجود؟ ولماذا ابن عربي دونًا عن غيره؟ هكذا حدثت نفسي رغم أني أعرف أنه يستمعُ لنفسي، أعتقدُ أنني سأتوقفُ عن ذِكر ذلك، هو يستمعُ لي ويسمعني سماعه لي حين يُخاطبني، أعتقد أنه يبتسمُ الآن، هو حقًّا يبتسم، وهأنذا أبتسمُ لمعرفتي بمعرفته لمعرفتي به....

لأدع نفسي لخطوته الأولى...

أنا القُرْآنُ والسَّبْعُ المَثَانِي ورُوحُ الرُّوحِ لا روحُ الأواني
فؤادي عندَ مشهودِي مُقيمٌ يُشاهدُهُ وعندكُمُ لِسَاني

حسنًا هذه هي الأبياتُ التي تحضرني حين يذكر لي أي شخصٍ ابن عربي. لهذا كانت دهشتي، ربما لأنها الشيء الوحيدُ الذي أتذكره مما قرأته عنه، فلا أعلم كثيرًا عن ابن عربي بل إني أعلم القليل من أشعاره، ولكن هذين البيتين هما ما يجذبانني حين أتذكر ابن عربي وشعره. قد لا يكونان أول بيتيْن أسمعها له، ولكنهما أول بيتيْن أعرف أنهما لابن عربي، فهل هذا ما يريده السيد نور...

- كل شيء موجودٌ بذاته خارج حدود علمك به هو غير موجودٍ لك حتى يدخل في دائرة علمك...

- فهذان إذن البيتان هما لي أول ما أعرفه من شعر ابن عربي..

- حسنًا، اغلقي عينيْك واستمعي لهما بصوتٍ ذاكرتك لتلك اللحظة التي جمعتك بهما لأول مرة..

هممتُ بغلق عيني، ولكني توقفتُ مترددةً.

ـ ثم ماذا بعد ذلك؟

ـ لا تؤخـري مـا سـيأتيك بسـؤالٍ لـن يمنعـه عـن أن يأتيـك، فقـط دعـي نفسـك لما يَـسَّر لـك في كونـه....

ـ ولكني مترددة...

ـ وأنــا معــك لأزيــح عنــك تــرددك، ولكنــي إن أجبــت ســؤالك زدتــك تــرددًا... فإجابتــي لســؤالٍ يؤخــرك عــن قــدرك ســيزيد روحــك بُعــدًا.. الــروح نــورٌ يزيــح ظــلام الشــك والــتردد، ولكنــك مَــن يجــب أن تفتحــي لهــا البــاب لينتــشر نورهــا في كونــك، فــكل ســؤالٍ يزيــد مــن أقفــال تمنــع النــور مــن أن يخــرج لينــير حياتــك بفهمــك لمعــاني وجــودك. لــن أجيبــك عــن مــاذا بعــد ذلــك ولكــن مــن اليســير عليــك أن تعــرفي الإجابــة بفعلــك بــدون تــردد بــين قــول وســؤال...

ـ وماذا أفعل بالخوف من المجهول؟

ـ ليــس هنــاك مجهــولٌ إذا تعلــق علمــك بعلــم مــن يعــرف المجهول لأنــه خالقــه، هــو مجهــولٌ لــك ولكنــه معلــوم لــه، الغيــب يعلمــه خالقــه وأنــتِ منــه وكنــت للكــون غيبًــا، ولكنــه أظهــرك للوجــود فــصرت معلومــةً للكــون، فاجعــلي علمــك المحــدود بحــدود المجهــول مرتبطًــا بعلمــه اللامحــدود بخلقــه لغيبــك وغيــب الكون ورويــدًا رويــدًا ســتجدين أن الخــوف لا ســبب لــه. ســتجدين أن علمــه يكفيــك لتعلمــي أنــه ليــس هنــاك في الكــون غيــبٌ أو مجهــولٌ..

ـ إذن لأغمضَ عينيَّ..

ـ أغمـضي عينيْـك واسـتمعي لذاكرتـك مـع تلـك الأبيـات، وحـين تجديـن الحـروف مسـموعةً بوضـوح الذكـرى افتحـي الجفـون لتبـصر العيـون...

هممـتُ أن أسـألَ مـاذا سـتبصر ولكنـي وجـدتُ فعـلًا أن سـؤالي سـيمنعني عـن أن أبـصر بنفـسي....

أغلقتُ عينيَّ وبدأتُ أستمع:

أنـا القـرآنُ والسَّـبعُ المثـاني ورُوحُ الرُّوحِ لا روح الأواني
فـؤادي عنـدَ مشـهودِي مقيـمٌ يشـاهدُهُ وعندكُـمُ لِسَـاني

السَّيد نور

ليـس مـن السـهل أن تعيـشَ الذكـرى مـن جديـدٍ، دعنـي أُعيـد صياغـة الجملـة ليـس مـن السـهل عـلى البـشر أن يعيشـوا ذكـرى لم تكـن مرتبطـةً في أذهانهـم حـين حدثـت لهـم بأنهـا سـتكون ذكـرى يومًـا مـا.

حـين تعيـشُ في لحظـةٍ مـا لا يكـون مـن الطبيعـي أن تفكـر كيـف سـتتذكرها أو كيـف سـتُحافظ عليهـا لتعيشَـها مـن جديـدٍ حـين تحتـاج أن تتذكرهـا.

كان علـيَّ أن آخذهـا للبدايـة، أن تُـدرك كيـف أن لحظـاتِ الكـون متشــابكةٌ ومتصلــةٌ، كيــف أن كل مــا في الكــون متصــلٌ وموجــودٌ لاتصالــه بدائــم الوجــود.

مـا دامـت هنـاك حـروفٌ تصـف فالمعـاني لـن تمـوت بـل سـتقيم مـن نقاطهـا جسـورًا تربـط الوجـود بعيـدًا عـن حـدود الزمـان والمـكان الظاهـر...

لا يوجـد لحظـة تمـوت وأخـرى تعيـش، كل اللحظـات موجـودةٌ ولكننـا لا نحتفـظ بهـا بـل ندعهـا تسـقط في قـاعٍ بعيـدٍ مـن اللاذاكـرة، في ظلـماتٍ تتراكـم بتراكـم اللحظـات.

لا يتعلـق الأمـر بمـدى اهتمامنـا باللحظـات التـي نعيشـها أو بعـدم اهتمامنـا بهـا، حتـى أعـز اللحظـات في حياتنـا تتعـرضُ لذلـك التراكـم بمـرور الوقـت. الأمـر يتعلـقُ بإدراكنـا لخلـود اللحظـة حـين نعيشـها.

كانــت حبيبــة مثــل أغلبنــا تعيــش اللحظــة بــدون أن تخلــق لهــا وجــود يتجــاوز الآن، لا تجعــل للحظــة أهميــة فيــما يتجاوزهــا، فتعيشــها لذاتهــا وبالتــالي حــين تنقــضي لا يبقــى إلا الذكــرى التــي تجعلنـا نهتـم بلحظـاتٍ تاليـةٍ ونضـع اللحظـة الماضيـة في ترتيـبٍ أدنى.

مــن الصعــب أن تعيــد الذكــرى للحيــاة مــن جديــدٍ إلا إذا كنــت قـد وهبتهـا الـروح التـي تخلـد بهـا حـين خلقهـا اللـه لـك، هنـا يكمـن الـسر، ومـن هنـا كانـت بدايتـي؛ حـين أدركـتُ أن كل لحظـة في كـوني مخلوقـة لي أنـا وبالتـالي هـي ليسـت لحظـةً عشـوائيةً ولكنهـا لبنـةٌ في بنـائي الخـاص، يجـب عـليَّ أن أرعاهـا وأحافـظ عليهـا مـن أن تنـزوي بعيـدًا في كهـف الذكريـات المظلـم.

كل لحظـة حـرف يجـاور حرفًـا آخـر مـن لحظـةٍ أخـرى ليخلقـوا كلمـة تحتـوي معنـى، واحتفاظـي بلحظـات كـوني في نـور معـاني حروفهـا هـو مـا يخلـق لهـا الوجـود الدائـم، وقـدرتي عـلى فهـم لغـة تلـك الحـروف هـو مـا يجعـل الوجـود طـوع يـدي.

كان عليهـا أن تبحـثَ عـن طريـقٍ لتُخـرج بـه لحظـات كونهـا مـن ذلـك الكهـف المُظلـم، كان عليهـا أن تُحـاول جاهـدةً أن تعيـشَ تلـك اللحظـة بتفاصيلهـا، ومـا كانـت تلـك الأبيـات إلا مفتاحهـا الخـاص لتلـج كهفهـا الخـاص لتبحـث فيـه عـن تلـك اللحظـة...

كانـت الحـروفُ مـن كونهـا ولكنهـا ارتبطـت بذكـرى، فلـو اسـتطاعت أن تفـك رمـوز لغـة تلـك اللحظـة لاسـتطاعت أن تعـبُر لِـمَا سـتذهب إليـه...

كان كل شيء يـلي ذلـك مرتبطًـا بنجاحهـا في بنـاء تلـك اللحظـة مـن بـين حطـام تلـك الذكريـات المُتراكمة.

وكان عليها أن تنجح، يجب عليها أن تنجح...

حَبِيبَة

أنـا القـرآنُ والسـبعُ المثـاني ورُوحُ الـرُّوحِ لا روحُ الأواني
فـؤادي عندَ مشـهودِي مُقيمٌ يُشـاهدُهُ وعندكُـمُ لسـاني

أغلقت عيني وأخذتُ أردد تلك الأبيات مرةً بعد أخرى،

أنـا أتذكـر متـى سـمعتها أول مـرة؛ مـن خمـس سـنوات، في ذلـك الصيـف، في شـهر يوليـو، أو لعلـه أغسـطس؟

مممممم لا لقد كان يوليو، أجل يوليو...

أجل كنتُ في إسبانيا في إجازة معه... لا لم أكن معه، كنت مع مُنى صديقتي، ولكني دومًا كنتُ أحسُّه معي..

هو لم يكن معي حين استمعتُ للأبيات، فقط مُنى...

كنا في غرناطة...

أجل.. ولكن أين في غرناطة؟

صعب عليَّ تذكر كل شيء..

- هل يكفي هذا؟

هتفتُ به وأنا أفتح عينيَّ:

- لا يكفي يا حبيبة.

- ولكن ماذا تريد أكثر؟

- لستُ أريد لنفسي شيئًا ولكني أريد لك.

- وما هو هذا الذي تريده لي؟

- لا أستطيع أن أخبرك قبل أن تصلي إليه وحدك.

- وكيف سأعرف إن وصلت له أم لا؟

- حين تتذكرين تلك اللحظة كأنك تعيشيها ستعرفين ما الذي ستصلين إليه.

- ساعدني إذن لكي أتذكر!

- كل ما تحتاجينه لديك، أنت من عشت اللحظة، وأنت من لديك الذكرى، التفاصيل، المشاعر... لا تبدئي بالمكان والزمان،

ابـدئي بالشـعور، كيـف كان شـعورك في تلـك اللحظـة، بعدهـا ستتشـكلُ كل التفاصيـل..

ـ ولكنهـا لحظـةٌ بعيـدةٌ، كيـف يُمكـن لي أن أتذكـر شـعوري إذا كنـت لا أتذكـر التفاصيـل؟

ـ ابحثـي عـن الشـعور فهـو أسـهل أن تجديـه لأنـه شـعورٌ يـدوم.. أغلقـي عينيْـك، وابحثـي عـن الشـعور. لا تحـدي الزمـن بإهـمال معنـى اللحظـة، ابحثـي في الحـروف عـما يُجسـد الشـعور وسـتجدين مـا أقـول لـك...

حاولـت أن أناقشـه ولكنـي لم أجـد لـديَّ مـا أقولـه، أغلقـتُ عينـي وأخـذت أبحـث عـن شـعوري في تلـك اللحظـة...

كنتُ مشتاقةً إليه....

كان هـذا هـو أول شـعور أتذكـره عـن تلـك اللحظـة، ربمـا لأننـي كنـتُ دومًـا أشـتاق إليـه، ومـا زلـت...

شـوقي إليـه هـو الشـعور المُؤكـد في غيابـه أو حضـوره، ربمـا لهـذا أنـا متأكـدةٌ الآن أني كنـتُ مشـتاقةً إليـه...

دومًـا أشـتاقُ لوجـوده بجـواري، ليُمسـك يـدي، لـيرى مـا أرى، ليُبـصر مـا أبـصر، ليسـمعَ مـا أسـمع وينصـتَ لمـا أنصـتُ..

ليرَى لما أرى!!!

أجـل كنـتُ أريـده أن يـرى جـمال حـواري وطرقـات البيازيـن في غرناطـة حيـث كنـتُ أمـشي تحـت شـمس عـصر ذلـك اليـوم.

غرناطـة مدينـةٌ تحمـلُ في طرقاتهـا مشـاعرَ وأحاسـيسَ تُشـبه شـوقي لـه، تشـعرُ بالأشـجار تشـتاقُ جذورهـا لتربـة سـارت عليهـا أقـدامٌ رحلـت مـن قـرونٍ مضـت. تشـعرُ بسـير النهـر المُنحـدر مـن فـوق الجبـال يريـد أن يعـودَ عكـس التيـار، لعلـه يعـودُ بالزمـن فيسـتعيد أرواحًـا جلسـت عـلى ضفتيْـه يومًـا مـا بأجسـادٍ تعانقـت في حـب أو تهامسـت بعشـقٍ أو سـجدت في خشـوعٍ. تشـعر بشـقوق الزمـن ترسـم في أحجـار الأزقـة مسـار دمـوع الشـوق لمـن رحـل وكان يسـعى في تلـك الطرقـات الضيقـة في سـعادةٍ تصعـد وتهبـط معـه في سـعيهِ بـين تلـك البيـوت التـي حـوت بداخلهـا قصصًـا لـن يعـرف بهـا إلا تلـك الأحجـار.

لـذا كان الشـوقُ هـو شـعوري بـه، وكانـت الطرقـات تسـاعدني في شـوقي لـه. كنـا قـد انتهينـا مـن زيـارة قـصر الحمـرا، ومـا زلنـا في حالـة مـن الانبهـار، وقررنـا أن نجـرب ذلـك الممـر الـذي يسـيرُ منحـدرًا خلـف القـصر نـزولًا إلى حـي البيازيـن مبـاشرةً، لم يكـن طريقًـا معتـادًا للسـائحين ولكـن ذلـك البائـع في محـل الهدايـا والتـذكارات المواجـه لمدخـل القـصر أخبرنـا بـه في إنجليزيـة ركيكـة.

وانطلقنـا في ذلـك الممـرِّ بـدون تفكـير، ربمـا لأن روح المغامـرة بداخلنـا كانـت منتشـيةً بمـا قـد شـاهدناه مـن جـمالٍ للتـوٍّ بقـصر الحمـرا...

وبالفعـل كان طريقًـا مختلفًـا، لم يكـن جميـلًا بشـكلٍ مبهـرٍ، ولكـن اختلافـه هـو مـا جعـل شـعورنا بجمالـه أمـرًا حقيقيًّـا. أن تبـصر الجـمال بارتباطـه بشـعورٍ غـير مرتبـطٍ مبـاشرةً بمـا اعتـدت عليـه

مـن تعريـفٍ للجـمال هـو مـا جعلنـا نشـعر شـمولية هـذا الجـمال فتغلغـل بداخلنـا...

مـا هـذا، هـذا شـعورٌ آخـر غـير الشـوق، شـعورُ الجـمال في تلـك اللحظـة كان مختلفًـا عـن شـعوري بـه في زيـارة قـصر الحمرا، أسـتطيع أن أشـعر بـه الآن، بـل أسـتطيع أن أرى خطواتنـا المتهاديـة نـزولًا سـيرًا بمحـاذاة ذلـك الجـدول الصغـير الـذي يرافقنـا، بـل أكاد أسـمع دفقـات المـاء حـين تلتحـم بجسـد النهـر الصغـير المسـتقر عنـد أقـدام التـل الـذي يعتليـه قـصر الحمـرا...

أرانـا الآن نعـبر النهـر مـن فـوق ذلـك الكوبـري الصغـير ونـسرع الخطـى لنصعـد الطريـق لندخـل حـي البيازيـن...

أشـعرُ بتعـب الصعـود، الجـو حـارٌّ وخانـقٌ حـين تعـترض الشـمس طريقـك، لـذا كنـا نسـيرُ نبحـثُ عـن الظـل، في ظـل بيـوت الأزقـة صعـودًا وهبوطًـا، كانـت هنـاك خريطـة بيـد مُنـى، ولكنـي لم ألتفـت لهـا، سرت كـما لـو كنـت أعـرفُ طريقـي، رغـم أني لا أعـرف إلى أيـن سـنصل.

مـع كل انحنـاءةٍ بيـت تتوقـع طريقًـا لليمـين ولكـن تجـده لليسـار، فتجـد نفسـك تسـير وفقًـا لمـا يُمليـه عليـك الواقـع، لا تعـود للخلـف لتجـرب طريقًـا آخـر، فقـط تتابـع اتبـاع مـا يحكـم بـه جـدار البيـت المواجـه لـك، تؤمـن أنـك سـتصل، ولكنـك لا تبـصر إلى أيـن سـتصل..

رغـم كل مـا قـد توحـي لـك بـه الجـدران والأزقـة مـن إحسـاسٍ بالتيـه، إلا أنـك تشـعر بالأمـان، لا يوجـد أشـخاصٌ كثـيرون، وقـد تسـير لدقائـق تطـول ولا تجـد أحـدًا، فقـط أصـوات خطواتـك، وربمـا جـرس كنيسـة يعلـن انتصـاف السـاعة أو تمامهـا، لا تهتـم، لديـك رغبـةٌ في

الوصـول، ولكـن لديـك عشـقًا لعـدم الوصـول، تنازعـك متعتـان، متعـة بلـوغ نهايـة تلـك المغامـرة، ومتعـة معايشـة المغامـرة....

إني أبـصر خطـوتي، أبـصر تلـك الأزقـة، أشـعرُ أني أقـترب مـن تلـك اللحظـة...

هل كانت تلك اللحظة هي نهاية مغامرتي؟

ـ ربما كانت البداية..

ـ هـل كنـت تعلـم مـا سـأجد؟ هـل كنـت تعـرف بمـا حـدث؟ بشـعوري حينهـا؟

ـ أنت من يبصر الآن شعورك، أنت من يجب أن يُجيب..

كنـتُ أسـابق مُنـى، كنـا في نشـوةٍ لاكتشـاف نهايـة تلـك المتاهـة، لم يكـن تيهًـا، كانـت متاهـة، التيـه يُفـرض عليـك، أمـا المتاهـة فتدلـف إليهـا بذاتـك لتسـتمتعَ بشـعورِ اكتشـافٍ جديـدٍ، أو فقـط لتسـتمتعَ ولـو ظاهريًّـا بنشـوة الوصـول..

كان هنـاك شـعور نشـوة، ترقُّـب، تـذوُّق للجـمال، احتـواء للكـون، وكان هنـاك شـعورٌ بالاشـتياق..

كنـــتُ أريـــده معـــي، يســـيرُ بجـــوار حوائـــط البيـــوت البيضـــاء، يُســـابقني، فيســـبقني، يبعـــد فيختفـــي عـــن ناظـــري فأتبعـــه لأجـــده ينتظـرني، أحتاجـه بجـواري، يتـذوق هـذا الجـمال، أحتاجـه ليبعـد ثـم يقـترب، يغيـب ثـم يعـود.. أجـل كان هـذا هـو شـعوري في تلـك اللحظـة حـين اسـتمعت لتلـك الأبيـات....

كنـتُ أشـتاقُ إليـه وأريـده معـي، ليختفـي في تلـك المتاهـة ثـم أجـده فيعـود ليختفـي فأشـتاق إليـه ولكنـي أجـده مـن جديـدٍ. لم

تكن لعبةً، أو لتسمها لعبة، ما يهمني هو أن يكون هو الحاضر الغائب فيها، أو الغائب الحاضر، لا يهم، ما دام شعور الفقد سيكمل بالوجود، ما دام الاشتياق سيرعاه اللقاء، ما دمتُ أعلم أنه سيعود...

كان هذا هو شعوري في تلك اللحظة، تراكمت مشاعر اللحظات السابقة لتخلق ذلك الشعور الفريد بداخلي؛ ربما كان غرورًا مني، ربما كنت في نشوة اللحظة لا أعلم ما يجب عليَّ أن أشعر به وما يجب عليَّ ألا أشعر به، لحظتها لم أفكر، كنت أشعر فقط، أشتاقُ إليه وأريده معي ولكني كذلك أريده أن يبعد لأستمتع بشعور الاشتياق بعد اللقاء ثم لأنهل من اللقاء بعد متعة الاشتياق، لم أعلم وقتها أنه سيجيء يومٌ لن يكون لي فيه إلا الاشتياق، ولن يكونَ متعة بل سيكون عذابًا، لأني حينها لن يكون لدي ثقتي في أنه سيعود....

- ولكنه موجود..

- ليس معي.

- ولكن ألا يكفي وجوده ليظل لديك الأمل في أنه سيعود.

- لن يعود، سيكون عليَّ أن أذهب إليه.

- أليسا نفس الشيء؟

- ليسا كذلك بالنسبة لي يا سيد نور.

ما زالت عيناي مغمضتيْن، وهو يُحدثني.

- هل تريد أن تشغلني عن شعوري وقتها؟

ـ لا يـا حبيبـة ولكنـي أسـاعدك أن تعيـشي تلـك اللحظـة فقـط، اسـتمتعي بهـا كـما كنـتِ تسـتمتعين لحظتهـا، لـن تعيـشي اللحظـة لـو تركـتِ نفسـك تفكـر فيـما يليهـا..

ـ حسنًا، شكرًا لك..

ـ لا تشـكريني، فقـط تابعـي شـعورك لتلـك اللحظـة فقـط، لنصلَ لما أريـد منـك أن تبصريـه.

أنـا الآن فعـلًا أُبـصر ذلـك الزقـاق حيـث تكاسـلت خطـواتي أنـا وصديقتـي، اقتربنـا مـن محـلات الهدايـا والمشـغولات اليدويـة، وبـدأ المـكان يصـيرُ أكـثر ازدحامًـا، ولكنـي لمحـتُ طريقًـا صاعـدًا قبـل ممـر المحـلات، فتركـت مُنـى تسـير وأخـذت الطريـق الصاعـد يمينًـا كان هنـاك محـل صغـيرٌ لا يبـدو أن المـارة يلتفتـون إليـه، لمـاذا يصعـدون لأعـلى للـشراء مـن محـل مثلـه والطريـق الآخـر بـه محـلات أكـثر ولا يتطلـب جهـدًا. ولكنـي قـررتُ أن أصعـد شـفقةً عـلى البائـع، أجـل، شـفقة، شـعرتُ أنـه يحتـاجُ مـن يشـتري منـه، والجميـع تخلفـوا عنـه، لـن يـضرني أن أتعـب قليـلًا مـا دام سيسـعد...

ليسـت مثاليـةً منـي، ولكنهـا اللحظـة ومـا احتوتـه مـن مشـاعر، قـد يدفعـك شـعورٌ جميـلٌ لعمـلٍ جميـلٍ لا تقـوم بـه لـو لم يكـن لديـك ذلـك الشـعور.... وكنـت في تلـك اللحظـة أعيـش شـعورًا جميـلًا، واكتمـل ذلـك الشـعور حـين سـمعتُ صوتًـا مـن داخـل المحـل يتلـو تلـك الأبيـات:

أنـا القـرآنُ والسَّـبعُ المَثـاني   وروحُ الـرُّوحِ لا روح الأواني
فـؤادي عنـدَ مشـهودِي مُقيمٌ   يُشـاهدُهُ وعندكُـمُ لسـاني

كان مـا اسـتوقفني هـو وجـود اللغـة العربيـة في ذلـك المحيـط مـن اللغـة الإسـبانية؛ بعـد أن تقـضي وقتًـا لا تسـمع فيـه لغتـك إلا مـن شـخصٍ واحـدٍ سـيصيرُ وقعهـا غريبًـا عليـك حـين تسـمعها مـن شـخصٍ غـيره.... وهـذا شـعورٌ مُختلـفٌ، ليـس بالـضرورة أن يكـون مـا اعتـدت عليـه خـارج دائـرة مـا يُدهشـك أو يُبهـرك أو يُخلـق شـعورًا مختلفًـا عـما اعتـدت عليـه. فرغـم أني أعـرف لغتـي العربيـة، إلا أنهـا اسـتطاعت في تلـك اللحظـة أن تجذبنـي لأبعـادٍ مختلفـةٍ عـما اعتـده عليهـا...

ربمـا لأني لسـتُ في شـط قواعدهـا الآمـن، ربمـا لأني غريبـة بهـا عـن غيرهـا ولكنهـا تظـل مـا يحفظنـي عـن غربتـي، ربمـا لأن إحسـاس غرناطـة الجميـل المنطلـق في متاهـاتٍ تصـل بي لمعنـى لم أدركـه إلا حـين اسـتمعت لتلـك الأبيـات.... أجـل هـذا مـا شـعرت بهـا، تلـك الأبيـات هـي مـا كنـت أسـعى إليـه في تلـك الأزقـة.

- هـذا مـا شـعرتُ بـه يـا سـيد نـور، الأمـان، كأني قـد وصلـت لمـا كان عـليَّ بلوغـه بـدون علـمٍ منـي مـا هـو...

سيد نور!!!!

سيد نور، أين أنت؟

تلفـت حـولي رغـم علمـي أنـه ليـس بظاهـرٍ حـولي ولكنـه بداخـلي ولكنـه لم يكـن لـه وجـود، ولكـن هـذا لم يكـن مـا أفزعنـي، أنـا أعلـم أنـه ليـس موجـودًا خـارج عقـلي، عقـلي الـذي قـارب عـلى الجنـون، ولكـن مـا أفزعنـي هـو مـا رأيـت، رأيـت مـا أكـد لي أني تجاوزتُ حـدَّ الجنـون...

السَّيِّد نُور

جلستُ أتأملها في حيرتِها مما تركتها فيه، غريبٌ أمر الإنسان في حيرته ودهشته مما يراه مفاجأةً له رغم أن كل ما حوله يهتفُ به بما سيحدثُ لاحقًا، ليس استشرافًا للغيب ولكنها معرفة إيمان وبصيرة بما هو مكتوبٌ في صفحات الكون من حوله...

في صفحات الكون تتناثرُ حروفُ لغةٍ خاصة بين خالق الأحداث والغيب وبين من يعيشُ الأحداث ويصل لشاطئ الغيب فيعلم، ولكن الغيب ليس خلقًا من جديدٍ نشأ في فراغٍ مقطوعٍ عما يحدث من قبله وما يحدث من بعده وما يحدث من حوله، فبناء الغيب يمكن لك أن تقرأه لو تعلمت كيف تقرأ لغة خالقه، ولن يُفاجئك حينها شيء بل سيزيدك كل حدث تبصره قبل أن تراه معرفةً بلغةِ خالقه.

وأول دروس تلك اللغة هي حسن الظن، أجل كل ما سيحدث ويحدث وحدث سيأخذك لشيءٍ جميلٍ أو أجمل أو كامل الجمال، لن ينقص درجة عن واحدة من تلك الدرجات الثلاث...

- حين تحضر لأول مرةٍ في حضرة حروف لغته في كونه سيكون من الصعب عليك أن تستطيع القراءة من أول سطر..

- أجل، كان من الصعب عليها أن تبصر ما هي فيه الآن.

- ولكن تظل حقيقة أنها كانت قريبة من أن تبصره لو سمحت لروحها أن تستسلم أكثر لمنطق الجمال فيما كانت تشعر به.

- كان جمال الشعور يفرض عليها أن تعيش اللحظة من جديد.

- لذا كان عليها أن تبصر أنها ستعيشها من جديدٍ، فعليًّا.

- نظرتُ إلى رفيقي ووجدته يبتسم لي في هدوءٍ.

حَبِيبَة

لقد كنتُ أمام ذلك المحل الصغير، أهتفُ باسم السيد نور، أرى مُنى تسير في الممر الأدنى وترفع رأسها وتشير إليَّ باستفهامٍ، كما لو كانت تسمعني أهتف باسم ذلك الجنون الذي سكن عقلي..

ولكني لستُ مجنونةً، أنا بالفعل واقفة أمام ذلك المحل الذي كنتُ أشعر أمامه بالأمان من لحظةٍ قبل أن أجد نفسي بكياني أمامه...

لحظة لأستوعب أين أنا ومن أنا، أنا حبيبة بنت الآن، حيث كنت في حجرتي في الليل قبل أن تصيبني تلك الهلاوس النورانية، الآن كذلك أنا حبيبة ولكني في جسد تلك الحبيبة التي كانت في غرناطة قبل سنواتٍ من وجودي الآن!!!!

هل أنا في جسدها فقط؟

لا أعتقد فأنا رغم شعوري بالحيرة والتشتت ما زلتُ أشعرُ بشعورها حين وصلت لذلك المحل واستمعت لتلك الأبيات.

ولكنها أنا... أنا مَن شعرت بكل هذا.

إذن أنا مَن عُدت في الزمن.

ـ ليس عودة في الزمن، فقط عودة ذاتك في وجودك.

ـ أنت من جديد، ماذا فعلت بي؟

ـ لم أفعل بك شيئًا يا حبيبة، أنت من وصلت إلى هنا.

ـ ولكن كيف؟

ـ لستُ من يُجيب عن الكيف ولكن أنت من عُدت لوجودك بذاتك، فأنت أقدر مني على معرفة الكيف، أنا فقط ساعدتك أن تكتشفي تلك الكيفية..

ـ أرجوك يا سيد نور، أنا محتارة ومشوشة بشكلٍ لا يسمح لي بفهم ألغازك، اشرحْ لي بوضوحٍ ما هذا الذي أنا فيه؟

ـ حسنًا، رغم أن الأمر واضح لك، أنتِ في وجودك، وجودك الذي يتجاوز ما تفرضيه عليه من زمانٍ ومكانٍ، هذا الوجود الذي احتوى حياتك وحياة من ارتبطت بهم حياتك، ليس فقط في لحظات لقائك بهم في مجرى الزمن الخاص بك، ولكن مجرد تقاطع وجودهم مع وجودك يجعل وجودك محتويًا لوجودهم، لأنه لولا وجودهم ما التقيتم..

ـ فأنت في هذا الوجود الخاص بك، ليس في الأمر لغزٌ، حين تبصرين ما في لحظاتك من قيمة ومعانٍ عايشتها بما لديك من مشاعر وأفكار وتفاعل إنساني، حين تقرئينها بحروفها الخاصة وتفهمين لغتها، حين تبصرين قيمة تلك اللحظات سيصبح وجودك في تلك اللحظات لانهائيًّا بلا نهائيتها ولا نهائية خالقها.

- ماذا تقصد بلا نهائي؟

- حـين تدركـين قيمـة كل لحظـة سـيصبح مـن السـهل عليـك أن تعيشـيها بـدون حواجـز المـكان والزمـان، لارتباطـك بهـا نفسـيًّا وجسـديًّا وفكريًّـا..

- بـدأتُ أحـاول أن أقلـل مـن توتـري ولكـن في نفـس الوقـت لم أكـن بالفعـل أدرك عـما يتحـدث..

- مـا الفـرق بـين مـا أنـا فيـه وبـين تذكـر اللحظـات الغاليـة والقيمة في حيـاتي، لمـاذا أنـا في ذلك الزمـن الآن؟

- حـين تتذكريـن فأنـت لا تسـمحين لـكل اللحظـة أن تعـود إليـك، أو تعوديـن إليهـا، لا تسـمحين إلا بمـا تسـتدعيه الذاكـرة، ولكنـك الآن تعيشـين تلـك اللحظـة مـن جديـدٍ، لأنـك لم تنتـقِ جـزءًا دون الآخـر، أو فكـرة دون الأخـرى، أو شـعورًا دون الآخـر، أنـت سـمحتِ لـكل وجـودك الآن أن يسـتحضر كل وجـودك في تلـك اللحظـة....

- هذا تكنيك جديدٌ للسفر عبر الزمن!!!

قلتها بنوعٍ من السخرية أو قلة الحيلة..

- ليـس سـفرًا عـبر الزمـن، فهـذا هـو وجـودك تتعرفـين عليـه، أنـتِ فقـط تعيشـين لحظاتـك كـما عشـتها مـن قبـل.

- إذن لن أستطيع أن أغير فيها شيئًا؟

- لـن تسـتطيعي أن تغـيري في لحظـات حياتـك الماضيـة ولكـن يمكنـك أن تتعلمـي منهـا أشـياء لحياتـك التاليـة..

- مـاذا أتعلـم منهـا وهــي بالفعـل قـد حدثـت وأعلـم عنهـا مـا حـدث لهـا بالفعـل؟

- حدثــت بالفعــل ولكنــك حينهــا لم تكــوني عــلى وعــي بأنــك تحتاجـين أن تتعلمـي شـيئًا، لقـد حدثـت أشـياء وتفاعلـت مـع أشـخاصٍ بـدون وعـي باحتياجـك أن تتعلمـي وبالتـالي إن عشـت تلـك الأحـداث مـن جديـدٍ بهـذا الوعـي سـتجدي أمـورًا مختلفـةً تقـودك لأبعـادٍ مختلفـة.

- إذن كيف سأعود لطبيعتي؟

كنـت فقـط أريـد أن أسـتيقظ مـن ذلـك الحلـم أو الكابـوس أو الخيـال أو الجنـون، لم أكـن أعـرف أيـن أنـا ولا كيـف أعـود.

- حبيبة، هذا وجودك، هذه حياتك...

- ليسـت حيـاةً طبيعيـةً لشـخصٍ طبيعـي أن يغمـضَ عينيْـه ليجـدَ نفسـه في زمـنٍ مـاضٍ..

- من قال لك إن هذا ليس طبيعيًّا؟

- لم يخبرني أحدٌ بهذا من قبل..

- ربمـا لم يخـبرك لأنـه لا يجـب لـه أن يخـبرك، ربمـا هــي تجـارب خاصـة لا يطلـع عليهـا إلا مـن يعيشـها فقـط.

- إذن هذه هي الحياة الطبيعية للجميع؟

- هــي طبيعيـة ولكـن لا يصـل الجميـع لهـا، ولكـن هنـاك مـن يصـل إليهـا، حـين يـأتي الوقـت المناسـب للوصـول.

- وهل أنت موجودٌ لتساعد الجميع أن يصلوا؟

ـ لا أنا فقط موجود معك.

ـ لماذا أنا؟

ـ ولماذا ليس أنت؟ لا تتعبي نفسك في الأسئلة، كل ما تحتاجين معرفته ستعرفيه حين تستطيعين قراءته، كل المعرفة التي تريدينها موجودةً ولكن عدم علمك بلغتها هو ما يمنعك من قراءتها...

لم أجد من الحوار معه نتيجةً غير أنني يجب أن أستمر...

ـ هل عليَّ أن أعيش لحظاتي من جديد؟

ـ عليك أن تبصريها من جديدٍ، ستجدين أن ما كنتِ تظنينه حدث هو في الحقيقة بابٌ لعالمٍ مختلفٍ.

ـ هل عليَّ أن أنتقل من جديد؟

ـ لا تقلقي فقط دعي ذاتك تعيش ما هو في وجودك وستبصرين لحظتها الكون بشكلٍ جديدٍ..

ـ سؤالٌ أخيرٌ؛ لماذا يجب عليَّ أن أبصر الكون بشكلٍ جديدٍ؟ ما الهدف من كل هذا؟

ـ قلت لك عليك أن تعودي للبداية لتبصري حقيقة الحب.

ـ إذن لو أبصرت الكون بشكله المختلف سأدرك حقيقة الحب؟

ـ ستعرفين حقيقة حبك حين تبصرين ارتباط الكون في داخلك بالكون في خارجك، كيف أنك جزءٌ منه وهو جزءٌ منك..

ـ والآن أنا على أعتاب ذلك الكشف بوصولي لذاتي في تلك اللحظة؟

شعرتُ به يبتسم..

ـ لنطلق عليه ذلك، أنت على أعتاب ذلك الكشف، وإن كان الطريق ما زال بعيدًا..

ـ تقصد محطة الوصول؟

ـ لا، أقصد الطريق.. لا تشغلي بالك بهذا الآن ودعي ذاتك تقودك في وجودك بوعي منك بما عليك أن تفعليه...

ـ كما لو كان لي خيارٌ آخر؟

ـ دومًا هناك اختيارٌ ولكن لا ندركه إلا بعد أن نظن وهمًا أنه ليس هناك اختيار، فلا يصبح للاختيار معنى. اختاري يا حبيبة...

لوهلةٍ ظننتُ أني فهمتُ تلك الجملة..

ـ اخترت أن أكمل، هل أحتاج أن أغلق عيني؟

ـ لماذا؟ أنت حيث تحتاجين جميع حواسك..

لا أعرفُ هل اختفى كالمرة السابقة أم ما زال قابعًا في جنبات ذاتي يستمع لما أقوله لذاتي كالرقيب، ولكني كنتُ قد استوعبتُ أين أنا، لأني كنتُ حيث كنتُ يومًا ما، لم أشعر بأي استغرابٍ أو استيحاشٍ لما أنا فيه، ربما لأني بالفعل من عشت تلك اللحظات من قبل، ولكني كذلك لم أشعر بالتكرار لما حدث، حتمًا لأن ذاتي ما زالت متحفزةً لما عليها أن تعلمه عن وجودي في تلك اللحظة. لابد أن هناك شيئًا مهمًّا سيحدث وإلا لماذا هذه اللحظة بالذات هي ما كان عليَّ معايشتها؟

ولكـن لـو كان هنـاك شيء مهـم سـيحدث لمـاذا لم أعـرف بـه وقتهـا؟ لعـل السـيد نـور عـلى حـق، لعـل الـشيء المهـم حـدث ولكنـي لم أكـن عـلى وعـي بـه فلـم أدركـه في وقتهـا!!!

الآن هي فرصتي لأدرك ما فاتني...

كان المحـل صغـيرًا كغـيره مـن المحـلات في حـي البيازيـن ولكنـه كان وحيـدًا، لا أدري لمـاذا ظـن مـن اسـتأجره أو اشـتراه أنـه سـيبيعُ بشـكل أفضـل لـو انعـزل عـن غـيره مـن المحـلات التـي تصطـف بجـوار بعضهـا البعـض. في حـين أن زحمـة السـير أسـفل الطريـق كانـت تُعطـي انطباعًـا بحركـة بيـع أعـلى، كان المحـل المنعـزل وحيـدًا لا يوجـد أمامـه إلا شـخصي المُتحـير بـين الدخـول أو الرجـوع...

لا أتذكـر مشـاعر حـيرتي هـذه حـين تذكـرت وقـوفي الأول، الآن هـذه ليسـت تجربـة الذكـرى، الآن أنـا أعيـش تجربـةً جديـدةً في شـكلٍ قديـمٍ، هـل أسـتمر كـما كنـتُ مـع وعـي مختلـفٍ أم أخلـق وعيًـا مختلفًـا تمامًـا؟ هـل هـذه فرصـةٌ جديـدةٌ أم تأكيـدٌ لتجربـةٍ قديمـةٍ مـع بعـض الإضافـات الجديـدة...

انتبهـتُ لعـلِّي أسـمعُ صـوت السـيد نـور ليُرشـدني، ولكـن يبـدو أنـه يتعمـدُ أن يتركنـي حـين أظـن أني أحتـاجُ رأيـه ويظهـر حـين يبـصر أنـه يجـب أن يرشـدني. مـا دام لم يظهـر صوتـه فـإذن أنـا مـن عـليَّ أن أختـار، أو الخيـاران واحـدٌ في النتيجـة وإن اختلفـا في الشـكل...

لذا تركتُ حيرتي بالخارج ودخلت....

كان المحـل أو الـدكان بالفعـل صغـيرًا كـما أتذكـره، كان يحتـوي عـلى المشـغولات التقليديـة ذات الطابـع العـربي التـي تُصنـع في

المغرب العربي، مصدر معظم هذه المشغولات، يمكنك أن تجد مثلها في فاس أو مراكش في المغرب، ليس فيها ما يميزها غير اختلاف الكلمات المكتوبة لتحتوي على أسماء المدن الأندلسية المختلفة، منقوشة أو مطبوعة أو مشغولة...

كان الرجلُ جالسًا في زاويةٍ من الدكان وبيده كتابٌ صغيرٌ يقرأ منه و يردد تلك الأبيات مرةً بعد أخرى كما لو كان غير منتبهٍ لدخولي، ربما لاعتياده على دخول الزبائن مثلي، الذين يقطعون وقتهم برؤية الأشياء المعروضة بدون أن يشتروا فعليًّا شيئًا، كما لو كان من طقوس السائحين مشاهدة المحلات بدون شراء. كان ينتظر من يسأله ولكنه لم يكن ليتبرع بتوضيحٍ أو إجابةٍ أو حتى ترحيبٍ. حين تعتاد شيئًا يصيرُ مهمًّا أن تجد ما تضيفُ عليه حتى لا تُصاب بالجنون من الجلوس هكذا في انتظار جديدٍ لن يحدث...

عادت الحيرة من جديدٍ، هل أقطع عليه قراءته أم أتركه وأرحل؟ لقد كرَّرت ما فعلتُ فيما مضى بالفعل، ليس هناك جديدٌ، لقد دخلت وتفرجت ثم خرجت لألحق بمُنى لنتوجه لتناول وجبة الغذاء.

أتذكر أني بعد أن رحلتُ احتفظتْ ذاكرتي بالأبيات وعدتُ للفندق وبحثت عنها على الإنترنت وعرفت عنها وعن كاتبها الشيخ الأكبر، هل أفعل نفس الشيء وأكتفي بذلك أم أسمح لنفسي بشيءٍ مختلفٍ...

كل ما أنا فيه الآن مختلف، لماذا أتردد إذن؟

ـ سيدي، لو سمحت؟

هتفت بالعربية على استحياء..

رفع رأسه في هدوء..

- تفضلي سيدتي، هل تريدين الاستفسار عن شيءٍ يُعجبك هنا؟

قالها بعربيةٍ ذات لكنةٍ واضحةٍ، ولكني لم أستطع تمييزها كما لو كانت من لغةٍ مختلفةٍ عن الإسبانية، أو كما لو كانت عربيةً غير التي أعرفها، ولكن قالها بهدوءٍ كما لو كان غير مهتم أو غير متوقعٍ لسؤالي، ولكنه لم يبد عليه الاستغراب لأني أتحدث العربية في إسبانيا.

الآن جاء الدورُ عليَّ لأجيب، ولم أكن مستعدةً لذلك. قررتُ ألا أضيع وقته أكثر من ذلك..

- لا أريد أن أسأل عن الأشياء التي تبيعها، و لكني أريد أن أعرف عن الأبيات التي تتلوها، لمن هي؟

يبدو أنه لم يتوقع إجابتي، تردد قليلًا قبل أن يُجيب:

- هي لمن ملأ الوجود حضوره وخلد حين حضر وجوده، هل تعرفينه؟

ترددت قليلًا في الإجابة؛ أنا أعرف من قائل الأبيات من ذلك الوقت الذي قابلته فيه في الماضي، ولكني الآن أريد أن أعرفه منه...

- تتحدث عنه كما لو كنت تعرفه جيدًا.

كنت أحاول أن أهرب من الإجابة، لعله يُجيب

- أعرفه معرفتي بذاتي...

ـ ما اسمه؟

ـ محمد بن عربي، هل تعرفينه الآن؟

ـ ليس بشكلٍ مباشرٍ ولكن بالتأكيد كل من يقرأ في الأدب العربي يعرفه. ولكن هل يمكنني أن أسألك لماذا تُكرر الأبيات بهذا الشكل، هل هو نوعٌ من الأوراد أو التبرك بها؟

لا أعرف من أين جاء هذا السؤال ولكني لم أجد عليه أي ممانعةٍ للسؤال، حيث جاوب بهدوءٍ:

ـ ليس وردًا أو تبركًا يا سيدتي، ولكنه استئناسٌ وتذكيرٌ وحضورٌ...

ابتسمت تلك الابتسامة التي لا تحمل إلا معاني عدم الفهم، فابتسم لي وقال:

ـ هل تشربين الشاي أم نذهب للمنزل لنتغدى، لأن الحديث سيطول...

استغربت دعوته، ولكني لم أجد بداخلي أي شعور بالدهشة من نفسي حين وجدتني أساعده على إغلاق الدكان وأتبع خطواته بهدوءٍ وهو يسير في تلك الأزقة من جديد، ولكنه لم يكن مثلي تائهًا في خيوطها العنكبوتية، كان يعرف الطريق لبيته، الذي لم يكن يبعد كثيرًا عن الدكان.

فكرت أن أبلغ مُنى بأني سأتأخر ولكني مرة أخرى شعرتُ بحيرةٍ من أنا؛ ولم أكن أريد أن أتفاعل مع وجودٍ آخر من الماضي في الماضي وهو ما زال يعيش في حاضري..

ما الذي كان ليمنعني من أن أخبرها بما سيحدث لها؟ لم أكن أريد أن أشغل ذهني بهذه التفاصيل الآن...

أنا هنا مع هذا الرجل الغريب الذي لا أعرف عنه شيئًا ولكني تركتُ نفسي أتبعه وأدخل معه بيته الصغير القابع في أحد الأزقة خلف دكانه الصغير...

ربما ما زلتُ أشعر بأنه ليس لي وجودٌ فعلي في هذه التجربة، ربما لإحساسي أنه حلمٌ يمكنني أن أستيقظ منه في أي وقتٍ، ربما لأنه مهما حدث من سوء فسيحدث لحبيبة ذلك الوقت وبنت تلك اللحظة وليس لي...

لا أعلم غير أني تبعته بدون تفكيرٍ في سببٍ يقنعني أن أتبعه، ولكني أعتقد أنه إحساسي العام بأن أترك نفسي له كما تركتها، وما زلت، للسيد نور. هل هو السيد نور في شكل رجل؟

يجب أن أتوقف عن التساؤلات الآن... لن أصل لشيء لو كنت معه بجسدي وعقلي مشغول بتلك الأسئلة...

يكفيني أن أعرف أن السيد نور موجودٌ وسيأتي إن احتجت له فعلًا، يبدو أن عقلي لديه سؤالٌ جديدٌ قبل أن يتركني؛ كيف يمكن أن تثقي في شخصٍ لا وجود له إلا في داخلك ليحميكِ مما هو خارجك؟

لن أجيب...

أنا فقط أعرف...

كم أحببت تلك اللحظة من اليقين، كم كنتُ أفتقد ذلك الإحساس بأني أعرف بلا سببٍ منطقي، فقط أعرف..

كنا قد وصلنا عند باب البيت وبدأ في فتح الباب ودعاني للدخول....

فدخلتُ.

مُنى

خرجتْ مُنى مسرعةً من شقتها وأغلقت الباب في عجلةٍ من أمرها، كانت متأخرةً عن موعدها.

كانت تعرفُ أنها ستتأخر، ربما تعمدت أن تتأخر، لم يكن موعدًا تسعى إليه، رغم أنها تعلم جيدًا أنها الوحيدة التي يجب أن تقوم به من أجلها.

تذكرت وهي تتجه نحو سيارتها أنها ما زالت تحتاج أن تذهب لمحطة البنزين لأن السيارة بالأمس كانت شبه فارغة.

بدأت في قيادة السيارة وهي تُحاول أن تشغل نفسها عن الموعد والتفكير فيه بالتفكير في محطات البنزين التي من الممكن أن تقابلها في طريقها، أقرب محطة كانت في الجهة المقابلة من منزلها، ولكن كان عليها أن تقود لنهاية الشارع وتعود في الاتجاه المقابل ثم تُعيد الكَرَّة من جديدٍ لأن الموعد في نفس الاتجاه الذي ستبدأ منه. فكرت قليلًا ثم قررت أن تلتزم بطريقها وستجد محطة أخرى بالتأكيد. ثم فجأة هتفت لنفسِها بصوتٍ مسموعٍ:

"ما هذا الذي أشغل نفسي به، يكفيني ما بي من توتر"

ولخوفها من أن يستمر عقلها مشغولًا بموضوع قليل الأهمية مثل هذا ولكنه مُلح توجهت للمحطة المقابلة لمنزلها، وشعرت حين انتهت من مهمتها كما لو كانت قد أنجزت شيئًا مهمًّا.

أجل الآن أنا مطمئنةٌ أنه لن يمنعني شيء عن الموعد، هذا الموعد المشئوم، لماذا يجب عليَّ أنا أن أقوم به؟!!!

هكذا كانت تُحدث نفسها، ولكنها كانت تعلم الإجابة، فحبيبة لم يكن لها أحدٌ الآن إلا هي، هي صديقتها الوحيدة التي يجب عليها أن تتجه لهذا الموعد من أجلها.

ولكنها مع كل معرفتها تلك كانت تتمنى لو أن يحدث شيءٌ في الطريق يمنعها من الوصول، لماذا لا تحدث ثورة جديدة تقفل الشوارع وتمنع المرور ويتم إقرار حظر التجوال من جديدٍ ونقبع في بيوتنا بدون خروج؟

ولكن هذا قد يعني أن أصبح المرافقة الوحيدة لحبيبة. صحيح أنها صديقتي القريبة من قلبي والتي أفعل أي شيء لها إلا أني ما زلت أريد لنفسي حدودًا بعيدًا عنها. أنا أقوم بهذا المشوار لها ولكني لا أريد أن أتحمل مسئوليتها كاملة.

إذن لأتوقف عن التصورات الثورية ولأركز في طريقي....

يبدو أنها قد التزمت بقرارها فلم تحاول أن تفكر في شيء حتى وصولها لذلك المبنى الحديث على النهر.

ولكن حين توقفت بسيارتها بدأت الأفكار تعود إليها من جديدٍ، ولكن الفكرة التي كانت تُسيطر عليها هي ما الذي تفعله حبيبة الآن، هي لا تعلم ما الذي أفعله من أجلها، لا

تعلـم مـا الـذي سـيحدث لهـا نتيجـة موعـدي هـذا، ولكنهـا سـتتفهم يومًـا مـا أني أفعلـه لهـا...

ولكن ما الذي تفعله الآن؟

ظـل هـذا هـو السـؤال الـذي يشـغلها أو تشـغل بـه نفسـها عـن غـيره مـن الأفـكار وهـي تتجـه للمصعـد، مـا الـذي تفعلـه حبيبـة الآن؟

حَبِيبَة

دخلـت خلفـه مـن ذلـك البـاب الصغـير، لم يكـن البـاب يفتـح على ردهـة كـما هـو معتـاد، ولكنـه يقـود إلى درجٍ صغـيرٍ يصعـد لشـقة في الـدور الثـاني مـن المنـزل. كان مدخـلًا خاصًّـا بتلـك الشـقة، ولكنـه صغـيرٌ وضيـق لدرجـةٍ تسـاءلتُ معهـا كيـف أمكـن لـه أن يُدخـل أغراضـه ويصعـد بهـا عـبر هـذا الـدرج الضيـق، وجعلنـي تسـاؤلي هـذا متحفـزةً لرؤيـة مكونـات تلـك الشـقة القابعـة في نهايـة ذلـك الـدرج، فبـدأت في صعـود الـدرج سريعًـا تشـوقًا وربمـا خوفًـا مـن أن تضيـق الجـدران أكـثر فـلا أسـتطيع الصعـود، ولكنـي إن خفـت مـن أن تضيـق فـلا أصعـد، أليـس ذلـك أدعـى أن أخـاف أن أصـل فتضيـق فـلا أسـتطيع أن أعـود؟

لم أفكـر في هـذا وقتهـا، حـين تكـون في تجربـةٍ جديـدةٍ لا تجـد لديـك الرغبـة في التفكـير في كيـف سـتنتهي، تجـد نفسـك منتشـيًا فقـط بـأن تعيشـها، ربمـا لأن المتعـة لا نظـن يومًـا أنهـا سـتنتهي فـلا نشـغل أنفسـنا بالتفكـير في النهايـة، فقـط في اللحظـة.

ولكـن ألم يكـن هـذا مـا أراده منـي حـين قـال لي أن أعيـش في اللحظـة، هأنـذا أعيشـها وأقفـز الـدرج خوفًـا مـن أن تفوتنـي.

ولم تضـق الجـدران، بـل وصلـت لمدخـل الشـقة خلفـه، فنظـر إليَّ مبتسـمًا وقـال:

- سمي باسم الله ، تفضلي!

وجدتُ نفسي أهمسُ باسم الله وأدخل خلفه..

السَّيِّر نُور

كل لحظـةٍ سـتصل بـك للحظـةٍ تاليـةٍ، شـئتَ أم أبيـتَ ستسـتمر لحظـاتُ حياتـك في عملهـا في حياتـك، ستسـلمك اللحظـة الحاليـة للتـي تليهـا بـدون تدخـل منـك، في قهـرٍ ظاهـرٍ، لا حـول لـك ولا قـوة، لا يمنعهـا شيء ولا يقـف أمامهـا شيء.

لـن ينفعهـا تـردد أو توقـف، فقـط سـيمنعانها مـن أن تشـعر بمـا في اللحظـة مـن فعـل يقـود للحظـة التاليـة، سـيمنعانها مـن أن تبـصرَ معـاني اللحظـة التـي سـتقودها للمعنـى الـذي يليـه في اللحظـة التاليـة.

شـعرت بـأني قـد حققـت جـزءًا مهـمًّا مـن وجـودي معهـا، لقـد أخذتهـا بعيـدًا عـن ترددهـا لتعيـش لحظـات حياتهـا بـلا توقـف، لتستسـلم لمـا تجـد نفسـها فيـه وتوفـر إرادتهـا لمـا عليهـا أن تفعلـه في تلـك اللحظـات.

لـن تمنـع الزمـن مـن أن يسـير في مساره بإرادتـك، لكـن إرادتـك سـتجعلك تعيـش تلـك اللحظـات حـين تدركهـا كاملـةً في لحظتهـا.

حـين سرت في طريـق النـور كان عـليَّ أن أخـرج نفـسي بعيـدًا عـن إرادتي الزائفـة، أن أبعـد عـن توهـم الحريـة وأن أدرك حقيقتهـا في ظـل حقيقـة الزمـن القاهـرة، ليـس لحريتـي معنـى حـين أحـاول أن أوقـف الزمـن ولكـن معناهـا يتحقـق حـين تخضـع حريتـي لقهـر اللحظـات المتتاليـة، مـا أنـا فيـه الآن ليـس لي إلا أن أعيشـه الآن...

الآن حبيبـة يمكنهـا أن تـدرك مـا لم تدركـه في لحظتهـا السـابقة حـين كانـت في نفـس المـكان، الآن حـين أدركـتُ وجودَهـا في تلـك اللحظـة يمكنهـا أن تبـصر معـاني تلـك اللحظـات كاملـةً، سـتبصر حيـاةً جديـدةً.

- ولكنها ليست جديدة، إنها حياتها..

- أعلـم أنهـا حياتهـا نفسـها ولكـن حـين تبـصر تلـك المعـاني سـتجدها جديـدةً.

- أليس في ذلك خداع لها؟

- ليـس خداعًـا، ولكنـه كشْـف... كثير يعيشـون هـذه الحيـاة بدون أن يُدركـوا مـا حولهـم، مـا يُحيـط بهـم مـن تفاصيـل وجـود خُلِـق لهـم، لا يبـصرون الكـون ككونهـم، يـرون أنفسـهم جـزءًا منـه ولا يبصرونـه جـزءًا منهـم مخلوقًـا لهـم. هـذا هـو الجديـد الـذي عليهـا أن تبـصره، موقـع كل مـا يُحيـط بهـا بالنسـبة لهـا، كيـف عليهـا أن تأخـذ منـه مـا يُسـاعدها لمـا هـي فيـه الآن.

- ولكن هل تعتقد أنها ستصل لكل ذلك في النهاية؟

- علينـا أن نسـعى لتصـلَ ولكـن ليـس علينـا أن نشـغل أنفسـنا بمـا سـيحدث بعـد ذلـك، ليـس عجـزًا عـن المعرفـة، ولكـن إيمانًـا بأنهـا سـتصل...

لـن يسـيرَ أحـدٌ عـلى هـذا الطريـق برغبـةٍ صادقـةٍ في الوصـول إلا وسـيجد المـدد، ووجـود المـدد هـو دليـل الوصـول...

هــي الآن في حضـور بشــائر المــدد، لــذا نحــن نسـعى لتصــل، ولكنــي أؤمــن أنهــا ســتصل...

حَبِيبَة

كانــت الشــقة أو لــو صــحَّ التعبــير الغرفــة الكبــيرة عكــس كل توقعــاتي، يبــدو أن الغرفــة كانــت تعلــم أن الــدرج ســيكون ضيقًــا لصعــود أغــراضٍ كبــيرةٍ لــذا اكتســت بــكل شيء بســيط وصغــير...

أول شيء يجــذبُ النظــر حــين تدخــل الغرفــة هــو تلــك اللوحــة الكبــيرة مــن الفسيفســاء التــي تشــغل الحائــط المواجــه للمدخــل، والــذي يُمثــل الحائــط الأكــبر في الغرفــة. كانــت لوحــةً مليئــةً بالتفاصيــل لدرجــةٍ جعلتنــي أُبعــد نظــري عنهــا خوفًــا مــن أن تشــغلني عــما أنــا موجــودة مــن أجلــه. ولكنــي اســتطاعت أن أكتشــفَ من بــين التفاصيل ملامــح رجــلٍ يجلــس عــلى أعتــاب بوابــةٍ كبــيرةٍ لقلعــةٍ أو لقــصرٍ، وهــو يتأمــل ظهــر أنثــى تتجــه نحــو البوابــة ورأســها مســتديرٌ عنــه أو ينظــر إليــه نصــف اســتدارة. هــل تنظــر إليــه أو انتهــت مــن النظــر إليــه وتســتدير بعيــدًا عنــه.

كانت هذه التفصيلة هي ما شغلني عن غيرها من التفاصيل الكثيرة التي تشمل البوابة والسائرين الذين يدلفون للبوابة كما لو كان القصر مقصدًا للسائرين. كل من في الرسمة كان يتجه نحو القصر، هو وحده كان جالسًا غير مهتم إلا بالجميلة التي ينظر إليها. ملامحها لم تكن واضحةً لي إلا خصلات الشعر التي تكسي نصف وجهها المستدير بعيدًا عن الرجل أو المستدير لينظر للرجل، ولكن عينها المُلتفتة كانت باهرة التعبير... كيف يمكن لرسمة فسيفساء أن تظهر هذه التعابير؟

التفت إلى الرجل الذي يستضيفني في بيته وجدته ينتظرني حتى أنتهي من تأملي للرسمة، كما لو كان يعلم عن يقين تأثير الرسمة على من يدخل هذا البيت، كان مبتسمًا ينتظرُ مني أن أحدد ما الذي عليه أن يفعله...

ابتسمتُ إليه وأنا أخطو يمين الباب حيث يقف منتظرًا أمام جلسة على الأرض أسفل الشباك الوحيد الذي يضيء الغرفة بأشعة شمس تتجه للغروب، بادرته بسؤالي الذي ينتظره:

- هل هي تنظر إليه أم تلتفت بوجهها بعيدًا عنه؟

لم يجبني ولكن أشار إليَّ أن أجلس، وأدار ظهره وهو يتجه لما بدا لي كمطبخٍ صغيرٍ، وبدأ في إعداد ما ظننت أنه الطعام، وحين جلست أجابني:

- في النهاية هي ستدخل القصر وهو سيجلس على الأعتاب منتظرًا...

- ولكـن إذا كانـت تهـمُّ بالنظـر إليـه فهـي تسـتدعيه ليشـاركها الدخـول، وإذا كانـت تلتفـت بعيـدًا عنـه بوجهها فهـي قـد قررت أن تدخــل بمفردهــا وتتركــه. في النظــرة الأولى هنــاك أمــلٌ أن يسـتمع لهـا أو تسـتعطفه نظرتهـا فيتبعهـا، في حـين أن الالتفاتـة بعيـدًا عنـه هـي إشـارة عـلى أنهـا بالفعـل سـتدخل بدونـه. هناك اختـلافٌ في النتيجـة بـين النظرتـين.

كان يرتـب أطباقًـا صغـيرة عـلى صينيـةٍ مـن خشـبٍ وحملهـا وهـو يسـير باتجاهــي ليجلـس أمامـي في تلـك الجلسـة الصغـيرة و همـس قائـلًا:

- لـو كان هنـاك اختـلاف مـا كنـت لتبصرينهـا واقفـةً هنـاك، لكانت جالسـة لجـواره هنا..

سرت في جســدي رعشــة خفيفــة مــن هيبــة وقــع كلماتــه التــي همـس بهـا، كـما لـو كان هنـاك.. وهنـا هـما في الحقيقـة مرتبطـان بتلـك الغرفـة الصغـيرة وليـس اللوحـة التـي مـلأت ذلـك الحائـط أمامنــا...

كما لو كان يدعوها لتجلس مكاني لجواره...

سرت فيَّ الرجفـة مـرةً أخـرى وأنـا أشـعر بهـا تحتـل ذلـك الحيـز الصغـير حيـث جلسـت.

- هل كانت تجلس هنا مكاني؟

- هــي مـا زالـت هنـا تجلـس وتعيـش وتتنفـس، ولكنـي اخـترت أن أنتظـر حتـى يعـود الجسـد وهـي اختـارت أن ترحـل بالجسـد. أنا

اختـرت أن تبقـى روحًـا وهــي اختــارت أن تأخـذ عينيْهـا بعيـدًا عـن جسـدي.

لم يبدُ عليَّ أني قد فهمت وإن كنت قد شعرت بوضوح حزنه..

- لماذا لم تذهب معها؟

- هنـاك أماكـن في الحـب مقصـورة عـلى مـن تحـب، لا تحتـاج أن تذهـب إليهـا معـه، فقـط تتركـه ليعيـشَ حريـة وجـوده ليفيـض بخـيره عـلى الوجـود، وتنعـم أنـت بالعيـش مـع معـاني ذلـك الوجـود...

بدا على وجهي الاستغراب..

- كلامـك ليـس مـن السـهل فهمـه أو الاقتنـاع بـه، كيـف تحـب شـخصًا مـا وتتركـه يذهـب بعيـدًا بـدون أن تحـاول أن تحافـظ عليـه معـك أو أن تذهـب معـه حيـث يذهـب؟

- حـين تحبـين كحبـي سـتدركين مـا أقـول... ليـس مـن السـهل أن تعيـشي الحـب مـع مـن تحبـين وهـو بعيـد عنـك أو يعيـش الحـب في مـكانٍ آخـر يجـد فيـه وجـوده بشـكلٍ أجمـل...

- هــذا ليـس حبًّـا سـيدي العزيـز واعـذرني، أنـت فقـط تحـرق ذاتـك ومـن تظـن أنـه يحبـك يعيـش حياتـه غـير مُـدرك لمـا أنـت فيـه مـن عـذاب. هـذا قتـلٌ للنفـس...

ابتسـم وهـو يُقـدم لي طبقًـا مـن الزيتـون الأسـود وأجابنـي وأنـا أتنـاول منـه:

- الحب ليس في أن تكوني فقط مع من تحبين، ولا في أن يشعر بك مَن تحبين، الحب في أن تحبي، أنتِ لا تحبين لكي يحبك مَن تُحبين، أنتِ تحبين لتشعري بالحب في قلبك تجاه شخصٍ أو وجود الشعور به يجعل وجودك مختلفًا ومنتشيًا وحيًّا...

- ولكنه ليس موجودًا في الحقيقة، هو فقط في قلبي وتخيلاتي وفقًا لكلامك. معنى ما تقول أني في الحب أعيش وجودًا جميلًا من صنع خيالي، لا يهم إن كان الطرفُ الآخر موجودًا أم لا، يُحبني أو لا يُحبني، أنا فقط أعيشُ قصة الحب الخاصة بي، هذا ليس حبًّا، هذا خيالٌ.

- صدقت، هو خيال، وهذا ما يجعله أصدق مُعَبِّر عن الحب، أنه خاص بك، ليس له وجودٌ إلا في عالمك الخاص، حتى وإن كانت هناك أجساد تتفاعل مع تلك المشاعر، إلا أنها أعراضٌ ستفنى، ما سيبقى هو عالمك الخاص، خيالك الخاص، ما يحميك من الذوبان في كون البشر هو أن تُبصري كونك الخاص بخيالك الخاص لحبك الخاص...

هذا ما كانت أريده الآن، شخص لا أعرفه يُقنعني بأن الكون خيالٌ لا أساس له إلا بما أعيشه من معانٍ في داخل كوني الخاص، وأنا بالفعل لا أعرف الكون الذي أتحدثُ لهذا الرجل فيه، هل هو خيالي الخاص أم خيال السيد نور أم خيال هذا الرجل الذي لا أعرف اسمه... أعتقدُ أني قد تعبتُ من كل هذا الخيال، أريد الواقع، أريد ما ألمسه بيدي وأشعر به بجسدي، فقط أريده...

يبدو أنه قد شعر بتعبي، فقام وبدأ يُضيء بعض الشموع التي تنتشر في جنبات الغرفة تحسبًا لغروب الشمس التي نوَّهتْ

عـن غيابهـا بخفـوت أشـعتها عـلى اللوحـة. ثـم جلـس أمامـي وأشـار بيـده وهـو يُخـبرني بمـا عـليَّ فعلـه:

- اسـتلقِ قليـلًا وسـأجلس بجـوارك أحـكي لـك قصتـي أو قصتهـا التـي احتـوت قصتـي، ولعلـك تدركـين وقتهـا كيـف أن الحـب في الخيـال هـو الحقيقـة التـي نقـدر أن نبـصر بهـا الواقـع.

لم يكـن أمامـي إلا الطاعـة، جسـدي لم يعـد يُطيعنـي، خيـالي سَـلَّم مـن قبـل والـروح صـارت مُنهكـة، لا تـدري مـا عليهـا أن تفعـل، تركـت جسـدي يسـتلقي وجلـس هـو أمامـي ولكنـي نظـرتُ إليـه وأنـا أهمـسُ بخفـوتٍ:

- وأنـت تحـكي قصتهـا أرجـو أن تتذكـر أن تحـكي لي عـن تلـك الأبيـات التـي يبـدو أنـك نسـيت أني جئـت لأعـرف عنهـا منـك...

ابتسـم وهـو يسـند ظهـره عـلى الحائـط ويتطلـع بنظـره تجـاه اللوحـة لينظـر إليهـا:

- لا بالطبـع لم أنـس، إنهـا هنـا في تلـك اللوحـة، إنهـا مـا تحفظهـا معـي، فكيـف أنـسى؟

رفعـت عينـي متتبعـةً آثـار نظرتـه عـلى اللوحـة، ووجـدتُ مـا يقصـده بكلامـه، لقـد كانـت الأبيـات مكتوبـةً أعـلى البوابـة التـي يدخـل منهـا السـائرون إلى القـصر:

أنـا القـرآنُ والسـبعُ المثـاني　وروحُ الرُّوحِ لا روحُ الأواني
فـؤادي عنـدَ مشـهودِي مقيمٌ　يُشـاهدُهُ وعندكُـمُ لسـاني

أغمضتُ عينيَّ وبدأ الشيخُ الغريبُ يحكي....

الشَّيخُ الغَرِيبُ

جلستْ في حضرتـه وأغمضـت عينيْهـا في أمـان حضـور وجـوده، ولكنـه لم يكـن موجـودًا لهـا فقـط، كان موجـودًا لمـن حـضرت مـن قبلهـا بسـنين عديـدة، بعيـدة، كان وجـوده محتفظًـا بهـا كـما لـو كانـت هـي مـن استلقت أمامـه مستسـلمةً تنتظـر منـه أن يحـكي لهـا كل مـا حـدث لهـا معـه...

أو ربما كانت هي هي كما هو هو...

كان يعـرف أنهـا تحـب أن تسـمع قصتهـا مـن خـلال حروفـه، حـين يرويهـا بنـور مـن كلـمات الحـب التـي خلقهـا اللـه لتحـكي عنهـا فقـط، لتشـعر هـي فقـط بهـا...

أو هكـذا كان يشـعرُ حـين يُحدثهـا بحروفـه، حروفـه التـي صاغهـا بعـد أن رحـل عـن حـدود حبـه المحـدود لهـا وبلـغ رحـاب حبـه اللامحـدود لـه...

ورغـم أنـه يعـرف الآن راحـة الحـب إلا أن جسـدها المستسـلم أمامـه لمـا سـيقصه عليهـا مـن حـروفٍ لتريـح تعـب روحهـا لم يكـن إلا مجـرد خشـبٍ يزيـد مـن احـتراق الـروح في داخلـه، فسـيحكي للجسـد قصـة الـروح في حياتـه البعيـدة، فينهـض حيًّـا مـن رقدتـه لينـشر مـن المعـاني التـي سـيبصرها ويذهـب بعيـدًا ويتركـه مـن جديـدٍ لينتظـرَ أجسـادًا أخـرى ليُحييهـا بمعـاني حبـه الحـي بنـور مـن وهبتـه الحيـاة يومًـا مـا وذهبـت هـي الأخـرى...

هـو يُحييهـم بمعانيـه ولكنهـم يُقدمـون أجسـادهم قربانًـا ليحـترق الـروح بداخلـه بوقـودٍ يفنـى لتخلـد في وجودهـم تلـك المعـاني التـي أحيتهـا في وجـوده بحبـه لهـا...

هــي مــن أمدتــه بحــروف النــور، مَــن علمتــه كيــف يقــرأ لغــة الحــب الحقيقــي في كونــه ليعــبر لكــون الحــق وحبــه الحــق...

كان يُـدرك أنهـا هـي قصتـه، ولكنهـا مـع غـيره، ولكـن هـذا لا يشـغل بالـه، ولا يمنعـه عـن أن يأخذهـا بعيـدًا عـن الكـون لتكـون معـه فقـط في كونـه، فهـي فقـط معـه وهـذا مـا يكفيـه، هـو اختارهـا لتكـون معـه، وسـلم الـروح لهـا وهـي لم يكـن لهـا أن تختـار إلا أن تبعـد عنـه لغـيره، ولكنهـا لا تقـدر عـلى أن تمنعـه أن يحتفـظ بهـا لنفسـه.

في كونـهِ هـي مِلكـه وهـذا يكفيـه، لا يبحـث عمـن مَلَّكَتـه أمرهـا في كونهـا، لا يهتـم، هـي حـاضرةٌ برغبتـه في كونـه، لأنـه مـن يحبهـا، ولأن الحـب لهـا فهـي بالحـب مستسـلمة لـه، لا يوجـد مـن هـو قـادرٌ عـلى أن يتحـدى سـلطان المحـب وسـطوة حبـه عـلى أرواح مـن يحـب في كونـه الخـاص بـه.

هي علمته ذلك، في كونك أنت مَلِك حبك وعبد لحبه...

لا يسـعى الحـب ليمتلـك الأجسـاد، هـو فقـط امتلـك الـروح التـي لا تسـتطيع أن تَعـصي محبًـا أعلـن بصـدق حبهـا. فحتـى وإن تجَـبَّر الجسـد وأعلـن العصيـان، فـروح المحبـوب تظـل مستسـلمةً لكـون المحـب بمقـدار قـوة صـدق الحـب.

هـو أحبهـا، فاحتفـظ بروحهـا للأبـد في كونـه الخـاص، ولـن يطلقها، حتـى وإن كان هـو الوحيـد القـادر عـلى إطلاقهـا، حتـى وإن طلبـت ذلـك، لـن يطلقهـا لأنهـا ليسـت أسـيرةً، هـي حقـه في حبـه لهـا، روحهـا هـي كل مـا تبقـى لـه وهـي كل مـا سـعى إليـه وأغـلى مـن كل غـالٍ في كـون البـشر...

هـو يحتفـظُ بروحهـا التـي أحبهـا وهـي رحلـت بوجودهـا الـذي رغبـت الاحتفـاظ بـه بعيـدًا عنـه...

هـا هـو ذا يعـود لوجـودٍ آخـر عليـه أن يشـعل بـه روحـه بقصتهـا التـي أفنـت وجـوده مـرةً بعـد أخـرى ولم تتوقـف ولـن تنتهـي...

"اسـمها فاطمـة" هكـذا بـدأ قصتـه، "كانـت تعيـش في هـذه البـلاد، كانـت تسـيرُ عـلى نفـس الأرض، ولكنهـا كانـت مـن كـون آخـر، أو هكـذا عرفتهـا، كانـت إلهيـة".

كانـت في مجلسـها الخـاص، عـلى الأرض، كانـت الأرض مجلسـها، لا يتذكـر يومًـا مـرَّ عليـه بـدون أن يراهـا في نفـس تلـك الجلسـة، يأتيهـا الـزوار وهـي في نفـس الوضـع، يذهبـون وهـي لا تتحـرك إلا حركـةً بسـيطةً لا يُبصرهـا إلا مـن يجلـس يتأملهـا...

ولم يكـن هنـاك مـن يتأملهـا، فـكل مـن يجلـس في حضرتهـا يجلـس صامتًـا احترامًـا لصمتهـا، كان يغيـب في وجـودٍ يخلقـه حضورهـا المُهيب الغائـب عـن تفاصيـل الوجـود الـذي تـراه العيون...

كانـت تجذبـك بابتسـامةٍ لا تُفـارق شـفتيْها، حتـى وإن نامـت، تظـل مبـصرًا للوجـود المُبهـج الـذي تخلقـه ابتسـامتها الراقيـة...

بـدأت علاقتـه بهـا قبـل غـيره، كان أول تلميـذ لهـا، أول مريـد لهـا في حـضرة درسـها، لم تكـن فاطمـة تسـعى لتكـون معلمـة أو شـيخة وبالطبـع لم تكـن تهـدف لتكـون وَلِيـة يهتـدي بنورهـا المريـدون، ولكن هـذا مـا حـدث، أوليـس هـذا مـا يحـدث لـكل الأوليـاء الصادقـين؟

هـم لا يسـعون لـكي يجلـس المريـدون في حضرتهـم، لا يرغبـون في أن يتكالـب المحبـون عـلى أعتابهـم، هـم فقـط يرغبـون في محبوبهـم بصـدقٍ فيرزقهـم محبتـه في الدنيـا بمحبـة الخلـق لهـم، وتعظيمهـم...

وهكذا كانت فاطمة.

منـذ نعومـة أظفارهـا وهـي تُـدرك أنهـا تحبـه وهـو يحبهـا، ولكنـه يحبهـا حبًّـا إلهيًّـا وهـي تحبـه ببشريتهـا، فسـعت بـكل وجودهـا لتبادلـه نفـس الحـب بنفـس الدرجـة، ورغـم أنهـا تعلـم أنهـا لـن تصـلَ، ولكنهـا طـوال حياتهـا جاهـدت ليصبـح حبهـا إلهيًّـا...

ولـدت فاطمـة في قرطبـة، وإليهـا نُسـبت، ولكنهـا في سـن صغـيرة تزوجـت ورحلـت مـع زوجهـا إلى أشـبيلية. في تلـك الفـترة كانـت كل مدينـةٍ في الأندلـس عاصمـةً لدويلـة خاصـة بهـا، ولهـا ملـكٌ وليـس مجـرد أمـير...

فـإن كانـت قرطبـة يومًـا مـا حـاضرة الأندلـس ومصـدر علمـه، فـإن أشـبيلية حـين رحلـت إليهـا فاطمـة مـع زوجهـا كانـت تشـق طريقهـا لتصبـح عاصمـةً زاهـرةً هـي الأخـرى، تنافـس قرطبـة وغيرهـا مـن المـدن الأندلسـية البديعـة...

كل مدينـةٍ في الأندلـس تسـتحق أن تكـون دولـةً بذاتهـا، لا يمكنـك أن تلـوم أمـراء تلـك المـدن إذا رغـب كل منهـم في أن يسـتقل بمدينتـه

ويعتبرهـا حـاضرةً قائمـةً بخصوصيتهـا وبمـا فيهـا مـن ثـروات. ولعـل تلـك الـثروات كانـت اللعنـة كـما كانـت النعمـة. ولكنـك الآن يمكنـك أن تحـكي عـن اللعنـة والنعمـة بعـد كل تلـك السـنوات، ولكـن حينهـا لم يكـن أحـدٌ يبـصر ذلـك، فـكل نعيـم هـو رزق، وكل خـير هـو نعمـة، وكل نعمـة حـين لا تبصرهـا تدفعـك لطلـب المزيـد...

وهـذا المزيـد هـو مـا كان يسـعى إليـه زوج فاطمـة، لم يكـن قـد مـضى عـلى زواجهـما إلا شـهورٌ قليلـةٌ حـين قـرَّر أنـه يريـد المزيـد، لـذا قـرر الانتقـال إلى أشـبيلية، بحثًـا عـن المزيـد لـه ولزوجتـه التـي يريـد إسـعادها.

لم تكـن فاطمـة صغـيرةً رغـم أنهـا كانـت في السادسـة عـشرة مـن عمرهـا حـين تزوجـت، كانـت تعـي مـا الـذي يسـعى إليـه زوجهـا، ورغـم أنهـا شـعرت بأنـه لـن يجـد مـا يبحـث عنـه، إلا أنهـا لم يكـن لهـا أن تعـترض. ليـس لأنهـا زوجـةٌ مطيعـةٌ لزوجهـا، ولكـن لأنهـا مُستسـلمةٌ لمـا سـيقودها هـو إليـه مـن قـدرٍ لا تعلمـه ولكنهـا تؤمـنُ بأنـه خـير لهـا.

كان مـا زال إيمانهـا بحبهـا لـه يتكـوَّن، كان يتكـوَّن بحبهـا الصغـير لزوجهـا الـذي سـيأخذها بعيـدًا عـن ديـار أهلهـا. بحبهـا الفطـري لأهلهـا الذيـن اختـاروا لهـا زوجهـا الـذي سـيبعدها عنهـم. بحبهـا للرحلـة مـن قرطبـة لأشـبيلية رغـم المناوشـات الدائـرة بـين الدويـلات المتناحـرة والتـي جعلـت في السـفر نوعًـا مـن المخاطـرة.

ولكنهـا كانـت تعلـم أنـه رغـم البُعـد والسـفر والفـراق هـو يُحبهـا لذلـك فهنـاك قـدرٌ مـن الحـب ينتظرهـا، هكـذا بـكل بسـاطة، لم يكـن هنـاك مـا يُقلقهـا، حبهـا لـه بسـيط، لـذا كانـت دومًـا مُبتسـمة، تلـك

الابتسـامة التـي لم يكـن مـن السـهل أن تجدهـا في تلـك الأيـام عـلى وجـه أهـل تلـك المـدن الجميلـة.

مـرةً أخـرى حـين تزيـد النعـم تجعلـك تطلـب المزيـد مـن النِّعـم، فـلا يعـود لديـك وقـتٌ لتبتسـمَ لتلـك النعـم لأنـك مشـغولٌ بالحـزن عـلى نِعـم لم تحصـل عليهـا بعـد.

هـي فقـط كانـت مبتسـمةً في وجـه كل تلـك النعـم الصغـيرة التـي قـد تبـدو لغيرهـا غـير كافيـةٍ، فزواجهـا نعمـةٌ وإن حملهـا لبُعـدٍ عـن أهلهـا، وسـفرها نعمـة وإن كان مليئًـا بالمخاطـرات، واسـتقرارها في أشـبيلية نعمـة وإن كان عليهـا أن تبـدأ مـن جديـدٍ في خلـق علاقـاتٍ جديـدةٍ مـع أشـخاصٍ جـددٍ وأماكـن جديـدةٍ.

كانـت فاطمـة مبتسـمةً لأنهـا بـدأت تخلـقُ بداخلهـا إيمانهـا بأنـه يحبهـا، فبـدأت تنسـج خيـوط رداء الحـب الـذي سـيحتضن وجودهـا بعـد ذلـك، ثـم سيتسـع ليحتـوي غيرهـا مـن المُريديـن لهـذا الحـب، ولقـد كان هـو أول مـن سـكن في دفء بُـردة حبهـا لمـن خلقهـم، ولكنـه لم يكـن الأخـير...

ولكـن قبـل أن تسـعه بُـردة ولايتهـا كان عـلى فاطمـة أن تتقـن نسـج قماشـتها، فـكان عليهـا أن تُكمِـل إيمانهـا بحبـه لهـا. فرغـم أن زوجهـا كان يسـعى بالانتقـال لأشـبيلية إلى أن يحقـق المزيـد إلا أنـه مـرض مرضًـا ألزمـه الفـراش ثلاثـين عامًـا...

أجـل، ثلاثـين عامًـا كان عـلى فاطمـة أن تُتقـن خلالهـا نسـج بُـردة ولايتهـا الخاصـة قبـل أن تسـع الكـون بحبهـا.

لم تـدر فاطمـة وهـي تبتسـم لمـن أخبرهـا بمـرض زوجهـا أنهـا سـتمكث ثلاثـين عامًـا لجـواره وهـو مريـض، لم يكـن يشـغلها كـم سـتمكث لجـواره وكيـف سـتتغير حياتهـا أو توقعاتهـا لحياتهـا الجديـدة، ربمـا لأنهـا لم يكـن لديهـا توقعـات، فقـط مـا سـيرزقه بـه هـو مـا سـتنعم بـه، وهـو الآن رزقهـا رزقًـا لا يبصره غيرهـا، وهـذا مـا كان يشـغلها؛ كيـف تحبـه في كل أوجـه رزقـه لهـا.

كيف تكون ابتسامتها انعكاسًا لابتسامة قلبها المُحب له...

لـذا فقـط ابتسـمت وبـدأت رحلتهـا في نسـج بُردتهـا التـي سـتحتويه يومًـا مـا وسـتحتويه...

حَبِيبَة

- من تقصد بتحتويه وتحتويه..

همسـتُ وأنـا أعتـدل في جلسـتي وإن لم يكـن بشـكلٍ يجعلنـي جالسـةً بشـكلٍ مسـتقيمٍ، فـلا زلـت أشـعرُ بقـدرٍ مـن الخـدر، ولهـذا ظللـت متكئـة.

نظـر إليَّ كـما لـو كنـت قـد أيقظتـه مـن حلمـه الخـاص لأعـود بـه لحلمـي الخـاص، تمهـل قليـلًا قبـل أن يجيـب، ثـم أعـاد النظـر للوحـة، وظلـت عينـاه معلقتـيْن قليـلًا بالأبيـات، حاولـتُ أن أستشـف مـا الـذي يجذبـه لتلـك الأبيـات رغـم مـا في اللوحـة مـن تفاصيـل أكـثر جذبًـا للعـين، ولكنـي وجدتنـي غـير قـادرةٍ عـلى سـبر مـا يـدور في داخلـه، ربمـا لأني لا أعـرف مـا يـدورُ بداخـلي!!!!

أنـا الآن جالسـةٌ مـع هـذا الغريـب، الـذي يعيـشُ في داخـل خيـالي، ليـس فقـط خيـالي ولكـن خيـال الماضي الخـاص بي، في خطـواتٍ زمنيـةٍ مغايـرةٍ لمـا كان منــي في المــاضي الخــاص بي، يحــكي لي عــن ماضيــه الخــاص، وكل شيء مرتبـط بتلـك الأبيـات التـي تعلقـت عينـاه بهـا، وعينـاي الآن كذلـك...

أنا القرآن والسبع المثاني....

البداية من هنا، أنا...

هـذا مـا يبحـثُ عنـه الشـيخُ الغريـبُ، يبحـث عـن ذاتـه، هـذا مـا أبحـث عنـه في تلـك الرحلـة، أنـا...

أجـل هـذه هـي البدايـة التـي أرادني السـيد نـور أن أراهـا، البدايـة منـي أنـا، أنـا مـن سـأصل لـذا أنـا مـن سـيبدأ...

لهذا أنا هنا في ذلك الوجود الذي لا يُبصره سواي أنا...

حتـى أنـا لم يكـن لي أن أبـصره لـو لم أجـد تلـك الأنـا التـي شعرتْ واسـتحضرتْ تلـك الأحاسـيس التـي أخْفَتهـا معـالم الزمـن، ولكنـي الآن أبصرُهـا لأني أنـا مـن أبـصر كـوني الخـاص، وحـين أبصرتـه اسـتطعت أن أطـوف بداخـل عوالمـه بـدون حـدودٍ مـن مـكانٍ أو زمـانٍ، فقـط حـدود مـما يُمكننـي أن أصـل إليـه...

نظـر إليَّ الشـيخُ الغريـبُ مـن جديـدٍ، ولكنـي هـذه المـرة كنـت واعيـةً لمـا سـيقول، فهـو خَلقـي في كـوني، هـو في زمنـي أنـا وليـس في زمانـه، هـو في عـالم خططتـه يـدُ قـدري وقـدرتي أنـا...

- ولكنـه يحـكي قصـة لا تعرفـين عنهـا شـيئًا، فهـل أنـت مـن خلقتهـا كذلك ؟

فاجأني السيد نور بهمسه في داخلي..

ـ ربما كنت أنا فاطمة وعدت لكي أعرف ما خفي عليَّ بمرور الزمن، هل هذا ممكن؟

ـ أنت على حق، فكل ما في الكون هنا هو من خلق يديك، كل ما أصبحت مبصرةً بكونك كل ما صرتُ قادرةً على ثني أبعاده لتطيع رغبتك، فتصل بك لأماكن وأزمان لا يبصرها إلا أنت، ولكنك لم تخلقي أكوان غيرك، كلٌّ خالقٌ لكونه، ولكنكم كلكم من كونه، فلا تتعجلي لتحسبي أنك عرفت كل شيء فما زالت أكوان غيرك خفيةً عنك...

ـ لماذا تأخذني للألغاز ثانية، ألست ترى أني سعيدة لأني قد اكتشفتُ شيئًا مختلفًا عن ذاتي؟

ـ ها أنت ذا قد قلتيها، لقد اكتشفت شيئًا ولكنك لم تعرفي كل شيء بعد...

ـ إذن عليَّ أن أستمر في رحلةٍ من الاكتشافات اللانهائية؟!!

ـ أنت في كونك وأنت مَن تحددين حدوده، هل ستستمرين في رحلتك فيتمدد مع لانهائية رغبتك في المزيد من الاتساع أم ستكتفين بقدرٍ محدودٍ من الحدود وتمنعين عن نفسك المزيد...

ـ ولكنك تُعطينني اختيارًا صعبًا، لقد بدأت أعتقد أنك تتلذذ وتستمتع بحيرتي في الاختيار...

ـ صدقيني يا حبيبة، لا اختيار هنا، ولكنه سير الروح بالإيمان، لو لم تكن روحك تعرف لما سارت، أنت بداخلك كل ما

تحتاجـين، فـلا تـترددي بتوهـم الاختيـار، لـو لم تكـوني تريديـن سعة اللانهائيـة لما كنت هنا معـي الآن، في كـون مـن وجـودك الخـاص. ولكنـك في الحقيقـة لا تريديـن، أنـت تسـيرين بتلـك الأنـا التـي أبصرتهـا في رحلتـك وكونـك ولكـن مع غـيرك، فبداخـل كونـك تشـعرين بحريـة الاختيـار، ولكـن الأكـوان كلهـا تسـير بتسـليم، أنـت أبـصرت جـزءًا مـن تلـك الحقيقـة، ولـن تقفـي عـن متابعـة السـير، لا يمكـن لـك أن تقفـي، ولكـن يمكـن لـك أن تتوقفـي عـن الإبصـار، فـلا تنعمـي برؤيـة اللانهائيـة، فهـي موجـودة أردت أن تبـصري أو توقفـت عـن الإبصـار، ولكنهـا معدومـة بالنسـبة لـك لـو اخـترت ألا تبـصري...

- إذن لا اختيار إلا ما قد اختار... أريد أن أبصر المزيد...

- ليتسع كونك بأنوار حروفه إذن... أنا موجود للمزيد كذلك...

- ماذا تقصد يا سيد نور؟

تلفت بداخلي بحثًا عنه ولكنه كان قد اختفى، أو هكذا خُيِّل لي...

رفعت نظري للشيخ الغريب، فوجدته كما لو كان بانتظاري...

كما لو كان يُواصل حديثًا بدأته بسؤالي:

- مَن تقصد بتحتويه وتحتويه؟

- لقـد احتـوت فاطمـة الكثـير والكثـير مـن المُحبـين، لأن حبهـا اتسـع باتسـاع كـون مـن سـلمت إليـه بالحـب، ولكنهـا احتـوت واحـدًا فقـط احتـواء مغايـرًا لغـيره، هـو وهـو...

- هو وهو، كيف ذلك؟

توقـف لحظـةً قبـل أن يجيـب ويرفـع رأسـه للنظـر للأبيـات، وأجابنـي بـدون أن ينظـر إليَّ بنـبرةٍ امتـزج فيهـا الشـوق بالحـب:

ـ كان هو......

الشَّيْخُ الغَرِيبُ

ثلاثـون عامًـا مـرَّت عـلى فاطمـة وهـي تنعـم بمـا لا يبـصره مـن حولهـا مـن البـشر...

كان نعيمُهـا أنهـا كانـت تقـوم بالقليـل مـن أمـور الدنيـا وتـرضى بالقليـل منهـا كذلـك، لم تكـن تريـد سـوى مـا يعينهـا عـلى رعايـة زوجهـا المريـض وكانـت تـرضى بمـا يكفـي لهـذا الغـرض، وبالتـالي وجـدت وقتًـا كافيًـا لتعلـم عمـن تحـب أكـثر...

لم يكـن أحـدٌ يعلـم بهـا، كانـت تنضـج في خلـوة حياتهـا بعيـدًا عـن العيـون في حـضرة حبهـا الخـاص بـه، مَـن كان ليعـرفَ فتـاة في مقتبـل عمرهـا متزوجـة مـن رجـلٍ مريـضٍ قعيـدٍ، مَـن كان ليعـرف تلـك الفتـاة الصغـيرة في تلـك المدينـة الكبـيرة؟

ولكنهـا خـلال تلـك السـنوات كانـت تكـبر وتنمـو لتسـعَ كونًـا أكـبر مـن تلـك المدينـة الكبـيرة، كانـت تقـتربُ خطـوةً بعـد أخـرى لتصبـحَ عالمًـا يحتـوي عالمهـم الصغـير...

لم يكـن يـدري بهـا أحـدٌ في تلـك المدينـة التـي كانـت تسـعى في أرجائهـا كل يـوم تبحـث عـن رزقهـا هـي وزوجهـا المريـض، ولم تكـن تهتـم لـو عـرف بهـا النـاس أو لم يعرفـوا...

كان يكفيهـا أنــه يعــرف بهــا، وأنهــا قــد تتعــرف عليــه وعــلى معرفتــه بهــا، رويــدًا رويــدًا...

كانـت تعـرف أن الكـون لمعرفتـه لا نهايـة لـه، ولكـن حـين عرفـت أنـه يعـرف بهـا، عرفـت أنـه سـيوصلها خطـوةً بعـد الأخـرى لمعرفـةٍ تكفيهـا لـكل خطـوةٍ تخطوهـا....

كانـت تبـصره في كل لحظـةٍ يمدهـا بلبنـةٍ جديـدةٍ في بنـاء معرفتهـا بـه، كان يهبهـا مـا يعينهـا عـلى تلـك اللحظـة لتتجاوزهـا للحظـة التاليـة فيهبهـا مـا يتجـاوز بهـا اللحظـة الجديـدة لتصـلَ للحظـة التاليـة. كانـت تبـصرُ ذلـك في خطواتهـا البسـيطة في الحيـاة، لم تكـن لديهـا أمـوالٌ تتاجـرُ بهـا في الأسـواق، ولا بضاعـة تبيعهـا لبيـوت الأغنيـاء وتطـوف بهـا شـوارع المدينـة وأزقتهـا، لم تكـن تمتلـك حرفـة خاصـة تجعـل الطالبـين لهـا والراغبـين فيهـا يتوافـدون عـلى بيتهـا بطلباتهـم للـشراء منهـا، لم تكـن ذات علـمٍ أو فقـه ليجلـس إليهـا الأطفـال لتحفظهـم القـرآن أو تلقنهـم دروس اللغـة العربيـة، لم تكـن لديهـا تفاصيـل حيـاة متشـعبة تـبرر لمـن عرفهـا بعـد ذلـك قدرتهـا عـلى أن تبـصره في كل لحظـات حياتهـا...

عـلى النقيـض تمامًـا، كانـت حياتهـا بسـيطةً، تسـتيقظ في الصبـاح الباكـر، تنظـف البيـت الصغـير الـذي يقطنـاه، وتطمـئن عـلى أن زوجهـا قـد تنـاول إفطـاره، وتتركـه يكمـل راحتـه، وتتجـه في طريقهـا حـول المدينـة تبحـث عمـن تريـد خدمـة في اليـوم، كانـت لا تعـرضُ خدماتهـا للمسـاعدة في الأعـمال المنزليـة عـلى أحـدٍ.

في البدايـة حـين توقَّـف زوجهـا عـن العمـل، قـررت أن تبحـث هـي عـما تُسـاعد بـه، وكان صعبًـا عليهـا أن تطلـب صدقـةً مـن أحـدٍ،

ولكنـه كان أصعـب أن تعـرض نفسـها لخدمـة أحـد، كانـت مـا زالـت تحتفـظ بإحساسـها بكرامتهـا التـي تربـت عليهـا في قرطبـة، في بيتهـا وبـين أهلهـا، ولكنهـا أدركـت أنهـا يجـب أن تنحـي كرامتهـا جانبًـا ولـو قليـلًا لتقـومَ بواجبهـا تجـاه زوجهـا الـذي اختـاره لهـا.

لـذا سـلمت لـه وخرجـت تبحـث عمـن يريـد خدمتهـا لبيتـه أو لبيتهـا...

ولكنهـا في ذلـك اليـوم وجـدتْ منـه مـا كشـف لهـا عـن معرفتـه بهـا، كيـف هـو وحـده مـن يعرفهـا حقيقـةً...

كانـت قـد خرجـت مـن بيتهـا في الصبـاح، ولكـن النهـار قـد اقـترب مـن الانتصـاف ومـا زالـت لم تجـد الشـجاعة لتطـرق البيـوت وتعـرض خدماتهـا في الأعـمال المنزليـة. وبـدأت تقلـقُ مـن أن تعـودَ خاويـة الوفـاض. في تلـك اللحظـة قـررت أن تطـرق بابًـا أو بيتًـا تمـرُّ بـه وليحـدث مـا يحـدث. في بعـض الأحيـان يكـون مـا يوقفنـا عـن قدرنـا هـو خوفنـا مـن لا شيء، هـي لم تكـن تـدري مـا هـو خلـف البـاب الـذي سـتطرقه، ولكنهـا كانـت خائفـةً، خوفهـا كلـما زاد كلـما منعهـا مـن أن تقـترب أن تفتـح البـاب لمـا فيـه الخـير لهـا...

حـين همَّـت بطـرْق البـاب وجـدت البـاب يفتـح بـدون أن تطرقـه وتخـرج منـه سـيدة بـدا عليهـا كـما لـو كانـت سـيدة المنـزل، ارتبكـت قليـلًا، ولكـن السـيدة نظـرتْ إليهـا بنظـرةٍ تطمئنهـا ثـم قالـت لهـا:

- هل تبحثين عن عمل؟

اندهشـت فاطمـة للحظـةٍ، ولكنـه كشـف لهـا في تلـك اللحظـة عـن معرفتـه بهـا. كل مـا كان عليهـا أن تفعلـه هـو أن تخطـو الخطـوة

تجاه الباب وهو تكفل بكل ما كان يقلقها. كل ما كانت تخاف منه هو كان يُعِد لما يحميها منه، ولكنه كان عليها أن تخطو الخطوة التي تؤكد لنفسها قبل أن تؤكد له أنها تعرف أنه يعرف بها...

فاطمة في تلك اللحظة عرفت قيمة كل لحظةٍ في حياتها في كونها الذي خلقه لها، كانت تبصره يرعاها رعايةً خاصةً، ليس لأنها مُختلفة، ولكن لأنه هو هكذا مع الجميع، لكل عالمه ولكن الكل محاطٌ به.

أبصرت فاطمة في تلك اللحظة كيف أن معرفتها به لا تبدأ إلا إذا عرفت أنه يعرف بها، أنه الوحيد الذي يعرفها على حقيقتها، معرفتها بأنه يعرف بها فتحت لها الباب لتبدأ رحلتها في معرفته من خلال ما يتيحه لها بما هي في حاجةٍ إليه لتعرفه.

عرف أنها لا تريد أن تسأل، فأرسل إليها من يطلب منها بدون أن تتعرض لمهانة السؤال، تركها لتأخذ خطوتها بنفسِها لتعرف أنه يجب أن تسعى إليه لتجده معها، وبعد هذا كان عليها أن تبصر كل ذلك لتدرك وجوده معها في كل لحظة...

لذا صارت فاطمة تخلق القيمة لكل لحظةٍ تعيشها في كونها الذي خلقه لها من خلال تلقيها لمعرفتها به. أصبحت تبصرُ الكون في علاقاتٍ مختلفةٍ عما يراه الآخرون، لم تعد ترى حقيقة الكون في المنطق والعلوم العقلية وقواعد العلاقات بين الأشياء التي يتدارسها أرباب العقول في المدينة. صار الكون شبكةً متداخلةً من المعاني التي تتراص وتتراكم وتمتزج في نفس الوقت فيما بينها.

كشف لها عن ترابط اللحظات وكيف أن تلك اللحظة التي تسير فيها الآن ممتزجةً بلحظةٍ أخرى عاشها شخصٌ آخر بعيدٌ عنها في الزمان والمكان. وصارت تُبصر في كل امتزاجٍ بين اللحظات معارف جديدة عنه، جعلتها تدرك مدى ضآلتها في أكوانه وعظمتها في كونها...

صارت ملكة كونها وعبدة في أكوانه، صارت قادرةً على أن تدرك ذلك التوازن بين أن تكون ملكًا وعبدًا في نفس اللحظة بدون أن تشعر بتناقض.

وحين عرفته....

أحبته...

والمحب في كونه يقول للشيء كن فيكون...

في حياتها البسيطة تلك خلال الثلاثين عامًا التي قضتها راضيةً مبتسمةً بجوار زوجها المريض وجدت فاطمة المدد الذي منحها وقتًا ترتقي فيه سلم الوصول بعمق أسرار لا يبصرها إلا من ارتقى...

وليس لأن لديها وقتًا طويلًا، فعمر الكون من بدايته لنهايته لا يكفي للوصول لو حسبته بالسنين، ولكن لأنها أبصرت في كل لحظةٍ معه كونًا لا نهاية له خاصًّا بذاته...

حين تأخذك أنواره بعيدًا عن ظلماتٍ لا تُدركها إلا إذا أبصرتها في لحظةٍ من فضله تحيط بك وغلق عليك كل منافذ النور الذي خلقك له، حينها ستكون كل لحظة معراجًا لكونٍ بلا بدايةٍ

ونهايـةٍ، تصـل إليـه فتأخـذك لحظـةٌ تاليـةٌ لمعـراجٍ تـالٍ لا ينقـص مـما قبلـه ولا يزيـد عليـه ولكنـه لا يقـارن بمـا قبلـه ولا بمـا بعـده.

الكـون في ظاهـره حجـابٌ يُحيطـك بظـلامٍ يمنعـك عـن رؤيـة كونـك، وحـين يمـدك بحروفـه لتقـرر حقيقـة كونـك، ينـزاحُ ظـلام الحجـاب شـيئًا فشـيئًا، فتعـرف عـن كونـك لتعـرف عـن كونـه.

وكـما عرفـت هـي بـه يعـرف بهـا فعرفتـه، كذلـك حـين أحبتـه، شـعرت بحبـه لهـا، فارتقـت وأحبتـه بمـا يليـق بحبـه لهـا...

قبـل أن تعرفـه، كانـت تحبـه كـما يُحـب العاشـق مـن مجـرد قـراءة قصـص الحـب، يشـعر أنـه يجـب أن يعيـش في تجربـةٍ مماثلـةٍ ويتوهـم أنـه يحـب، ويغصـب قلبـه غصبًـا ليُجاريـه فيـما يريـد أن يشـعر...

كانـت تُحبـه حبًّـا مُعتـادًا، لأنـه أحـق مـن يُحَـب، لأنهـا تعلمـت ذلـك...

ولكنهـا خـلال تلـك السـنوات، حـين عرفتـه، وجـدتْ أن الحـب حقيقـةٌ مغايـرةٌ لمـا تعلمتـه مـن قبـل، حـين عرفتْـه عرفـتْ كيـف تُحـب بـدون أن تسـعى لهـدفٍ بهـذا الحـب.

خـلال تلـك السـنوات لم تكـن فاطمـة تخـرج مـن بيتهـا لتبحـث عـن العمـل إلا رغبـةً منهـا في أن يعرفهـا بنفسـه أكـثر، لحبـه أكـثر، كانـت تتلـذذ بإضافـة لحظـاتٍ جديـدةٍ لخريطـة الكـون الخـاص بهـا، ذلـك الكـون الـذي تنمحـي فيـه حـدود المـاضي والحـاضر والمسـتقبل وتـذوب فيـه حـدودُ الأماكـن. لـذا كانـت في سـعيها لا تبحـث عـن الـرزق الـذي اعتـاده النـاس في المدينـة، كانـت تبحـث عـما سـيعرفها

إياه في كل خطوةٍ تخطوها، كانت تبحثُ عن رزقها الخاص معه، حين تقف تنتظر مرور خيل الفرسان الخارجين للمعارك الدائرة على حدود الإمارة، حين تسير بجوار الفتية العائدين من المسجد بعد انتهاء دروسهم وأحاديثهم المتفرقة التي لا رابط بينها، ولكنها هي كانت تجد ما يربطها بكونها، وإلا لماذا كتب لها أن تسير وتسمع، تمامًا كما كانت تبصر تلك الروابط حين تجلس تريح نفسها من عناء اليوم لتجدها في النهر أمامها تسير مراكب محملة بالبضائع القادمة من مختلف مناطق العالم، ولكنها كانت تجد في نفسها القدرة على أن تبصر ما يربط كمصدر كل شيء بأين سينتهي به المقام، فذلك القمح القادم من الجنوب سيُطحن في تلك الدار الذي سيأكل خبزه ذلك النجار الذي يعمل على مئذنة الجامع الكبير الذي سيصلي فيه هذا الشاب الذي سيتزوج تلك الفتاة لينجبا ذلك الطفل بعد حين، كانت يمكنها أن تبصر كل ذلك، ليس لأنه كشف لها ما لا يراه الآخرون، ولكن لأنها سعت إليه فأعطاها.

كانت تعلمُ أن الكون متاحٌ للجميع، ولكن لا يسعى الجميع لكي يبصروا كونهم الخاص، وكيف يتداخل مع أكوان الآخرين في نسيج كونه اللانهائي...

هكذا عرفته وهكذا أحبته ورويدًا رويدًا أصبح عالمها البسيط الصغير أكبر من عالم المدينة الكبيرة التي تعيش فيها.

وحين بلغت في معرفتها ما صار واجبًا عليها أن تنقله لغيرها، توفي زوجها...

حَبِيبَة

ـ ولكن أين أنت في هذه القصة؟

قاطعت قصته، لأني فعلًا كنت أريد أن أعرف سر الأبيات وشعرت أن القصة تطول عما كنت قد أعددتُ نفسي له...

ـ من قال لك إني موجودٌ في هذه القصة؟

نظرتُ له باندهاشٍ:

ـ أنت ألقيت في مخيلتي أنها قصة عنك وعن فاطمة بشكلٍ ما...

ـ إنها قصة عني ولكني لست بالضرورة موجودًا فيها...

وضعت رأسي بين يدي من التعب وأنا أواصل حديثي:

ـ صدقني يا سيدي الغريب، تعبتُ من كثرة الألغاز، لماذا لا تكون القصة مباشرة وواضحة وأحداثها سهلةً بعيدًا عن كل تلك المراحل؟

ـ لو شعرت بالتعب يمكنك أن ترحلي، أنا هنا فقط لأنك مَن طلبتِ أن تعرفي، لو لم تطلبي لما تحدثت، ولكني حين أتحدثُ فإني أخبرك بما يجب أن يخلق لديك تلك المعرفة الكاملة، أو القريبة من الكمال.

رفعتُ رأسي قليلًا وهمست بصوتٍ خرج من فمي واهنًا:

- ولكن لماذا أنا؟ لماذا يجب عليَّ أن أعرف بهذا الشكل، اعذرني سيدي ولكني أحتاجُ أن أعرف لماذا يجب عليَّ أن أعرف...

ابتسم قليلًا، ربما لأول مرةٍ من لحظة أن رأيته..

- ليس لك أن تسألي لماذا أنت يا حبيبة، غيرك كثير وكلهم يبحثون ولكلٍّ طريقه في المعرفة، ولكنك لا تعلمين بهم.

- وهل في قصة الأبيات ستحكي عن رحلة المعرفة الخاصة بك؟ هل هذا ما تقصد بأنها عنك؟

- هي ليست قصتي ولكنها عني، هي قصة كون من أكوانٍ توحَّدت بمُكوِّنٍ وما اتحدت، ولكننا جميعًا به وصلنا إليه...

- إذن أحتاج أن أسمع لأعرف؟

- ستعرفين.

الشَّيْخُ الغَرِيبُ

مَن في الوجود شيءٌ ومَن في الحضور شيءٌ مُختلف تمامًا.....

ليس كل حاضر موجودًا ولا كل موجودٍ حاضرًا...

كانت فاطمة تعرفُ الفرق بين وجود الشيء وحضوره، كل الأكوان موجودةٌ ولكن ليست كلها حاضرةً في كونها، هي لها سلطة على كونها وإرادة في أن يحضر من تستشعر وجوده، و لكنها لا تستطيع أن تنفي وجود من لا تُحضره في كونها...

خارج كونها هناك موجوداتٌ ليست لها قدرةٌ على نفيها، ولكن قدرتها على محو أكوانٍ ووهب الحياة لغيرها تقتصر فقط على ما تصل إليه روحها في داخل حدود كونها...

ولكنها عرفته بالحب، فعرفت أنها إن أحبته أكثر سيهبها سعةً في كونها، تتسع رويدًا رويدًا، لتحضر كل الموجودات في كونها الخاص بها...

كانت فاطمة تُبصر أنها تقترب من نهاية مرحلة في حياتها القصيرة، تقترب من حياة أطول وأعمق وأفسح...

لم تكن تسعى لتلك الحياة، فقط كانت تنتظرها، تعلم أنها ستأتي، كل يوم في الصباح كانت تقوم بعملها، رغم أن الناس قد بدأوا يساعدونها بدون أن يطلبوا منها عملًا، ولكنها كانت لا تجد في ذلك حرجًا، هو مَن أرسل إليها، هو من يُرسل إليها من خلال موجوداته في كونه الفسيح، هي فقط تتلقى منه...

كانت تعلم أنه كما وهبها الزوج المريض الذي تعتني به في أغلب وقتها، كذلك سيهبها الوقت الكامل لتعتني بحبها له وحده.

لم تكن تنتظر أن يموت زوجها لتجد الوقت، لم تكن تتمنى أن يموت في مرضه رغم أن تلك كانت قد تكون أمنيةً مشروعةً، لم تكن تدعو له ليموت لترتاح، رغم أنها قد تكون دعوةً مستجابةً، كانت فقط تسير في حياتها وهي تنتظرُ من حبيبها أن يأذن لها لتكون له وحده.....

كانت تعلم أنه لن يتركها بدون أن يمنحها قربًا بتوحيد الحضور له فقط، فلا يكون في كونها غيره.

ما زال عليها أن تسمح لموجوداتٍ أخرى أن تحضر وتنمو في كونها الخاص بها، موجودات تحبها كذلك لأنها منه وبمدده وهبته، ولكنها تريد أن يكون كونها له وحده. تريد تلك اللحظة التي تكون له وحده بدون شريكٍ. تريد أن تمحو كل حضور وتخلق حضوره وحده فقط.

كانت الشمس تشرق وتغيب، وتدور دورة النهار يتلوه الليل في كون البشر بلا توقف، وكانت تدور مع تلك الأيام بدون أن تستعجل ذلك اليوم، بل بدون أن تتمناه، فقط تنتظره...

كانت في الليل تطمئن أن زوجها قد نام وقد قامت بكل ما يحتاجه لينعم براحته، لم تكن يومًا تسأله عن معنى الراحة بالنسبة لمريضٍ مقعدٍ لا يخرج من بيته، كانت تعرفُ أنه فقط مرتاحٌ حين لا يطلب شيئًا إضافيًّا عما تقدمه له.

كانت فاطمة تُفكر في أشياء مثل راحته وما عليها أن تقوم به لخدمته وهي تغلقُ باب الحجرة الوحيدة لبيتهما الصغير، وتأوي إلى مخدعها في تلك المساحة التي تتوسط ذلك المكان الصغير الذي يُطلق عليه البيت. كانت تلك الأفكار هي ما تنتظر منه أن يخلصها منها، تلك الأفكار التي تربطها بموجوداتٍ حضرت في كونِها ولكنها لا تقدر بعدُ على التخلص منها، أو ليس لها أن تتخلصَ منها، لأنها منه.

لذا كانت تنتظر الليل لتتخلص من موجودات كونها المُتشعبة بأفكارها عنهم لكي تفرغ كونها للحب، ثم تجلس مع من تحب،

ليس لأنها لم تكن معه من قبل في خلال كل لحظةٍ من يومها، فهي معه من خلال مَن تراه فيهم، من خلال موجوداته التي حضرت في كونها، هي الآن تريده بدون موجوداته...

كل ما في حياتها منه، الزوج المريض الذي تسعى لراحته والعناية به، وما يحضره لكونها من أفراد وأحداث تتقاطع دروبها مع دروبهم، فتسير مجاورةً لهم حينًا وتستريح في ظلال بيوتهم حينًا وتقبل منهم ما يهبه لها من خلالهم حينًا. ولكنها في تلك اللحظات لا تريد ما يهبها إياه من خلال ما صنعت يداه، هي تريد أن تشعر بتلك اليد، تريد أن تلمسَ نوره من مصدرِه لتبصر حبه لها بعين القلب الذي خلقه لها لتحبه به، وهي تريد أن تحبه به...

كان كل ما حضر في كونها يُحدثها عنه، ولكنها تريد أن تسمع حديثه منه مباشرةً...

كانت تسيرُ في النهار في شوارع أشبيلية وتستشعر أنها تسير على أرضه، ولكنها الآن تريد أن تجلس في رحابة كونه الخاص...

لا تريد السير في الليل،

تريد الوصول،

تبغي الوصل،

تبحث عن السير في السر الخاص بهما،

هو وهي فقط...

وحين تقترب دقائق الليل من نهايتها،

تكون هي في قربٍ يكشفُ لها عمّا لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، فتنظر ببصيرتها وتهمسُ في شوقٍ:

- اقتربت ساعات الليل من نهايتها، وستغيب نجومٌ يُنيرها نور حبك، أعلم أنه قدرك، ولكني أبصر يومًا لن تغيب فيه النجوم، بل ستشرق شموسٌ تدومُ في كوني بوجود حضورك وحدك لي وحدي، فارزقني رضًا يحفظ قلبي بحبك لذلك اليوم، حين نكون لك وحدك....

ثم تنهضُ لتعودَ لكونِها بما سيحضر فيه من موجودات...

وبعد ثلاثين سنة تُوفي الزوج وصارت له خالصة...

بعد الانتهاء من الدفن حضر إليها الجيران ليواسوها، فوجدوها تبتسم، ظنوا أن صدمة الموت قد أثرت عليها، ولكنها كانت تعلم ما لا يعلمون وتبصر ما لا يبصرون...

جلستْ في بيتها الصغير تلقاهم، لم تكن تُجيب تعازيهم إلا بابتسامة رضا، ويبدو أن تلك الابتسامة مع ظنهم جعلت بعضهم يقرر أن فاطمة يجب ألا تخرج من بيتها تسعى خلف رزقها، لأنها ليست في حالةٍ تسمح لها بذلك، أو على الأقل خلال الفترة القليلة التي تلي الوفاة حتى تسترد عافيتها.

لذا قاموا بالاتفاق على توفير زادٍ يومي لها يكفيها ويُغنيها عن الخروج. وحين أبلغوها بذلك شكرته بشكرها لهم.

كان هذا ما كانت تنتظره، أن يكفيها عن الموجودات لتكون فقط له.

كانـت تؤمـن بـأن هـذا اليـوم سـيأتي، وتبـصره حتـى وإن لم يـره غيرهـا.

كانـت لـه وحـده وهـو لهـا وحـده، كانـت تقـضي يومهـا كلـه معـه كـما لـو كان الليـل قـد امتـد وفي امتـداده انمحـى ظلامـه فصـار نـورًا مـن حضـوره، امتحـق الليـل وانتفـى النهـار وصـار اليـوم كلـه نـور حضـور...

فعاشت مع ذلك النور خلف ستر بابها.

ولكـن نـوره لا يخفـى عـلى العيـون حتـى وإن لم تبـصره العيـون نـورًا كامـلًا، فعَكَـس وجهُهـا بريقًـا جعـل النـاس مـن حولهـا تتحـدث عـن تلـك السـيدة المباركـة.

كانـت فاطمـة تقـترب مـن الخمسـين مـن عمرهـا حـين أشرقـت أنـوار حبـه عـلى العـالم مـن حولهـا، فبـدأ الجميـع يتناقلـون قصصًـا عنهـا؛ تلـك السـيدة المباركـة، وبـدأوا يسـعون لنيـل تلـك البركـة.

يحتـاجُ مَـن لا يبـصر حقيقـة حبـه إلى تنسُّـم نفحاتـه مـن خـلال مـن أبـصر، لم يكـن كل مـن في المدينـة عـلى نفـس درجـة فاطمـة في الحـب، ولا لديهـم نفـس عزيمتهـا، لـذا يُحـب مَـن لا يقـدر عـلى أن تـشرق منـه ذلـك النـور أن يلتمسـه في آثـار مـن يقـدر.

فـما كان مـن أهـل الحـي إلا أن بـدأوا في الاعتنـاء بهـا أكـثر، وزادوا عـلى ذلـك في أنهـم بـدأوا يقصدونهـا لنيـل البركـة، وأحـب بعضهـم أن تمتـد البركـة لنسـلهم، فأقنعوهـا بـأن يرسـلوا إليهـا أولادهـم ليتعلمـوا عـلى يديهـا القـرآن وعلـوم النـور...

وفي ذلك اليوم البعيد، كان هناك رجلٌ من أهل أشبيلية، يسير في اتجاه بيت فاطمة، وكان يسير إلى جواره ابنه الذي بلغ الخامسة عشرة من عمره، كان الأب قد سمع ما تناقلته الأحاديث، عن تلك السيدة المباركة، فاطمة، التي يشع وجهها نورًا يعكس تجلياتٍ إلهيةً. وعرف أن أهل المدينة يرسلون إليها بأولادهم لتعلمهم طمعًا في أن تفيض عليهم بجزءٍ من تلك البركة.

فقرَّر الأب أن يأخذ ابنه ليكون له نصيبٌ في ذلك الخير.

لم يكن الابن يعلم بما ينتظره، كل ما يعلمه هو أن والده قرَّر أن يُغير أستاذه الذي يتلقى العلم على يديْه ليلحقه بأستاذٍ جديدٍ...

لم يكن الفتى يعلمُ يومها ما ينتظره، ولم يكن به من المعرفة التي تجعله يبصر ما سيعيشه في حياته القادمة. تُرى لو عَرَف كان سيسيرُ مُستسلمًا هكذا بجوار والده، أم كان سيطير مسرعًا ساعيًا للقائها، أم سيطير محلقًا بعيدًا عنها...

لم يكن يعلم ما ينتظره في كونه، ولكنها كانت تعلم وتنتظره في كونها...

حَبِيبَة

ـ كان هذا الفتى هو أنا..

هكذا همس الشيخُ لي بصوتٍ بدا كما لو كان يحتويه الشوقُ وإن لم يبد على عينيْه. لعله شوق القلب لتلك اللحظات...

ـ ولكـن كيـف كان هـذا الفتـى هـو أنـت؟ أعلـم أنـك كبـير في السـن ولكنـي لا أعتقـد أن عمـرك يمتـد ليصـل بـك لذلـك الزمـن الـذي تحـكي لي عنـه؟ أم أنـك تحـكي عـن أحـد أجـدادك؟

نظـر إليَّ الشـيخ الغريـب نظـرةً بعينـيْن متلهفتـيْن لتحـكي لي شـيئًا مـا، لم أعـرف مـا هـو هـذا الـشيء، كـما لـو كان داخلـه هنـاك رغبـة في أن يجيبنـي ولكـنْ هنـاك تـأنٍّ في أن يتكلـم لسـانه بمـا حـواه بداخلـه.

كانـت عينـاه تخبرانـي بـأن هنـاك سرًّا مـا ولكـن لسـانه لم ينطـق بالـسر.

بـدلًا مـن البـوْح بالـسرِّ، قـام الشـيخ الغريـب مـن موضعـه واتجـه إلى البـاب ثـم توقـف لحظـاتٍ قبـل أن يسـتدير نحـوي ويقـول:

ـ لقـد اقـترب الليـل مـن أن ينتصـف، حـين تـشرق الشـمس سـنكمل. يمكنـك أن تقـضي الليلـة هنـا وسـأذهب أنـا لأقـضي مـا تبقـى مـن سـاعاتٍ في الـدكان، وأعـود مـع نـور الصبـاح.

لم ينتظر ردًّا مني، بل فتح الباب وخرج وأغلقه خلفه.

لم أكـن أعـرف مـا الـذي يمكـن أن أجيبـه بـه، يبـدو أنـه يُريـدني لأسـمع منـه لا أن أتفاعـل مـع مـا أسـمع، كـما لـو كنـت خـط يُضـاف لدائـرة حياتـه يسـير عـلى حـدوده ولا يريـد مـن الخـط أن يقـوده، هـو يقـود الخـط في حـدود مسـاره ولا يريـد للخـط أن تكـون لـه إرادة قـد تخـرج بـه عـن مسـار دائرتـه لترسـم دوائـر جديـدة...

في حيـاتي كنـت دومًـا أعطـي لـذاتي حـق التدخـل في سـير حيـاتي بإعطـاء مـن يدخـل فيهـا الحـق في أن يأخذهـا لمسـارات أعـرف جيـدًا أنهـا تخـرج بي بعيـدًا عـن مسـار الخطـوات التـي أسـير فيهـا.

كنتُ أفعل ذلك بإيمانٍ مني أني بذلك أتحكم في حياتي وأتفاعل مع الحوادث والأشخاص حولها بإيجابيةٍ، ولكني الآن أبصر شكلًا مختلفًا من التحكم في الحياة؛ كان الشيخ الغريب يعرف ما ستقوده إليه الحياة، لا يقاومه ولكنه لا يدعه يقود خطواته بل يقودها هو...

كان يُبصر القدر، ويسلم به، ولكنه من يقود القدر بإرادة التسليم، ليصل لما يريده منه...

ذلك الخيط الرفيع بين أن تتحكم في حياتك وبين أن تتوهم أنك تتحكم في حياتك، ذلك الخيط الرفيع هو ما منع الشيخ الغريب من أن ينساق وراء إجابة أسئلتي، لو أجاب فهو في الظاهر من يُجيب، ولكنه في الحقيقة ترك لي أن أقوده لما لم يكن يريد أن يُجيب عنه. أعلم أني سأعرفُ الإجابة منه ولكن حين يبصر هو أن إجابته منساقةٌ لإرادته في اتباع قدره وليس قدري.

كنتُ متعبةً من التفكير، ومرهقةً جسديًّا، لم أعرف أي جسدٍ لي هو المُتعب، هل جسد الحاضر، أم جسد الذكريات، لم يكن يهم أن أفرق، فقط كان الجسد متعبًا، وشعرت أني أحتاج فعلًا للنوم.

ولكن حين اعتدلت في وضعيةٍ مناسبةٍ للنوم لم أغلق عيوني، فقد كانت لوحة الفسيفساء تملأ المكان بتفاصيلها، كما لو كان الحائط قد خرج منها وصارت هي المكان.

أدركت أنها تخيلاتي الخاصة، ربما لتعبي، ولكن لوهلةٍ أبصرتني نائمةً، وأنا خارج جسدي أقف قريبةً من تلك الصخرة

التـي يجلـسُ عليهـا ذلـك الرجـل شـاخصًا ببـصره تجـاه تلـك السـيدة التـي تتجـه لبـاب القـصر.

أنـا نائمـةٌ ولكـن هـذا حلـم، هكـذا أخـبرتُ نفـسي، وقفـتُ في مـكاني في الحلـم وشـعرتُ بـأني أتطفـل عـلى الرجـل والسـيدة، فـأدرت جسـدي واتجهـت بعيـدًا عنهـما باتجـاه سـور القـصر، تجنبـت الطريق إلى البـاب الـذي تسير فيـه السـيدة واقتربـت بمحـاذاة السـور، لم أكـن أريـد البـاب، لم أكـن أريـد الدخـول، ليـس بعـد، هكـذا شـعرتُ، فقـط أردت أن أنتظـرَ بجـوار البـاب لأرى مـن يدخـل، لم يكـن هنـاك أحـدٌ يدخـل، رغـم أن البـاب مفتـوح، ولكـن مـع ذلـك وقفـت بجـوار البـاب منتظـرةً، كانـت السـيدة مـا زالـت تقـترب، ولكنـي لم أسـتغرب لمـاذا لم تصـل للبـاب بعـد. كنـت بجـوار البـاب ولا أدخـل، وكانـت هـي تقـترب ولكنهـا لم تصـل، رغـم أني أعـرف أنهـا سـتدخل، كـما لـو كان الأمـر قـدرًا لا مفـرَّ منـه.

لم أدر كـم مـرَّ عـليَّ مـن وقـتٍ وأنـا منتظـرة وصولهـا، ولكـن يبـدو أني قـد تعبـتُ، فجلسـت وأسـندت رأسي عـلى السـور وأنـا ناظـرة إليهـما مـن زاويـةٍ مقابلـةٍ لتلـك التـي كنـت أراهـا مـن جلسـتي في غرفـة الشـيخ الغريـب، بـل إني أبـصرت نفـسي نائمـةً في موضعـي خلـف الرجـل الجالـس عـلى الصخـرة، أخـذت أتأملنـي وأنـا نائمـة، كنـت كـما أعرفنـي، فابتسـمت لإحسـاسي براحـة جسـدي، ويبـدو أن تلـك الابتسـامة قـد انعكسـت عـلى الجسـد النائـم، ففتحـت عينـيَّ النائمتـيْن وتأملتنـي في حلمـي ورويـدًا رويـدًا رأيـت اللوحـة في موضعها بتفاصيلها، التـي اعتـدت عليهـا، أعـرفُ أني قـد اسـتيقظت، ووجـدت شـعاع الشـمس يتسـللُ مـن الزجـاج فـوق جسـدي لينـيرَ اللوحـة أكثر،

فبـدأتُ تفاصيـل جديـدةً تظهـر فيهـا، وأبـصرتُ بجـوار البـاب شـيئًا لم أبـصره مـن قبـل، كانـت هنـاك مَـن تجلـسُ مُسـندةً رأسـها عـلى الجـدار بجـوار البـاب تنظـر للسـيدة التـي تقـتربُ وللرجـل الجالـس عـلى الصخـرة.

انتبهـتُ في نومـي واعتدلـتُ في جلسـتي وقمـتُ مُسرعـةً مقتربـةً مـن اللوحـة، وبدهشـةٍ، تأملـت مـن تجلـس بجـوار البـاب، لقـد كانـت تمامًـا كـما أبـصرت نفـسي في الحلـم....

لقد كانت أنا....

لحظتهـا، دق البـاب وسـمعت صـوت الشـيخ الغريـب يسـتأذن في الدخـول، لم أسـتطع أن أجيبـه مـن الدهشـة التـي كانـت تملـؤني، ولكـن يبـدو أنـه لم يكـن ينتظـر إذني، ففتـح البـاب ودخـل.

كان يحمـل مـا يبـدو أنـه إفطـارٌ، ولكنـي كنـت مـا زلـت واقفـةً كـما أنـا، فنظـر إليَّ وابتسـم، وأشـار إليَّ لأجلـس في موضعـي.

تبعـت إشـارته وجلسـت وأنـا أحـاول أن أبحـث عـن سـؤال لـه، ويبـدو أنـه كان يشـعر بي، فلقـد تركنـي وأخـذ يُجهـز الإفطـار، وحـين أدار ظهـره لي بـدأ عقـلي في محاولـةٍ لفهـم مـا حـدث يبحـث عـن الأسـئلة، حينهـا سـمعته...

ـ لا تبحثي عن أسئلة جديدة..

ـ ولكـن يـا سـيد نـور، كيـف يمكـن لي أن أكـون في تلـك الرسـمة؟ هـل انطبعـت في الرسـمة بعـد أن حلمـت بهـا، أم أني كنـت هنـاك دومًـا ولكنـي لم أبـصر ذاتي وجـاء الحلـم ليكشـف لي؟

ـ ربما هي إجابة لسؤالك...

ـ أي سؤال؟

ـ سؤالك للشيخ الغريب.

ـ انتبهت لكلامه...

ـ هـل تقصـد أني حـين سـألته عـن كيـف امتـد عمـره ليصـل لذلـك الزمـن أجابنـي بـأني أنـا أيضًـا عشـتُ في ذلـك الزمـن.

ـ يـا حبيبـة، ربمـا ليـس السـؤال هـو مـا عليـك أن تبحثـي لـه عـن إجابـة، ربمـا عليـك أن تعيـشي بـدون ذلـك البحـث لتجـدي أنـه ليـس للسـؤال موضـع.

ـ أنـت الآن خـارج الزمـن والمـكان ولكنـك مـا زلـت تسـألين أسـئلة الزمـان والمـكان...

ـ ولكني سأعود للزمن والمكان، أم تراني لن أعود؟

ـ ومن أدراك أنك رحلتي؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنــت مــا زلــت في وجــودك، فلــماذا تشــتتين ذاتــك بــأن تبحثــي عـن أيـن أنـت، وحِّـدي ذاتـك لتبـصري كل مـا أنـتِ فيـه كذاتـك، لم ترحـلي ولـن تعـودي، كلـه مسـارٌ واحـدٌ، كلـه وجـودك...

ـ ولكني الآن اكتشفت أن مساري ممتد...

ـ ربما هو كذلك دومًا...

ـ ولكن ألا يحق لي أن أسأل كيف؟

ـ يحق لك أن تعرفي، ولكن يجب عليك ألا تسألي...

- كيف؟

- ابتسم ابتسامته الكاشفة تلك وهمس في داخلي:

- فقط عيشي وهو سيكشف لك...

- تقصد الشيخ الغريب؟

لم يُجبني، ولكني سمعت الشيخ الغريب يتحدث:

- تناولي طعامك وهيَّا بنا لأكمل لك حديثي عنها وعني وعنه...

نظرتُ إليه متأملةً له وهو يتناول إفطاره البسيط في هدوءٍ، توقفت عند قوله (عنه) ربما كان هو من سيكشف لي ما يجب أن أعرف...

ولكن من هو؟ كل من حولي وما حولي يشيرُ له ولكني لم أعرفه بعد...

سأحتاجُ أن أعرفه لأعرف، هذا ما قاله السيد نور، هو سيكشف لي، لكن الآن يجب أن أعيش بدون سؤال...

أعرف أني سأعرفُ، سأترك نفسي لتعيشَ ما هي فيه لأصل لما أعرفه عن قدري، ربما كان السؤال هو مُحاولتي المتوهمة للتحكم في قدري، ربما يجب عليَّ أن أتخلص من وهمي، يجب عليَّ أن أعيش...

مددتُ يدي وبدأتُ في تناول طعامي، وأنا أرغبُ في أن أعيش...

كان شعورًا مختلفًا، توَّجَتْه رؤيتي لنفسي جالسةً عند السور في تلك اللوحة الغامضة لي، المرتبطة بي، كنتُ أشعر الآن بأن غموض

ما أنا فيه مرتبطٌ بغموض تلك اللوحة وتلك الأبيات التي تزينها، كلما وضحت حياتي ستتضح اللوحة، أو ربما كان يجب أن أنتظر لتتضح اللوحة لتنير بكشفها ما لا أعرفه عن حياتي...

كان الشيخُ الغريبُ قد انتهى من طعامه في جلسته أمام اللوحة التي ما زلت أتأملها وأنا أبتلع ما تصل به يدي لفمي، لم أكن أدرك ما أتناوله، ولكني كنت أستطعمه...

وارتحلت عيني من اللوحة إلى عين الشيخ الغريب، كانت عيناه تنتظرانني بنفس النظرة التي تركتها عليها بالأمس، ولكن نظرتي كانت هي التي اختلفت، فلم أعد أبصر فيها سرًّا تكتمه عني، بل أبصر فيها حقيقةً ستكشفها لي، أبصر فيها ما يجب أن أعرفه حين يجب أن أعرفه...

كم تختلفُ نظرتك لأمر ما بين نظرتك له على أنه سرٌّ مُستتر أو على أنه كشفٌ مُنتظر، واختلاف النظرة يتبعه اختلاف الإحساس...

كما لو كان الشيخُ الغريبُ قد تحدَّث طول الليل بحقائق عن نفسي بدون أن يكون حاضرًا...

كان هو هو، ولكني من اقتربت حين عرفتُ، فأبصرته بجديد معرفتي جديدًا وهو هو نفسه لم يتغير...

لم يبتسم ولكنه قام واقفًا وهو يقول:

ـ الآن يمكننا أن نكمل، هيا بنا...

لم أسأله، فقط تبعته إلى حيث يقودني....

الشَّيْخُ الغَرِيبُ

كانـت مقصِدَ مـن سـمع عنهـا، ومحـطَّ أنظـارِ مـن وصـل إليهـا، وشُـغل مـن اقـترب منهـا...

لم تكـن أشـبيلية مدينـةً صغـيرةً، فهـي مـن المـدن الرئيسـية بالأندلـس، وفي ذلـك الزمـن كانـت تتحـوَّل مـن مدينـةٍ كبـيرةٍ إلى العاصمـة لأكـبر دويـلات الأندلـس وبالتـالي ارتحـل إليهـا النـاسُ لأهـدافٍ مختلفـةٍ، مـن يطلـب المـال، ومـن يطلـب العلـم، ومَـن يطلـب السـلطان، ومَـن يطلـب أن يكـون حيـث تتركـز أضـواء الأحداث ليشـارك فيهـا أو فقـط ليكـون مجـاورًا لهـا...

كانـت أبـوابُ المدينـة تسـتقبل في النهـار جموعًـا مـن البـشر الراغبـين ويُغادرهـا حـين تغلـق مـن لم تتحقـق رغباتهـم. في النهـار تفتـح الأبـواب تنـادي بالأمـل، وفي الليـل تُغلـق طـاردةً مـن فقـد الأمـل.

المـدن كالبـشر، لا تسـمح بـأن يعيـش بداخلهـا إلا مـن لديـه الأمل، لـن يرحـل إلا مـن فقـد الرغبـة في أن يغـذي أملـه بوقـود الحلـم في غـدٍ أفضـل.

المـدن تغلـق أبوابهـا عـلى مـن يحفـظ لهـا حيويـة الحيـاة، وتطـرد مـن لا يسـتطيع أن يجـاري حيويتهـا برغبتـه في الحيـاة، تطـرد مَـن لا يُعطيهـا مـن حياتـه لتحيـا.

تفتـح أبوابهـا لتدعـو الجميـع ليدخلوهـا في الصبـاح، تُغريهـم بنـور الشـمس، بألـوان راياتهـا الزاهيـة، بحركـة شـوارعها الظاهـرة،

تدعوهـم، تعالـوا لتشـاركوني الحيـاة، وتأخـذ منهـم مـا يحافـظ عـلى حياتهـا، ولكـن حـين يـأتي الليـل، وتخفِـت أنوارُهـا الظاهـرة، تظهـر بحقيقتهـا عليهـم، تطالبهـم بـأن يـؤدوا مـا عليهـم، مـن لديـه القـدرة عـلى أن يواصـل الدفـع لهـا مـن حياتـه لتعيـش تحتفـظ بـه داخـل أسـوارها، ومـن لم يعـد لديـه رصيـد مـن الأمـل أو بـدأ يتـسرب إليـه اليـأس تلفظـه خـارج أسـوارها، قبـل أن تغلـق أبوابهـا عـلى مـن ارتـضى أن ينـام خلـف أسـوارها، أو داخـل سـجنها.

وهكـذا البـشر، يفتحـون لـك أبـواب قلوبهـم في نهـار علاقتهـم بـك، فيغرونـك بـكل جميـلٍ وزاهٍ بداخلهـم، ويحافظـون عليـك مـا دامـت لديـك القـدرة عـلى أن تعطـي مـن حياتـك لحياتهـم، ولكـن حـين تخفـت أنـوار تلـك القلـوب، ينتظـرون منـك أن تعطـي أكـثر فـإن لم تعـد لديـك القـدرة عـلى أن تشـبع رغبتهـم في النـور، يلفظونـك بعيـدًا، ويغلقـون أبـواب قلوبهـم خلفـك، ليفتحوهـا لمـن مـا زال لديـه مـا يرويهـم بـه مـن ذاتـه.

ولكنها لم تكن كذلك...

كانـت تعيـشُ في قلـب المدينـة التـي جذبـت جمـوع البـشر، وكانـت هـي نفسـها مقصـدًا لبعـض تلـك الجمـوع.

ولكنهـا لم تكـن كالمدينـة تأخـذ منهـم ضريبـة الحيـاة لتحيـا، بـل كانـت تُعطـي مـن حياتهـا لهـم، لم تكـن تطردهـم، بـل كانـوا يرحلـون هـم عنهـا حـين يشـعرون أنهـم قـد نالـوا مـا يُريـدون منهـا...

كانـت مختلفـةً عـن المـدن وعـن البـشر، لم تكـن تطـرد مـن لا يُعطيهـا مـن حياتـه، بـل كانـت هـي التـي تعطيهـم مـن حياتهـا وهـم مـن كانـوا يرحلـون...

كانت فاطمة تجلس في بيتها الصغير، أو لنقل غرفتها الواسعة، تستقبل الراغبين فيما لديها، وتعطيهم ما يرغبون ولا تغلق أبوابها. كانت تعطيهم الحرية في الوصول إليها والأخذ منها وتعطيهم الحرية في البقاء ما دامت لديهم الرغبة في البقاء، والرحيل ما داموا قرروا الرحيل، لم تكن تسعى لفرض سيطرتها على من يحضر، رغم أنها كانت تستطيع لو أرادت، ولكنها لم تكن كالمدن ولم تكن كالبشر، لم تكن تطرد أحدًا ولكنهم هم من يرحلون، ولم أعرف يومًا كيف يرحل عنها من عرفها، لكن هناك من البشر من يضع لنفسه حدودًا لما يريد، رغم أنه لو لم يضع حدًّا لاستمر في النهل من عطائها، ولكنه وهم الوصول، مَن يحضر إليها يكون لديه هدفٌ معينٌ، ويظل هذا الهدف يسيطر عليه، فيسيطر على حواسه، فلا تتلقى إلا ما تحسبه يأخذه قريبًا من هدفه، ولا تلتفت لما قد يفتحُ عليه آفاقًا مختلفةً من الأهداف، وحين يجد ضالته، يتوهم الوصول، فيرحل...

ولكني لم أرحل...

نحن من نغلقُ علينا الواسع من الكون حين نحصر كونُنا فيما نتوهمه يكفينا، ولكن حين نبصر أن الكون واسعٌ باتساع لا نهائية خالقه، لن نجد ما يكفينا، ولن نمنع أنفسنا من أن نطلب المزيد، ليس عن طمع ولكن عن حب في المزيد مما هو متاح...

لماذا تمنع نفسك المزيد بوهم أنك قد اكتفيت وترحل...

ولكني لم أرحل...

حين حضرتُ مع والدي في ذلك اليوم البعيد، لم أكن أعرفها، لم أكن حتى أعرفُ أنه سيأخذني لها، كنت فقط قد سلمت له

أنـه سـيأخذني لمـن هـو أفضـل مـن شـيخي الـذي تعلمـت عـلى يديـه القـرآن والحديـث ومبـادئ اللغـة.

لم يكـن غريبًـا عـلى أهـل أشـبيلية والأندلـس بشـكلٍ عـام، أن يتتلمـذ أولادهـم عـلى أيـدي سـيدات أو معلـمات يعلمنهـم شـئون الديـن والفقـه واللغـة. لـذا لم يكـن مـا اسـتوقفني حـين دخلـت عليهـا أول مـرة أن والـدي قـد اختـار لي شـيخةً وليـس شـيخًا.

لم يسـتوقفني كيـف أن والـدي وغـيره ممـن كانـوا حضـورًا في غرفتهـا كلهـم كانـوا يظهـرون التبجيـل لهـا، بشـكلٍ يحسـبه مَـن لا يعرفهـا نوعًـا مـن التقديـس.

لم يسـتوقفني حديثهـا عـن الرضـا والحـب والتسـليم، وغيرهـا مـن المعـاني التـي انسـابت مـع حروفهـا كـما لـو كانـت جـداول مـن نـورٍ تسـحر الألبـاب فتصدقهـا العقـول وتحتويهـا القلـوب وتؤمـن بهـا الأرواح. فرغـم مـا في حروفهـا مـن جمـلٍ ترسـم للكلـمات التـي سـمعتها مـن شـيخي مـن قبـل أبعـادًا أكـثر رحابـةً إلا أن هـذا لم يكـن مـا اسـتوقفني...

ما استوقفني في أول لقاء معها هو وجهها...

مـع كل مـا كان محيطًـا بهـا مـن قدسـيةٍ روحيـةٍ ومـع كل مـا يفيـضُ مـن حروفهـا مـن معـانٍ تأخـذك بعيـدًا عـن الكـون المـادي المحيـط بـك، كان وجههـا هـو مـا اسـتوقفني.

قـد تظنـين أني كنـت مـا زلـت فتـىً لا يلتفـت لعمـق الوجـود وروحانيتـه وأني قـد اهتممـتُ فقـط بمـا يهتـم بـه مـن هـو في عمـري، غـير أن الأمـر كان غـير ذلـك...

لـو كان الوجـه بشريًّـا لكنـتُ قلـتُ إنهـا غرائـز العمـر أثـرت عـليَّ، ولكنـي في وجههـا أبـصرتُ مـا هـو غـير بـشري...

كان بشريًّا في تكوينه، عينان وأنف وأذنان وفم...

لكنه كان نضرًا كما لو كانت ما زالت في سن الطفولة،

ولكـن لم تكـن فقـط النضـارة هـي مـا اسـتوقفتني وجعلتنـي أبـصرُ شـيئًا غـير بـشري فيها،

حـين نظـرتُ إليهـا لم أر العينـين، أبـصرت إبصارهـا لمـا تبـصره ولا يـراه البـشر،

لم أر الأنـف، أبـصرتُ تنسـمها لمـا تتنسـمه في كـون عبـيره ولا يتنسـمه البـشر،

لم أر الأذنـين، أبـصرتُ سـماعها لمـا تسـمعه مـن خطـابٍ لا يسـمعه البشر،

لم أر الفـم، أبـصرتُ صـوت شـفتيْها حـين تتحـدث بصـوتٍ لا يفهمـه عنهـا البـشر،

لم أبـصر أشـباح مـا تبـصره أو عبـير مـا تتنسـمه أو حـروف مـا تسـمعه أو صـوت مـا تتلفظـه، لم أبـصر مضمـون الفعـل، فقـط الفعـل...

أبـصرتُ في فعـل حـواس وجههـا مـا هـو خـارج عـن مـا يفعلـه البـشر، لهـذا اسـتوقفني وجههـا...

ربما لهذا لم أرحل...

ربما لهذا لم أضع لنفسي هدفًا يحدُّ من وجودي معها...

ربمـا لهـذا حافظـت عـلى نفـسي بمحافظتـي عـلى وجـودي بجوارهـا...

كنـت في عمـري الصغـير هـذا أعلـم أنـه سـيمدني بمـا يقربنـي منـه، لم تكـن دروس شـيخي تقربنـي مـن الديـن فقـط، كانـت تقربنـي لمـا هـو أعمـق منـه، لم أكـن أعـرف مـا هـو الأعمـق مـن الديـن، ولكنـي كنـت أشـعر أني أقـترب منـه، وحـين أبـصرت وجههـا كنـت كمـن عايـن مـا قـد عرفـه عنـه ولم يشـاهده مـن قبـل، ولكـن حـين شـاهده، أدرك أن هـذا هـو مـا كان ينتظـره.

ولكنـي لم أجـد في هـذا نهايـة لمـا أريـد أو مـا أصـل إليـه، ربمـا لأني جئـتُ بـدون هـدفٍ، أو أن مـن أريـد أرادني بـدون أن أدري عنـه، فلـما تعَرَّفـت عليـه عرَّفَنـي بمـا هـو أوسـع مـن حـدودي، فانطلقـت ولم أوقـف لأرسـم حـدودًا جديـدةً، فأخـذني لكـونٍ لا تجـد فيـه مخرجًـا، لأنـه يتسـع بـك فـلا ينضـب فتجـد مـا يجعلـك ترحـل، فتسـير بـدون أن تقـف، ولا تصـل لموضـع تلتقـط عنـده أنفاسـك المتلاحقـة مـن نشـوة ملاحقـة فيضـه اللامتناهـي، ولكنـك لا تتعـب، بـل تجـد في كل خطـوة طريقًـا جديـدًا يمتـد،

فلا تقف، وكيف تقف؟

ولا ترحل، فإلى أين ترحل؟

لهذا لم أرحل...

نظـرتُ إلى وجههـا فأبـصرتُ فيـه مـن يريـدني، فمكثـت لجوارهـا مريـدًا لـه...

كانت فاطمة تجلسُ كما اعتادت كل يوم في مجلسها، تستقبل من الصباح من يريد أن يتعرف عليه من خلالها، فتتحدث عنه معهم، تخبرهم عن حبها له، وتروي لهم حبه لها. تعكس هذا الحب من خلال عباراتٍ يفهمونها، فكانت تعرف أنهم لن يفهموا لغتها، بل لن يسمعوها، ولم تكن تريد أن تحتفظ به لنفسها، كانت تعرفُ أنه لها، ولكن الحب يفيضُ منها للكون، فلم تكن تريد أن يفيضَ سدى، كانت تريد أن تعبر عن حبها له بإتاحة جزء من هذا الفيض للكون بلغةٍ تفهمها أجسادُ الأكوان التي حضرت في كونها، لذا سمحت للكون أن يأتي لمجلسها لتُحدثه بعباراتٍ تجعله يقترب من كون حبه أكثر...

كانت قد عرفت لغته وتحدثت معه بحروفه التي لا ينضب مَعينها ولا معناها في كونه، ولكنها كانت تُحدثهم بلغتهم في أكوانهم، وتفيض عليهم بمعانٍ قريبةٍ منهم. وهكذا حروفه يا حبيبة، متاحة لنا من فيض نوره ولكننا لا نعرف حروفها إلا إذا تعلمناها بأنفسنا، تعلمها كل منا بذاته في تجربته الخاصة معه. فمهما حكت هي عنه بلغتها فلن يفهمها كاملًا من يسمع بإذن كونه حتى يُعاينَ حروفه في كونه...

كان يأتيها الكثير، يدخلون، يستمعون، ثم يرحلون، القليل منهم يعودُ، ولكنها لم تكن تبحث عن العدد أو الأتباع، كانت تهب نفحاتٍ من حبه لتهب الحياة للجميع، ولكن إرادة الحياة متروكة لهم، من يريد أن يستزيد يعود، ومن يكتفي بلحظاتٍ من الحياة لا يعود...

ولكــن في ذلــك اليــوم حــين حــضرت علِمــت أني ســأمكثُ ولــن أرحــل، ســأخلد في كونهــا...

حــين نظـرت إلى وجهها علِمَـت أني لا أسـتمع لما يسـتمع إليـه مـن حـضر، ولكنـي أسـتمعُ لمـا في حروفهـا مـن باطـنٍ، رغـم أني قـد لا أفهـم بعـد مـا سـكن في الحـروف مـن معـانٍ، إلا أني أسـمع صـوت المعـاني، ولسـت كغـيري أسـمع فقـط صـوت الحـروف...

عَلِمْـت أنهـا أبصرتنـي، عَلِمْـت أنهـا أبصرتنـي أُبصرهـا، فاقتربـت مـن دائـرة مجلسـها وجلسـت خلـف والـدي، الـذي انتظـر حتـى انتهـت مـن حديثهـا ووجَّـه إليهـا الحديـث:

- سـيدتي فاطمـة، هـذا ولـدي، جئـت بـه إليـك لتضميـه لحلقـة درسـك، ولينـال بعلمـك البركـة.

ابتسـمت، لا لم تبتسـم، هـي دومًـا مُبتسـمة، فقـط نظـرت إليـه وتحدثـت:

- كلماتـك حديثهـا لا يعكـس معناهـا؛ لم تجـئ أنـت بـه، هـو مـن جـاء بـه، وليـس لي حلقـة دراسـة، بـل نجتمـع لنعرفـه، وليـس علمـي، بـل هـو فيـض مـما يهبنـا إيـاه مـن كنـز معرفتـه الخفـي، وليسـت هنـاك بركـة خاصـة لمـن حـضر دونًـا عمـن لمـن يحـضر، بـل هـي بركتـه لـكل خلقـه، مـن حـضر في كونـه ومـن لم يحـضر، ولكنـه حـاضر مـع الـكل، ولكـن ليـس الـكل حـاضرًا معـه، ولهـذا ففيـض بركتـه للجميـع، ولا شيء خـاص، إلا مـا منـي لـه، أمـا منـه للجميـع فهـو عـام....

علمـت أنـه مـن الصعـب عـلى والـدي أن يُجيبهـا بـأي حديـث، لأن قولهـا كان عجيبًـا، ليـس مـن السـهل اسـتيعابه في لحظـةٍ لتحـاوره، ولكنـي عرفـت أنـه نفـذ إلى صـدور كل مـن حـضر، فاحتـووه إيمانًـا.

يبـدو أنهـا كانـت معتـادةً عـلى أثـر وقـع كلماتهـا عـلى مـن يحـضر عندهـا، فواصلـت حديثهـا لترفـع عنـه الحـرج في أن يجيـبَ بقـول مـا، أو ربمـا حرصًـا منهـا عـلى ألا تدفعـه الرغبـة في أن يجيـبَ لمجـرد أن يجيـبَ فيقـول مـا لا يفهـم فيـسيء للمعنـى.

لذا أكملت حديثها لوالدي...

ـ هل يعرفه ولدك؟

تحمَّـس والـدي للإجابـة كـما لـو كان سـعيدًا بمعرفتـه لإجابـة سـؤال في حضورهـا

ـ أجـل سـيدتي، إنـه حافـظ لكتـاب اللـه وللكتـب الصحـاح جميعهـا ...

أغلقت عينيها لحظةً، ثم قالت بصوتٍ يُشبه الهمس:

ـ هل يعرفه ولدك؟

تعجـب والـدي مـن إعادتهـا للسـؤال مـن جديـدٍ، وتـردد قليـلًا قبـل أن يجيـب، كـما لـو كان يسـترجع تفاصيـل في حيـاتي الدراسـة ربمـا تكـون قـد فاتتـه في الإجابـة الأولى..

ـ لقد درس كذلك على يد شيخين من خيار المربين، الشيخ...

قاطعته وهي مغلقة لعينيْها:

ـ هل تعرفه يا ولدي؟

لم أجب السؤال، ولكني سألتها:

- لماذا تغلقين عينيْك؟

فتحتهـما بابتسـامةٍ أشـد مـن ابتسـامتها الدائمـة ووجهـت إليَّ حديثهـا وقالـت:

- أغلقهـما حـين أكـون معكـم، فيحدثنـي منكـم بـكلام لا أريـد معنـاه أن ينفـذ لحـدود وعيـي بـه، لا أريـد لحـروفٍ تحمـل معـاني لا تعرفـه أن تصـل لمعنـاه بداخـلي، فتؤذينـي...

لم أعـرف وقتهـا لمـاذا أجبـت بمـا سـأجيب بـه، ولكنـي عرفـت أني لـن أجيـب بمـا يجيـب بـه والـدي، عرفـت أن مـا سـيخرج مـن فمـي سـيكون نابعًـا مـن رغبتـي في أن أعـرف عنـه في داخـل كونهـا هـي، لم أعـرف الكلـمات ولكنـي نطقـتُ بالإجابـة:

- لا أعرفه.

- إذن لنعرفه معًا.

فابتسـمتُ وأنـا أبـصرُ عينيْهـا تتسـع لتسـمح لي بالولـوج في حـضرة كونها...

لم يفهـم والـدي الإجابـة، وكيـف قبلتنـي وقـد اعترفـت بجهـلي، ولكـن كيـف لـه أن يعـرف.

مـن يريـد أن يعـرف لـن يفكـرَ في إجابـةٍ ترضيهـا، سـينطق بإجابـةٍ تأخـذه لرضـاه بـدون أن يصيـغ كلماتهـا، فهـو مـن سـيُجيب عنـه ليضمـه لحلقـة معرفتـه، ليتعلـم كيـف يعرفـه.

وكانت إجابتي صحيحةً.

حَبِيبَة

كنتُ أسيرُ بجواره في نفس الأزقة والحواري التي كنتُ أسير فيها بذاكرتي أمس مع مُنى، ولكن كان الوقت ما زال مبكرًا ولم يكن هناك من يسير بها سوى أهل المدينة ممن يتجهون لأعمالهم، ولكن سيرهم كان هادئًا، بدون صوتٍ، كما لو كانوا أجسادًا تبعث من سبات الليل لتسير في النهار لتعود لمرقدها حين تغيب الشمس. كانت المدينةُ صامتةً بشكلٍ غريبٍ، أو ربما كانت هكذا دومًا ولكني من لم تُتح لها الفرصة من قبل للسير في مثل تلك الساعة خلال زيارتي القصيرة، أو ربما هي فعلًا مدينة أشباح...

ربما أنا أيضًا قد بُعثت ونحن جميعًا نسير في عالم البرزخ، انتظارًا للحشر...

لا أريد أن أترك ذاتي لأفكار الموت، ليس الآن على الأقل، الآن عليَّ أن أتبع الشيخ الغريب، تُرى إلى أين يأخذني، إن السير لم يمنعه عن مواصلة الحديث منذ تركنا منزله، ولكنه توقف فجأةً عن الحديث وأخذ يسير بخطواتٍ أسرع، كما لو كان قد انتبه للوقت وبدأ يخافُ أن يضيع عليه موعدٌ ما.

كنتُ أريدُ أن أسأله إلى أين نتجه ولماذا يُسرع، ولكني وجدت السؤال سيمنعني من أن أتأمل ما يحكي عنه، أن حتى الآن فقط أستمع، ولكني لم أتوقف مرةً لأعرفَ عَلاقة ما يحكيه بقصتي وبوجودي هنا...

كان عقلي يُسرع بفعل تسارع خطواتي لمحاولة اللحاق به، لقد بدأ فيما يشبه الجري ووجدتني بدوري أركض خلفه...

حتى تحوَّل مشهدنا لمشهدٍ غريبٍ؛ شيخ كبير في شبه ركضٍ في الحواري الضيقة وشابة في عمري تسرع محاولةً اللحاق به، لم يُعط هذا المشهد لعقلي فرصةً لفهم ما قد بدأ يتأمله.

كان الشيخُ يُسرع الخطى في أزقةٍ تبدو لي متشابهةً، كيف له أن يعرف طريقه بين هذه الشبكة العنكبوتية، لا بد أنه قد عاش هنا عمره الممتد، كيف يمكن لشخصٍ ما أن يعرف طريقه في هذه المتاهة إلا لو كان قد عاش فيها عمره كله، هذا هو أول سؤال سأسأله له حين نتوقف....

واستمر الوضع هكذا لدقائق قليلة إضافية قبل أن ينعطفَ يمينًا في حارةٍ ضيقةٍ، توقف عند مدخلها، وحين لحقت به بدا كما لو كانت هذه هي النقطة التي يسعى إلى الوصول إليها، ولكني حين نظرت وجدتها حارةً مسدودةً عند طرفها الآخر، وكان الحائط شبه مُعتم، حيث إن ضوء الشمس لم يكن يصل إليه.

ولكن الشيخ الغريب بدأ يشير في هدوء جزل، كما لو كان سعيدًا لوصوله في موعده لموعد لا أعرف عنه شيئًا، نظر إليَّ نظرةً فيها ابتسامة، وكان شيئًا جديدًا أن أراه مبتسمًا ابتسامةً نابعةً من ذاته وليس فقط ابتسامة للتفاعل مع حديثي...

- لماذا نحن هنا ولماذا أسرعت الخطى هكذا كما لو كنت تخشى أن يفوتك شيء مهم؟

تواصلت ابتسامتُه وهو يُشير إليَّ لأجلس على الأرض في وسط الحارة في مواجهة الحائط المُعتم وأجاب:

ـ اجلسي وتأملي معي هذا الحائط، ودعيني أكمل لك قصتها ...

لم يكن لديَّ ما أفعله سوى أن أجلس ولكني أسرعت بالرد:

ـ أريد أن أعرف قصة ذلك الحائط أولًا وما أهمية أن تصل في وقت محدد، ليس هناك سببٌ واضحٌ، هو حائط مُصمت، لا يؤدي لشيءٍ خلفه.

نظر إليَّ من مجلسه بجواري، ثم أشار بإصبعه لزاوية الجدار مع جدار المنزل المجاور له، لم أر ما يشير إليه حين وجهتُ بصري لما أشار إليه ولكنه حافظ على إصبعه موجهًا نحو الزاوية وحاولتُ جاهدةً أن أرى ما يشير إليه ولكن كل ما رأيته هو التقاء حائطيْن في تراصٍّ للأحجار بعضها فوق بعض كأي جدارٍ في كل الجُدر التي رأيتها من حولي.

نظرتُ إليه، ولكنه حافظ على نظرته كما هي، لا بد أن هناك شيئًا لا أستطيع أن أراه هو فقط يراه، فركزت عيني مع خط بصره وحينها رأيت ما يشير إليه...

كانت هناك انفراجةٌ بسيطةٌ تُخطِئها العين، ولكنها كانت هناك..

ـ هذا الشق هو ما تشير إليه؟

ـ نعم.

اندهشت بشدةٍ..

ـ ولكـن مـا المهـم فيـه لهـذه الدرجـة لتحـضر في وقـتٍ محـددٍ، هـو مثلـه مثـل آلاف غيره...

اتسعت ابتسامته..

ـ لا ليس مثل غيره، هو فريد في ذاته..

ثم تطلع في السماء ثم إليَّ وقال:

ـ انظري الآن وستعرفين لماذا هو مختلفٌ.

هممـت أن أقـوم مـن مجلـسي لأقـتربَ لأعـرف مـا هـو المختلـف، ولكنـه أمسـك بيـديَّ لـكي أسـتمر في الجلـوس:

ـ لا تقتربي، هذا القرب يكفيك لتبصري.

عُـدت بتوجيـه بـصري في اتجـاه الشـق الصغـير، كان بالفعـل صغـيرًا، لا يتجـاوز عرضـه الثلاثـة أو الخمسـة سـنتيمترات ولا يرتفـع لأكـثر مـن نصـف مـتر.

حافظـتُ عـلى نظـري متأملـةً الشـق المعتـم منتظـرةً لأكتشـف الاختـلاف، ولكنـي لم أر فرقًـا واضحًـا. ومـرَّت دقيقـةٌ أخـرى ثـم لدهشـتي بـدأ الشـق يظهـر أوضـح، كـما لـو كان بـدأ يشـعُّ نـورًا مـن داخلـه، ثـم انتبهـت لمـا يقصـده الشـيخ مـن اختـلاف، هـذا الشـق تنفـذ منـه أشـعة الشـمس لتلقـي بأنوارهـا عـلى الجـدار.

هتفت وأنا أنظر لما يحدث أمامي:

ـ الشمس..

أجابني الشيخ بدون أن ألتفت له، حيث كنت مشدودة لما أراه

- النور، هذا الشق في هذه اللحظة من اليوم يسع الشمس ليعبر منه النور ليضيء الجدار المعتم، لا يضيئه مرةً واحدةً ولكن كما ترين، يعبر النور من اتجاه الشمس فيبدأ على بقعةٍ صغيرةٍ، ولكن مع دوران الشمس تتسع بقعة الضوء لتكون دائرةً كاملةً، ثم تتسع لتشمل الجدار كله قبل أن تبدأ الشمس في اتجاهها للغروب فيعتم الجدار مع الكون كله...

هذا الشق ليس شقًّا عاديًّا يا سيدتي.

كان ما يقوله يحدث أمامي، وكان هذا هو المبهر في الأمر، كان الضوء المنبعثُ من الشق ضعيفًا ولكن دقيقة بعد أخرى كانت الشمس تتجه لتتعامد مع الشق فيصير الضوء أقوى وشاملًا للجدار كله...

قلت له بدون أن ألتفت:

- هل تأتي هنا كل يوم؟

- لا، ولكن حين أريد أن أتذكرها...

التفت إليه:

- وكيف ذلك؟

اتجهت عيناه للشق المنير..

- قلتُ لك إنه شق غير عادي..

ولوهلةٍ فهمت ما يقصده..

- وهي كانت غير عادية..

لم يجبنـي، ولكنـه قـام مـن موضعـه متجهًـا للجـدار، وحـين اقـترب مـن منتصفـه اسـتدار وجلـس مسـندًا رأسـه عليـه، ثـم أشـار إليَّ أن أقـترب.

اقتربتُ وفعلت مثلما فعل وجلست لجواره.

- بعـد قليـلٍ سـيصل النـور إلينـا، سـيغمرنا، ثـم سـيحل علينـا الليـل فيرحـل نـور الظاهـر ولكـن نـور الباطـن بـاقٍ، دعينـي أُكمِـل لـك ليغمـرك مـن النـور مـا لا يـزول....

الشيخُ الغريبُ

انتبهـتُ مـن غفـوتي عـلى صـوت دموعهـا تتسـاقط عـلى أرضيـة حجرتهـا الصلبـة، كنـت في موضعـي الـذي أتخـذه ليـلًا خـارج بابهـا مسـتلقيًا لأنـام قليـلًا بعـد صـلاة العشـاء، قبـل أن أسـتيقظ لـدرس الليـل معهـا قبـل صـلاة الفجـر. كنـت أسـميه درس الليـل رغـم أنهـا لم تكـن تحدثنـي أو تُلقـي عـليَّ تعاليـم، كنـت أسـتمع لهـا في حديثهـا معـه في الليـل، وأحفـظ في داخـلي مـا أحتـاج أن أفهمـه وأسـألها عنـه في النهـار حـين نبـدأ درسـنا...

ولم يكـن درس الليـل سـهلًا، في البدايـة كان عـليَّ أن أسـتأذن لأنـال موافقتهـا أن أتناقـش معهـا فيـما بينهـا وبينـه. أتذكـر ذلـك اليـوم، كان قـد مـضى شـهران عـلى مجيئـي إلى زاويتهـا، ولم يكـن مـن

عـادة الطـلاب أن يجلسـوا بعـد انتهـاء دروسـها، ولكـن بمـرور الأيـام أصبحـت لي عـادةٌ مختلفـةٌ، لم أكـن أرحـل مـع الراحلـين، كان الـدرس ينتهـي، وتفـرغ مـن حديثهـا، وتجلـس في صمـت، لم تكـن تـصرف أحـدًا، ولم تكـن تنهـض حتـى لا يشـعر أحـدٌ أنـه يجـب أن يرحـل. فقـط تجلـس شـاخصة بابتسـامتها إلى وجـودٍ جميـلٍ لا يـراه إلا هـي. ورويـدًا رويـدًا يبـدأ الطـلاب في القيـام، مُسـلِّمين ومودِّعـين، في أول يـوم كنـت أرحـلُ معهـم، ولكـن في اليـوم التـالي جربـت أن أتأخـر قليـلًا عنهـم شـعرتُ أني أحتـاجُ أن أُجالِـس صمتهـا قليـلًا، حديثهـا عـذب لا يُمَـل ولكنـي كنـتُ أسـمع في صمتهـا حديثًـا لا يسـمعه غـيري، فشـعرتُ أني أتميـز بخصوصيـةٍ لا يتميـز بهـا الآخـرون، فـأردت أن أنهـل مـن تلـك الخصوصيـة، فكنـت أتأخـرُ في الرحيـل معهـم، في البدايـة تأخـرت قليـلًا، ولكـن لـذة الحضـور في صمتهـا جعلتنـي أطمـع في المزيـد، فجلسـت أطـول في اليـوم التـالي، ولكـن في اليـوم الثالـث استشـعرت الحـرج، مـاذا لـو كانـت تريـد أن تقـوم لشـئونها الخاصـة ووجـودي يزعجهـا وكـرم خُلُقهـا يمنعهـا مـن أن تقـوم حتـى لا أشـعر بالحـرج؟ لـذا قمـت مـن مجلـسي وسـلمت مودعًـا.

وجئـتُ في اليـوم الرابـع وقـد قـرَّرت أن أجلـس مـدةً مناسـبةً ولا أطيـل الجلـوس وأرحـل بـدون أن يكـون جلـوسي تطفـلًا عـلى وقتهـا الخـاص. كنـتُ أعلـم أنـه قـد يكـون مـن الأفضـل أن يكـون مكـوثي متقطعًـا ولا يتحـول لعـادةٍ، ولكنـي ذقـت متعتـه فلـم أكـن أسـتطيع أن أسـتغني عنـه، ليـس في الأمـر تعـوُّد عـلى شيء جميـلٍ فالعـادة تـزول حلاوتهـا بمـرور الوقـت، لأن متعتهـا تنقـص مـرةً بعـد أخـرى، وبالتـالي تفقـد مـا تخلقـه في الـروح مـن بهجـةٍ في أول مـرة. ولكـن حضـوري في وجـود صمتهـا لم يكـن عـادة، ففـي كل مـرة كنـتُ أشـعر

بازديـادٍ في البهجـة التـي تنتـشي بهـا روحـي لوجـودي بجوارهـا، لم أشـعر ولـو لمـرةٍ أن بهجـة روحـي بهـا في يـومٍ قـد تسـاوت مـع بهجـة اليـوم الـذي سـبقه، بـل كانـت البهجـة تزيـد، كانـت كل لحظـة معهـا تضيـف لمـا لـديَّ تجاههـا، لم أكـن أعـرف وقتهـا مـا الـذي تضيفـه ولكنـي كنـت أعـرف أنهـا في ازديـادٍ.

لـذا حـين جئـتُ في اليـوم الرابـع لم يكـن في ذهنـي فكـرة أن أتخـلى عـن مكـوثي بعـد أن يرحـل الآخـرون، ولكـن كان في ذهنـي أن ألتـزم بوقـتٍ معـينٍ يجـب أن أرحـل بعـده احترامًـا لوقتهـا الخـاص.

ولكـن في ذلـك اليـوم، مـع رحيـل الآخريـن ومكـوثي كـما كنـت أفعـل، قامـت هـي لبعـض شـئونها وغابـت لوقـتٍ قصـيرٍ ثم عـادت في مجلسـها مكملـةً لصمتهـا كـما لـو كانـت تبلغنـي أني لا يجـب أن أرحل إلا إذا أردت أن أرحـل بـدون أن أربـط وجـودي ورحيـلي بمـا تريـده هـي، فالأمـرُ مـتروكٌ لي. فهمـت عنهـا ذلـك الـدرس، لـن يمنعـك عـما تريـد إلا ظنـك، لـن يمنعـك أحـدٌ فقـط أنـت مـن سـيمنع نفسـك...

لـو لم أفهـم عنهـا مـا قامـت بـه، لأسـلمت أمـري لظنـي وتوقعـي لمـا تريـده هـي ومنعـت نفسي عـما تريـد بظنـي أن هـذا مـا تريـده هـي، رغـم أنـه قـد لا يكـون غـير أوهامـي.

نظـرتُ إليهـا في ذلـك اليـوم وهـي في صمتهـا تنظـر إليَّ بابتسـامتها النـضرة، لم أكـن أحتـاج أن أسـألها، ولم تكـن تنتظـر منـي أن أطلـب شرحًـا. كنـت أعـرف أني طالـبٌ خـاص عندهـا، وبالتـالي كنـتُ أعـرف أني أتلقـى منهـا دروسًـا خاصـة، بطريقـةٍ خاصـة، وهـذا كان أحـد تلـك الـدروس، بـل ربمـا كان مـن أهـم الـدروس التـي كنـتُ أحتاجهـا لأبـدأ رحلتـي معهـا؛ لا تجعـل ذاتـك تعيـق تحقيـق ذاتـك لمـا تريـد،

أصعب حجاب على النفس هو حجاب النفس ذاتها، إذا أردت شيئًا فافعله ودع للآخرين حرية الفعل كذلك، وفي النهاية لن تتجاوز ما دام الآخر قد سمح لك، ولن تتجاوز إذا طالبك الآخر بالتراجع، في النهاية النتيجة بالنسبة لك واحدة، لن تتجاوز، فقط ستجتاز عدم وجود الفعل ليصير موجودًا، سواء أقره الآخر أم لم يُقره، هو قد صار واقعًا.

تذكرت ذلك اليوم في تلك الليلة وأنا أستعيدُ كيف أن هذا الدرس هو ما دفعني لكي أسألها بعد ذلك مباشرةً عن دروس الليل...

بعد ذلك اليوم، لم أعد أشعر بقلقٍ من مكوثي معها بعد انتهاء درس النهار للمدة التي أشعر معها أني من يجب أن يذهب، ولكن حين تقترب منها لم يكن قرار أن تذهب سهلًا، كانت تشع من النور ما ينير بصرك فتبصر معها ما لا تستطيع وصفه، تبصر حروف درس الصباح ترسم حدود كونًا أكثر براحًا وتتكون في تفاصيل لم يكن لك أن تبصرها لو لم تهتد بنور حضورها.

لم يكن يدور بيننا حديث إلا فيما ندر، ولا يتجاوز الكلمة أو الجملة، فلم يكن الليل بالنسبة لها مخصصًا للحديث مع الخلق، كان النهار هو وقت السؤال والحديث والنقاش، في الليل كان الصمت المُبَلِّغ هو لغتها معه، كنت أُبصر شذرات من ذلك الحديث بينها وبينه، ولكني لم أكن أجرؤ أن أتطفل وأسأل عنه في النهار، خوفاً من أن أذيع على حضور الصباح سرًّا بوجودي في حضرة صمتها ليلًا، لذا لم أكن أحاول أن أتطفل، كنتُ أجلس في مجلس صمتها، مستمعًا لحديثها الخاص، وكان لديَّ الكثير لأنصت

إليـه بداخـلي، كان لـديَّ حديثهـا في الصبـاح، كنـتُ أقـوم باسـتعادته في حـضرة صمتهـا مسـتجليًا مـا فيـه مـن معـانٍ مُسترشـدًا بمـا تُوحـي بـه إليَّ في أحوالهـا التـي أستشـعرُ تدرجهـا فيهـا في مجلـسي معهـا. كنتُ أعـرفُ أنهـا في صمتهـا تنتقـلُ مـن حـالٍ إلى حـالٍ، ورغـم أني لم أكـن أعـرفُ مـا هـو الـذي يـدورُ بداخلهـا إلا أني في جوارهـا كنـت أنـالُ بعضًـا مـن فيـضِ مـا تنالـه، فتبـصر روحـي معـاني قـد غلقـت عـليَّ في الصبـاح.

لم تكـن تسـعى لـشرح مـا غمـض عـليَّ، ولكنـي بـدأتُ أفهـم معنـى أن مـن صـدق قربـه يعُـم خـيره، فهـي متصلـةٌ برباطٍ مـن نـورٍ بصـدق ارتباطهـا ومـن اقـترب منهـا سـيناله مـن وهـج ذلـك النـور مـا يكشـف لـه القليـل في ذاتـه الكثـير في نفعـه، وقليـل الخـير منـه كثـير، فليـس في خـيره قليـل بـل كلـه خـير وفـير.

يومًـا بعـد يـومٍ أخـذتُ أدرك أني لـن أرحـلَ، كنـتُ أجلـسُ بـدون أن أشـعرَ بالوقـت، وفي ليلـةٍ وجـدتُ والـدي يدخـل علينـا الزاويـة وقـد بـدا عليـه الانزعـاج، وحـين وجدنـا جلوسًـا في صمـتٍ، بـدا عليـه الارتبـاك، فأشـار إليَّ لأتبعـه للخـارج، فاسـتأذنت وخرجـت خلفـه:

ـ هل هناك من خطبٍ ما يا والدي؟

ـ لقـد انتصـف الليـلُ ولم ترجـع للمنـزل فأرسـلتني والدتـك لأطمـئن عليك .

ظهر الاندهاشُ على وجهي:

ـ انتصــف الليــل، لم أشــعر بالوقــت، آســفٌ إن تســببت لكــما بالقلــق.

وضع والدي يده على كتفي وبدا مهمومًا قليلًا:

ـ أعلـم أنـك مجـذوبٌ لهـا ولكـن يـا ولـدي، لقـد أحضرتـك هنـا لتتعلـم وتعـود لتعيـش الحيـاة بعلـمٍ وليـس لتعيـش العلـم وتهجـر الحيـاة. يـا ولـدي أرى الطريـق الـذي قـد جذبـك، ولكنـه ليـس الطريـق الـذي أريـده لـك.

ابتسمتُ وأنا أُجيبه:

ـ ولكن يا ولدي نحن لا نُريد وإنما يُراد لنا...

بدا على وجه والدي الغضب:

ـ أحضرتـك هنـا لتنـال البركـة وليـس لتحدثنـي مثلـما تتحـدث. غـدًا سـتغيب عـن الدنيـا مثلهـا ولـن يكـون لـك أثـر أو قيمـة، يـا بنـي تعـال معـي الآن قبـل أن يضيـع الوقـت ولـن تنفـع معـك نصيحـة.

دُهشـت قليـلًا، لم أكـن أشـك يومًـا أنـه يحبنـي ويريـد لي الخـير، ولكنـي لم أظـن يومًـا أنـه سـيقول هـذا القـول عـن السـيدة التـي فتحـت بوجودهـا لي أبوابًـا لـو لم يسـع والـدي لأكـون معهـا لمـا عرفتهـا...

ـ أنت تعلم أني لن أرحل معك...

قلتهـا هكـذا صراحـةً لـه، لم أكـن أريـد أن أُتبـع الجملـة بحديـثٍ إضـافي، لـذا قلتهـا بـكلِّ وضـوح.

ويبـدو أن صراحتـي كانـت قاطعـةً، فلـم يُجادلنـي، فقـط قبَّـل رأسي ونظـر لي بحـزنٍ ولكـن بـدون غضـبٍ، وذهـب...

في تلـك الليلـة لم أدخـل عليهـا، جلسـت عـلى أعتابهـا في صمـتٍ، مُتأمـلًا مـا يُـراد لي، لم أكـن أُبـصره ولكنـي كنـت مطمئنًـا أنـه خـير.

بعـد تلـك الليلـة، صـار ذلـك هـو موضـع نومـي القليـل، بعـد أن ينتهـي الـدرس، أجلـس في حـضرة صمتهـا ثـم أخـرج أسـتلقي قليـلًا حتـى يحـين الفجـر لأصـلي ثـم نبـدأ يومًـا جديـدًا...

وفي ليلـة كهـذه الليلـة، انتبهـت عـلى صـوت دموعهـا، تهمـس بحديـث شـوقها، ثـم تتسـاقط عـلى وجهها في حفيـفٍ يلهب إحسـاسي بعشـقها لمـن هـو خـارج عـن دائـرة حـواسي، أعلـم لمـن يتوجـه قلبهـا ومـن تهيـم بـه روحهـا، ولكنـي لم أكـن بعـد قـادرًا عـلى فهـم أبعـاد ذلـك الحـب لمـن هـو غـير موجـودٍ للآخريـن، لمـن هـو غـير محسـوسٍ بنفـس الأبعـاد والتفاصيـل لغيرهـا.

كان هـذا هـو مـا يشـغلني ويجعلنـي مشـدودًا دومًـا لمعرفـة المزيـد عنهـا، كيـف تـراه، كيـف تبـصره، مـا هـو الـذي يجذبهـا إليـه هـذا الجـذب الـذي لا يشـبه غـيره مـن عشـق العاشـقين وتولـه المحبـين؟

كنـت أريـد أن أعـرف لمـاذا هـذا الحـب، كيـف هـو، هـل يمكننـي أن أصـير يومًـا مثلهـا؟ هـل هـو شيء خـاص بهـا فقـط؟ هـل لـو علَّمتنـي مـا تعرفـه عنـه سأسـتطيع أن أكـون مثلهـا يومًـا مـا؟

في تلـك الليلـة أخـذتُ أسـتمع لدموعهـا وهـي تُناجـي مـن أُريقـت لـه، لم تكـن تتحـدث بصـوت تسـاقطها، كان تهمـس بصـوت صعـود لا صـوت هبـوط، كانـت تنسـاب مـن عينيهـا صاعـدة لـتروي سـماء خاصـة تحيـط بعلوهـا وتظلـل شـوقها بـدفء لا يشـعر بـه إلا هـي، كـما لـو كان هـذا هـو حضـن الـرب في القـرب، يحتويـك ليظلـك

بسحبٍ من قطرات دموع عشقك له، فتسير بنسمات معرفته لتتساقط على وجودك قطراتٌ من نور تروي ظمأك وتنبت زهر عشقك في جنة تخلد بدوام شوقك للمزيد منه...

في تلك الليلة لم أكن أستَرِق السمع من خلف بابها، كانت شذرات العشق تهب بنسماتها عليَّ وأنا بالباب، لم أكن محتاجًا لأن أنظر لأرى ما يحدث بالداخل، كان ما يحدث غير مفهوم لدي، ولكني كنت واعيًا به، كما لو كان الكون قد اختزل نفسه ليحضر في زاويتها الصغيرة، فشعرت بأني في عدمٍ خارج ذلك الباب والوجود كله حاضر بداخله، فأردت أن أكون موجودًا في ذلك الوجود، كنت أريد منه جزءًا بل في لحظةٍ من نشوة المغترب حين يبصر أنس وحشة غربته أمامه، في تلك اللحظة أردت أن يكون لي أكثر من جزءٍ، أردته كله لي...

طمع المشتاق لكرم من وهب، ليس تعظيمًا لقدري ولا تقليلًا لقدرِها، ولكني أريد أن أكون حاضرًا في تلك النشوة ولا أكون فقط منتشيًا لمعرفتي بوجودها...

ليس طمعًا، ولكنها رغبة في المزيد...

وربما كان هو هذا الدرس الثاني الذي تعلمته منها في صمت حضورها، لا تمنع نفسك عن أن ترغب في المزيد، فليس هناك حدٌّ يوقفك حين ترغب ممن لا حدَّ لعطائه...

عرفتُ ما أريد في تلك الليلة، أريد أن أفهم حديث دموعها، أريد أن تتحدث دموعي بنفس اللغة...

أريد لحروفه أن تحتويني بمعانيها...

لـذا في الصباح ذهبـت إليهـا قبـل أن يصـل الآخـرون وقلـتُ لهـا بـدون تـردد:

- أريد أن أتعلم لغة الدموع....

فَاطِمَة

لم يكـن غائبًـا عـن فاطمـة مـا يـدور في روحـه وقلبه وعقلـه، كانت تعـرف كيـف أن حضـوره في صمتهـا سـيفتحُ عليـه أبـواب المعـاني التـي ستنسـابُ عنهـا بـدون إرادةٍ منهـا، كانـت تعلـم أنـه لـن يجـد تعبًـا ولكنـه لـن يعـرف الراحـة بعـد الآن، كان هـذا مـا يُـراد لـه وهـو مـا يُريـده...

لم يكـن يشـغل بالهـا أو حتـى يخطـر عـلى فكرهـا ما الذي سـيقوله النـاس عـن هـذا الـذي صـار ملازمًـا لهـا، ولا مـا الـذي سـيصيب أهلـه مـن قلـقٍ عليـه أو حـزنٍ عـلى تركـه لهـم، لم تكـن تلـك الأشـياء لتأخـذ مـن وقتهـا المحـدود في هـذا الزمـن أي مسـاحة. العمـر أقـصرُ مـن ألا نجعلـه يطـول بتضييـع جهدنـا في أن نضيـف إليـه معـاني تزيـد مـن كيفيتـه بالاهتـمام بأشـياء تقتنـص مـن كمِّـه.

مهـما حـدث سـيتكلمون، ومهـما حـاول هـو أن يـشرح لأهلـه لـن يفهمـوا، لـن يفهـم إلا مـن عَـرِف مـا عرفـت، لـن يتقبـل إلا مـن عايـن مـا عاينـت وعـانى مـا عانيـت...

لـذا لم تكـن تجعـل أي شيء يُخرجهـا مـن وجودهـا معـه، عـن معايشـة حبهـا لـه، حتـى ولـو كان مـا يحـدث نتيجـة لهـذا الحـب في الكـون الخـارج عنهـا.

كان انشغاله بصمتها معه، وحضوره في جوار وجود حبها له نتيجة لما يفيض منها انسيابًا على من يحيط بها، فتصيب من أنوار تلك الفيوضات الجميع ولكن من لديه البصر والاستعداد للتسليم هو من سينجذب ويمكث، وهو الوحيد الذي كان يمكث بعد أن يرحل الجميع، والجميع لن يفهموا وبالتالي كل ما سينتج عن عدم الفهم لسلوكه هو نتيجة لما لديها من حب...

ولكنها لا تهتم، ليس لأنها لا تهتم بهم، كيف لها هذا وهُم من صنع يد من تحب، كل ما في كونها منه وبالتالي هي تحب كل ما لامسته إرادته ويد قدرته، ولكنها لا تهتم بمعنى أنها لا تحزن، لا تشعر بأن هناك شيئًا سيئًا يُراد بها، فكل فعل ظاهره من الآخرين هو في حقيقته منه، وهي تحب كل ما يأتي منه، فكل ما يأتي منه جميل، رسائل لها، يخاطبها في الظاهر برسائل من خلال خلقه، كلماته الممتدة في هذا الوجود بلانهائية، لا تنفد، ولا يجف مدادها ولو جفَّت بحارُ الكون، فبحارُ أكوانه لا تنتهي، يمده بحرٌ من بعد بحرٍ، لذا فكل ما يحدثُ من أفعال للناس حولها، هو لها حديثٌ بكلمات من تحب، تربط حروف ظاهرهم بكلماتٍ لها فقط، هي من تستطيع أن تقرأها، لأنها من تستطيع أن تبصرَ ما خلف ظاهرهم من باطنٍ وتطلع على حدودٍ تتجاوز حدودهم...

لذا حين أبصرتُ معاني مكوثه بعد أن يرحل الآخرون لم يكن لها أن تمنعه، بل سمحت بما أذن به أن يصلَ إليه، فصار مكوثُه يتجاوز الليل ليصله بالنهار، ولم يكن في الأمر شيء زائد بالنسبة لها، كان هو يطلبُ ما تطلبه، وهي تأخذه لما يُراد له، بدون أن

تكون طَرَفًا في ذلك، هي فقط مَعبَر لما هو محتوم. أن نعبر من ظاهر الكون الذي يحتوي الجميع إلى باطن الكون الخاص بكل واحدٍ منا، حيث لا يكون معك سوى سواه...

كانت تعرفُ أنه لن يستمر في مراقبتها في صمتٍ طويلًا، سيأتي إليها ليسأل، لن تذهبَ إليه بالإجابة، يجب أن يخرج من حدوده ليستأذن في الدخول إلى وجودها داخل حدودها الخاصة بها هي، عليه أن يرحل عن كونه إلى كونها لتأخذه لكونه.

حين تسأل فأنت تريد ما هو خارج عن كونك المعروف لديك، وتريد أن تعرفَ المزيد، ولكن السؤال يختلفُ أثره من فردٍ للآخر، البعض يسألون بدون رغبةٍ في المخاطرة بالخروج من كونهم للبحث عن إجابةٍ خارج حدودهم الآمنة، وبالتالي تأتي أسئلتهم ضحلةً، مبتورة الأطراف، لا تعبر بهم لأي وجودٍ مختلفٍ، وإنما تكرر ما يعرفون بحروفٍ مختلفةٍ وظاهرٍ يبدو جديدًا ولكنه في النهاية واحدٌ.

ولكنها تعرفُ أنه سيأتي إليها بأسئلةٍ تلغي حدود كونه، رغبةً منه في إعادة تشكيل وجوده بناء على ما سيعرفه من إجاباتٍ. حين تشعرُ أنك مُرادٌ لشيء مختلفٍ، وتكون لديك الشجاعة لتطلب المختلف بدون أن تخشى ما ستأخذك إليه الإجابة، حينها سيصبح سؤالك إرادةً تأخذك لما يُراد منك...

وجاء إليها بالسؤال...

الشَّيْخُ الغَرِيبُ

- أريد أن أتعلم لغة الدموع، كيف تتحدث كل قطرة؟ لماذا أسمع لها صوتًا؟

كان حديثي يبدو عليه اللهفة للمعرفة، كما لو كان ما بداخلي أصبح صعبًا عليَّ كتمانه. نظرت إليَّ بابتسامتها التي تُخبرني أنها تعرف ما أريد وأنها ستجيبني إليه، كنت أعرفُ منها الإجابة بدون أن تتحدث، ولكني أحتاجُ أن أستمع لصوتها يخبرني...

- اجلس إذن، لدينا بعض الوقت قبل أن يحضر الآخرون لأُحَدثك عما تريد. ولكن لأتحدث بما لم أكن لأخبر به لولا سؤالك عليك أن تعلم أنك لن تبوح بما ستعلم إلا حين يحين الوقت...

- وكيف أعرف متى أتكلم؟

- ستعرف حين يأتيك الإذن. سؤالك لي الآن إذن لي بأن أتكلم ولم أكن لأتكلم لو لم تسأل، ولم أكن لأتكلم لو لم تكن أنت السائل. فافهمْ.

- سأفهم..

- ليس كل ما تراه ستسأل عنه، وليس كل ما تسأل عنه سأُجيب عليه، وليست كل إجابة هي لسؤال منك، فلا تمنع نفسك السؤال ولكن لا تجعل الإجابة هي هدفك، فقد تكون الإجابة في عدم الإجابة، وقد تكون الإجابة في عدم السؤال....

ـ وما هو هدفي إذن؟

ـ هدفـك أن تعـرف، أن تعرفـه.... كلـما عرفتـه، كلـما عرفـت إجابة أسـئلتك في كل مـا يهبـك إيـاه مـن رغبـةٍ في السـؤال أو في إجابـة السـؤال أو في عـدم إجابـة السـؤال أو في عـدم السـؤال... رويـدًا رويـدًا سـتعرف كيـف تعـرف في كل ذلـك...

صَمتُّ في رهبةٍ من حديثها...

ـ لا تقلـق، ولا تخـفْ، مجـرد وجـودك هنـا معـي الآن هـو دليـل عنايـة ورعايـة منـه لـك، فاستشـعر ذلـك قبـل أن نبـدأ، أشـعر بـه يُحيـط بوجـودك فيفتـح لـك طريقًـا لتصـل إلى هنـا، لتبـدأ رحلتـك إليـه...

انتباهــك أنــك في غفلــةٍ هــو وعــيٌ في ذاتــه، فأنــت في بدايــة يقظتــك الآن...

أنـت الآن تبـصر لغـةً للكـون غـير تلـك التـي تسـألني بهـا وغـير تلـك التـي أجيبـك بهـا، فاسـتمع لحـروفي ولكـن أنصـت لحروفـه...

سرَت في جسـدي رعـدةٌ خفيفـةٌ كـما لـو كانـت معـاني حروفهـا قـد تسـللت إلى مـا تحـت جلـدي...

ـ لنبدأ...

ـ لنبدأ...

حَبِيبَة

ـ هيا بنا!

انتبهـت عـلى صـوت الشـيخ الغريـب كـما لـو كان يوقظنـي مـن غفـوتي، كنـت مـا زلـت جالسـةً وظهـري للجـدار كـما بدأنـا اليـوم ولكـن كانـت الشـمس تتجـه للمغيـب، وكان الضـوء الـذي قـد غمرنـا خـلال قصتــه قــد رحــل مــع مصــدره، ولكــن أثــره كان لا يــزال في وجـودي، كنـت أشـعرُ بروحـي تـضيء، لم أكـن قـد سـمعتُ بقصصٍ مثـل هـذا الـذي يرويـه لي الشـيخ الغريـب مـن قبـل، لم أعـد أهتـم بمـدى واقعيتـه، أو هـل حـدث أم لم يحـدث في الحقيقـة، كنـت أعـرف أنــه حقيقــي في ذاتي، وهــذا مــا يهمنــي الآن.

ـ هيا بنا إلى أين؟ أريد أن أستمع لبقية القصة...

سـألته وأنـا مـا زلـتُ في مجلـسي أنظـرُ إليـه وهـو واقـفٌ أمامـي في انتظـاري لأتبعـه، ولكـن يبـدو أنـه قـد قـرَّر شـيئًا مختلفًـا، فقـد أدار ظهـره لي وهـو يُلقـي عـليَّ كلماتـه..

ـ غدًا سآتيك لنذهب حيث سنكمل حديثنا...

ثم بدأ في سيره المُسرع، كما لو كان لا يُريد مني أن أتبعه...

جلسـتُ في موضعـي أتأملـه وهـو يغيـبُ في نهايـة الشـارع، كان غريبًـا في كل شيء، لم يكـن يهـوى الوضـوح، ولكنـي كنـتُ أفهـم عنـه، رويـدًا رويـدًا، ربمـا لسـتُ بحاجـةٍ لأن أفهـم كل شيء مـرةً واحـدةً، ربمـا كان جـمال الحقيقـة أن تتكشـف رويـدًا رويـدًا كالشـمس حـين تـشرقُ بهـدوءٍ قبـل أن تُغـرق الكـونَ بنورهـا...

لـو عرفنـا كل شيء في لحظـةٍ واحـدةٍ لما كان هنـاك معنـى للحظاتٍ تاليـةٍ. الكـون يتكشـفُ رويـدًا رويـدًا لأن خالقـه كل يـومٍ هـو في شأن. الحقيقـةُ موجـودةٌ كاملـةً ولكنهـا تظهـر شـيئًا فشـيئًا وهـذا مـا يجعـلُ للحيـاة معنـى أن تُعاش...

وبـدأتُ أتحـرك في جلسـتي، وقفـتُ عـلى قدمـيَّ ولكـن في هـدوءٍ، لأني لم أكـن أعـرف إلى أيـن أذهـب ولا أيـن سـيأتيني في الغـد، لـذا كنـتُ مـترددةً قليـلًا أيـن أتجـه، ولكـن لم أكـن قلقـةً، كنـتُ قـد بـدأتُ أعتـاد عـلى أسـلوب الشـيخ الغريـب، كان هادئًـا حـين يـروي عنهـا، ولكـن حـين يُقـرر فجـأةً أن يتوقـف عـن الحـكي، أجـده كالسـمكة التـي اكتشـفتُ عـلى حـين غِـرةٍ أنهـا في الصحـراء، فتقفـز سريعًـا فزعـةً تبحـثُ عـن عـين مـاء تحفـظ بهـا حياتهـا.

كان يُـسرع بعيـدًا عنـي وعـن الحيـاة حـين لا يتحـدث عنهـا وعـن حياتهـا، كـما لـو كان يرتكـب ذنبًـا بالتوقـف عـن الحديـث عنهـا حـين يكتشـف أنـه يخـون ذكراهـا بحديثـه عنهـا معـي...

تـرددتْ خطـواتي في السـير، لأني لم أكـن أعلـم إلى أيـن أتجـه، ولكـن ذهنـي كان مشـغولًا بتلـك الحـيرة التـي أدركتهـا في الشـيخ الغريـب، كيـف يُمكـن أن يكـون الحـب حـيرةً، أليـس هـو معنـى للاطمئنـان؟

ـ الحيرةُ هي حياةٌ مُتجددةٌ للحُب..

لم يعـد ظهـور السـيد نـور يُفاجئنـي، ربمـا كنـتُ بالفعـل محتاجـةً إليـه لأفهـم هـذه المرة، كـما في كل مـرة، لـذا أجبتـه:

ـ ولكنـه يتعـذب، أشـعر بـه يتعـذب، مـا بـين راحتـه حـين يتحـدث عنهـا ثـم فزعـه حـين يكتشـف أنـه يتحـدث عنهـا ثـم هروبـه

مني كما لو كان يُجبر نفسه ألا يتحدث عنها، أليس هذا عذابًا؟

- ولكنه لو لم تكن لديه تلك الحيرة لما عرف أن حبه حَيٌّ. الحيرة لا تسلب منه الحب، الحيرة تؤكد له أن الحب موجودٌ ودائمٌ.

- الحيرة شعورٌ سلبي، إنها تخلقُ القلق والتوتر، يختفي معها السكينة والاطمئنان...

- تلك حيرةُ الكون الظاهر وشئونه، حين ترددين ما بين اختيارين لا تعرفين أيهما سيضيف لك في ظاهرك قيمةً أكثر، ولكن حيرة الحب معرفة. كلما تعرفين من تحبين أكثر يزدادُ حبك له، ثم تجدين فيه الجديد الذي يُحيرك عنه، فتسعين لتعرفيه أكثر لأنك تحبينه، فتزداد حيرتك مع ازدياد معرفتك. لو توقفت لحظةً عن الحيرة فاعرفي أن حبك قد توقف عن أن يجذبك لتعرفي المزيد فحينها سيكون حبك قد انتقل لكونٍ آخر غير كون الأحياء...

كانت ما زالت خطواتي تقودني، ولكني بدأتُ أتعرف على المكان، كنت أسيرُ في اتجاه الفندق الذي أقيم فيه أنا ومُنى، أو أقمت فيه أنا ومُنى في تلك الزيارة حين كنتُ أنا غير أنا الآن...

- هل ترى حيرتي أنا الآن، لا أعرف من أنا؟

شعرت به يبتسم..

- ربما هذه فرصةٌ جيدةٌ لتختبري من أنت مع من يعرفك.

- ولكنها تعرفني في ذلك الوقت فقط، لا تعرفني الآن، هي تعرفني في الماضي ولكني الآن مستقبلها ومستقبلي، بل إني أعرف عن مستقبلها ما لا تعرفه.

وكعادته اختفى، لم أجد منه إجابةً، كما لو كان عليّ دومًا أن أواجه ما يرتبط بي بنفسي...

كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء، كنت أعلم أن مُنى تحب الخروج ليلًا ولكني لم أكن أعرف هل غادرت أم ما زالت في الغرفة تستعد للمغادرة.

كان الفندقُ عبارةً عن قصرٍ قديمٍ، تم تحويل غرفه لفندقٍ يعتمد على المحافظة على الإحساس بالتراث الأندلسي والإسباني الذي تلا سقوط دولة بني الأحمر في غرناطة، آخر معاقل الدولة الأندلسية. لذا لم يكن هناك مصعدٌ كهربائي بل كان عليَّ استخدام الدرج للصعود، والسير في دهليز تضيئه الشموع، ثم كان عليَّ الصعود درجًا آخر لأصلَ لممرٍّ يطل على ساحة القصر التي تزينها نافورةٌ كما هي عادة البيوت الأندلسية والإسبانية، وحين وصلت للغرفة، كنت غير مُقررة لما سأفعله، ولكني استجمعتُ نفسي، وتوقفت عن التفكير لحظة كانت كافيةً لأطرق الباب...

ثم أطلقت لذهني التفكير من جديدٍ حين سمعت خطوات من الداخل تقترب من الباب وتفتحه، ثم رأيت وجه مُنى وهي تهتف بي مندهشةً:

- حبيبة، أين كنت من أمس، أعلم أنك كنت تريدين الذهاب في تلك الرحلة الجبلية، ولكن توقعت أن تبلغيني قبل أن تذهبي...

لم أجد ما أجيب به على غضبها، كانت بالفعل غاضبةً كما لو كنتُ قد غبتُ عنها يومًا كاملًا، ولكني أعرفُ أني لم أغب عنها في حقيقة ما حدث في ذلك اليوم، لذا كان إحساسي غريبًا، رغم تفهمي لقلقها وغضبها مني، إلا أني شعرتُ أنه قلقٌ وغضبٌ من شخصٍ غيري، قلق وغضب مني... يجب أن أتوقف، أنا أنا الآن، لأكن نفسي وفقط...

نظرتُ إليها وهممتُ بأن أخبرها بشيء يهدئ غضبها، ولكنها كانت أسرع مني:

- لا يهم الآن، سنناقشُ الأمر بعد ذلك، ولكن أسرعي الآن، لقد أعددتُ لك حقيبتك، لم أكن أعرف ما سأفعل بها، هل أتركها أم آخذها معي، ولكن في النهاية لقد جئت وهذا هو المهم...

لاحظت أنها كانت تستعد لترك الغرفة حين طرقت الباب، كانت حقيبتها خلف ظهرها بينما حقيبتي على السرير وهي تحملها وتعطيني إياها.

- هيا يا حبيبة لم يعد هناك وقت، القطار سيتحرك بعد نصف ساعة.

خرج مني صوتي لأول مرة:

- قطار، إلى أين؟

نظرت إلى مُنى باندهاشٍ وهي تدفعني خارج الحجرة ثم تُسرع أمامي الخطى وهي تهتف:

- هـل نسـيت باقـي رحلتنـا معًـا بعـد أن اسـتمتعت في رحلتـك وحـدك؟

وتوقفـت لحظـة حـين تذكـرت، أجـل نحـن ذهبنـا الليلـة إلى أشـبيلية...

بـدأتُ في محاولـة متابعـة مُنـى وخطواتهـا السريعـة، تمامًـا كـما بـدأتُ اليـوم لاهثـة خلـف الشـيخ الغريـب وهـو يُـسرع بـين الأزقـة، الآن أسرعُ خلـف مُنـى نصـل للقطـار في موعـده، لنتجـه إلى أشـبيلية.

ولكنـي عرفـتُ أيـن سـأقابله غـدًا، كان مـن الطبيعـي، أن أرفـض أن أذهـب لـكي أمكـث حيـث تركنـي الشـيخ الغريـب، ولكنـه لم يقـل انتظرينـي، قـال سـآتيك، لـذا أينـما سـأصل سـيأتيني...

رغـم أن خارجـي الظاهـر للعيـون كان يبـدو مرتبـكًا في الجـري لـكي نصـل للقطـار في الموعـد، إلا أن داخـلي كان مطمئنًـا، ومسـتكينًا...

غدًا سيأتيني وهذا الاطمئنان يكفيني.

السَّيِّد نُور

في النـوم سـكينةٌ لا تعرفهـا القلـوبُ التـي تغفـلُ في نومهـا عـن معـاني السـكينة في يقظتهـا. ولكـن مـن يُبـصر سـكينته في يقظـة روحـه لا تغفـل عيـون قلبـه عـن سـكينة النـوم وإن سـكنت عيونـه لراحـة نـوم الجسـد...

أرواحُ المحبين لا تنام، وكذا أجسادُ من امتزج الحب بكل ذرة من كيانهم، فصارت بالحب أجسادهم في صفاء أرواحهم، فيخلدون في يقظة لا تعرف تعبًا رغم أنها في حيرةٍ بلا راحة.

تأملها في نومها وهو يُدرك كم هي جميلة.

- ولكن أليس كل من طرقت معاني الحب قلبه جميلًا؟

- أعرف، ولكن لجمالها معنى خاصا بي، ربما لأني كنت معها في رحلتها لتفتح أبوابها لتجلي معانيه في وجودها. ربما لأني شاهدتها تشرق ببراعم زهور ظهور الحب في كونها.

- هل تحبها؟

- ومن منا لا يحبها يا أخي؟ كل من في عالمنا يحبها، أليست من نبع النور الذي نرعاه سُقيت؟ أليست حبيبة للكون لأنَّا أحببناها؟

- أعلم كل ذلك، ولكن في نبرتك حبٌّ مختلفٌ...

- ليس هناك إلا حبٌّ واحدٌ يا أخي، ولكني بقربها شعرتُ بجميل حبه لي بجمال حبها له، فأحببتها قربًا منه ومن حبه.

- ولكن ألا تخشى منها على حبك له؟

- كل الحب منه، وما أنا إلا شعاعٌ من نوره كاشفٌ لجميل جماله، فكيف أن تكون لي إرادة خشية بل كيف يكن لي معنى للحب في كوني إن توهمت وجودًا غيره لأحب. هو فقط شعور به يزيد حين أقترب أكثر من معاني حبه في تجليها في جمال مظاهر تجلي إرادته.

ـ أنت تعلم أنها ما زال أمامها الكثير لتعرفه من خلالك...

ـ أعلـم وأنـا لهـا دائمًـا موجـودٌ بفيـض إيجـاده لي لهـا، فلـن أحيـد أو أتراجـع...

ـ حسـنًا، مـا دام الأمـر كذلـك، فدعنـا نتأمـل جـمال يقظتهـا في غفيـان عيونهـا في النـوم...

ـ الآن ستستيقظ لتكمل رحلتها، وأنا معها....

حَبِيبَة

لم أسـتطع أن أنـام في تلـك الليلـة، ليـس فقـط لأني وصلـت للفندق حيـث سـأقيم ومُنـى في السـاعة الواحـدة بعـد منتصـف الليـل، ولكـن كذلـك لأني كنـت أنتظـر في ترقـب لأرى هـل سـيصدق حـدسي في أن أسـيرَ مـع الأمـر وهـو سـيأتي إليَّ...

حتـى والقلـب مطمـئنٌ لتسـليمه يظـل هنـاك ترقـب، ليـس ظنًّـا أو شـكًّا، ولكـن ترقـب لتحقـق متعـة الاسـتمتاع بتأكيـد تسـليمه. في تحقيـق الأمـر وفقًـا لمـا تبـصره بـدون أن تـراه متعـةً ونشـوةً، متعـة ترقـب كيـف سـيُصيب توقعـك لمـا يريـدك هـو لـه ونشـوة الوصـول لمـا يريـده وفـق مـا توقعـت. كـما لـو كنـت معـه في مداعبـةٍ، هـل سـيتم الأمـر وفـق مـا سـلمت لـه بـه، وحـين يتـم سـتكون نشـوة ثقتـي بتسـليمي لـه هـي مكافـأتي عـلى هـذا التسـليم، حـين لا تعلـم الغيـب ولكنـك تبـصره بـدون أن تـراه...

كان هذا هو شعوري في تلك الليلة...

رغم أني كنت متعبةً من حديثي مع مُنى خلال رحلة القطار من غرناطة لأشبيلية، حاولت خلالها أن أسترضيها وأقلل من غضبها بحجج قبلتها هي بدون أن يبدو أنها تصدقها ولكن حين نظرت إليَّ تلك النظرة الماكرة وقالت:

- أعتقد أنا أعرف أين كنتِ بدون حاجة لمثل تلك الحجج الواهية التي قبلتها على مضض...

نظرتُ إليها بتوجس ونحن نستعد لمغادرة القطار.

- وأين كنت من وجهة نظرك؟

اتسعت ابتسامتها:

- لا ريب مع حبيبٍ جديد...

خرجت مني بدون تفكير ضحكةٌ من قلبي، جعلتها هي الأخرى تضحك برضا عن نفسها..

- هو حب للمكان فعلًا ولكن ليس هناك شخص بعينه، صدِّقيني يا حبيبتي لو كان هناك حُبٌّ جديدٌ كنت قلت لك. لماذا أخفي أمره عنك؟

توقفت مُنى عن الضحك ونظرت إليَّ بدهشة، جعلتني أعود للواقع، هي تحدثني في زمنها وليس زمني، لذا لا بد أني كنتُ سأخفي عنها لو كان هناك حب جديد..

- ما الأمر يا حبيبة، تعرفين أني أحب لك كل جميل ولكن لا يمكنك أن تحكي لي قصة حب أو مغامرة حب بهذه السهولة، ليس بعد، ولا أعتقد أنك ستقدرين على هذا...

فجأة كما لو كنت قد غادرت المستقبل وكنت فقط ماضي ذاتي، كما لو كانت تلك اللحظة تحدث بالفعل، رغم علمي بكل تأكيد أنها لم تحدث في الماضي الذي عشته من قبل، ولكني الآن أشعر كما لو كان هذا هو سير الزمن الطبيعي بأحداثه التي لا ريب حدثت...

تداخلت الأزمان في داخلي للحظات وبدا الارتباك ولكن لا ريب أني عُدت في إحساسي لإحساس حبيبة تلك اللحظة التي لو سمعت ما قالته مُنى لذرفت دموعها، وبالفعل هذا ما حدث، ذرفت دموعي في صمت، ويبدو أن مُنى شعرت بي كما لو كنتُ قد عُدت لها من جديدٍ، فحضنتني وهي تبكي في صمتٍ هي الأخرى...

لم أدر بالوقت ولكني همست لها:

- لم أنس يا مُنى ولكنه الكلام في بعض الأحيان يأخذك لحالةٍ غير حالتك فيخرج التعليق بدون أن يكون صادقًا من القلب ولكنه مجرد تراص للكلمات المتسقة مع الحوار بدون المعنى... آسفة أني قلت ما قلت.

حررت نفسها من ذراعي وأخذت يدي وسرنا على رصيف محطة القطار ولم تتحدث حتى صرنا في الشارع وتعرفت على مكان الفندق الذي كان على بُعد دقائق مشي من المحطة، وأخذنا نسير في شوارع المدينة شبه الخالية في تلك الساعة من الليل، ثم قالت:

- أنـا التـي يجـب عليهـا أن تتأسـف، تعلمـين كـم هـو صعـب شـعوري أن أفقـدك بعـد أن ذهـب هـو، ولكنـي يجـب أن أعـرف أنـك لـن تذهبـي مثلـه فجـأة، عـلى الأقـل سـتخبرينني....

- ولكني حين أذهب كما ذهب سيكون فجأة في الغالب...

- أعلـم، ولكنـي أرجـو أن أعلـم قبـل أن يحـدث. كفانـا حديثًـا عـن هـذا الأمـر، نحـن هنـا لنُكمـل رحلتنـا، أليـس كذلـك؟

ابتسمت لها ونحن ندلف من باب الفندق:

- نعـم يـا مُنـى، نحـن هنـا لـكي نسـتمتع. والآن النـوم هـو طلـب اسـتمتاعي الأهـم...

ضحكـت وأسرعـت تُنهـي إجـراءات التسـجيل واسـتلام مفتـاح الغرفـة. وكـما لـو كانـت لا تريـد أن تخرجنـي عـن إحسـاس النـوم، لم نتحـدث إلا عـن متـى سنسـتيقظ غـدًا وأخبرتهـا أني سأسـتيقظ مبكـرًا لأذهـب لأرى الـشروق عنـد بـرج الذهـب عـلى النهـر، كنـت أتمنـى ألا تقـرر أن تـأتي معـي، وبالفعـل أخبرتنـي أنهـا سـتنام وسـتلحق بي حيـث سـأكون، ولكـن عـليَّ أن أنتبـه لتليفـوني هـذه المـرة. تمنيـت لهـا نومًـا سـعيدًا وأغلقـت عينـيَّ...

دقائـق وشـعرت بهـا نائمـة، وحاولـت أنـام ولكنـي كالليلة السـابقة شـعرت أني لـن أنـام إلا حـين يبـدأ حلـمٌ جديـدٌ...

كنـت مـا زلـت عـلى ترقـب متـى سـأرى الشـيخ الغريـب وأيـن، ولكـن حبيبـة التـي تعيـشُ الذكـرى هـي مـن كانـت تترقـب لقـاء الشـيخ الغريـب، في حـين أن حبيبـة التـي بكـت في أحضـان صديقتهـا كانـت مـا زالـت في حالـة الحـزن التـي اعتـادت عليهـا كلـما تذكرتـه...

ويبدو أن الحزن قد تجاوز الزمن وبدأ يتملكني في وجودي في الحاضر والذكرى، تحوَّل رويدًا رويدًا الترقب لنشوة تحقق بصيرة التسليم إلى حزنٍ بدأ يسيطر على كل وجودي...

أغلقتُ عينيَّ أكثر باحثةً عن نومٍ يُنسيني وربما كذلك باحثة عن السيد نور، أعلم أنه يُراقب ما يحدث في داخلي الآن فلماذا لا يأتي لنجدتي؟ ألا يخاف أن تضيع حبيبة في ذكرى حبيبة؟ أليس من الممكن أن تنهار كل هذه التجربة التي لا أعلم لها هدفًا حين تختفي تجربتي في الحاضر أمام طوفان جيشان مشاعر ذكرى حبيبة؟

وحين لم أسمع صوته توقفت عن محاولة انتظاره وتركت نفسي للنوم، في الحلم ربما سيأتي الرجلُ الغريبُ ليكشف لي أمري...

ولكنه لا يكشف إلا قصته، وأنا أحتاج من يكشف لي قصتي. ولكني رأيت نفسي في لوحته، أنا جزء من قصته لم يُكشف لي بعد، أنا لست فاطمة وبالتأكيد لست هو، ربما أنا هو ذلك الشخص الثالث الذي لم يكشف عنه بعد، ربما أنا الثلاثة معًا ولا أدري...

استمرت أفكاري تتصارعُ فيما بينها ولكني اكتشفت أن صراعها أزاح حزن الذكرى، أفكاري تتنازع على مكاني في المستقبل وبالتالي انشغل وجود حاضري عن وجود حزن ذاكرتي...

اطمأننت لصراع أفكاري على موقعي في قصة الشيخ الغريب، ويبدو أن الراحة سرت لجسدي فوجدت بعد قليل ذهني يغيب عن أفكاري كما لو كنت قد سقطت في ظُلمة ولكن لشبه ثانية،

إذ سرعان ما وجدت النور يعُم ووجدت نفسي واقفة فوق أرض اللوحة، لم أكن أسير فيها ببُعدين كما كنت بالأمس، لا هذه المرة كنت واقفةً فوقها بدون أن أكون جزءًا منها، كما لو كانت قد انطبعت على الأرض وأنا أسير فوقها أو أن الحائط الذي رُسمت عليه قد امتد للفضاء وصرت قادرةً على الوقوف عليه باستقامةٍ بدون أن ألتفت للجاذبية. وكلما سرتُ شعرت أني بالفعل أسير على حائط صاعد لأعلى وليس أرضًا مستوية...

كانت البوابة تبدو في الأفق الأعلى، وكنت أرى ذاتي الجالسة على الحائط المجاور للبوابة وأرى الرجل الجالس والمرأة التي تسير. لم يكونوا في حركةٍ ولكن اللوحة كانت تستمر في التمدد لأعلى كلما خطوت خطوة، كما لو كنت يجب أن أستمر في السير بدون أن يتغير الكون من حولي إلا أنه يتسع، وفي اتساعه أبصرت تحت قدمي ذلك الشكل المثلث، كما لو كانت أضلعه تظهر أوسع مع كل خطوةٍ في اتساع الكون، ولكنه حافظ على أبعاده وأضلاعه المتساوية...

وفي لحظةٍ أدركتُ أني مع كل خطوة يتسع فيها كون اللوحة أنا أيضًا ترتفع قامتي ويزدادُ طولي فيكشف بصري المزيد من الأُفق...

وتوقفت، أريد أن أعرف هل سيتوقف اتساع كون اللوحة، وبالفعل توقف، ووجدت نفسي أتأمل المثلث الذي أبصرته، ولدهشتي كانت كل زاوية منه تلتقي عند شخصٍ من أبطال اللوحة، الرجل والمرأة وأنا، كل منا عند زاوية من ذلك المثلث متساوي الأضلاع...

حـين أبـصرتُ حقيقـة أبعـاد المثلـث رأيتـه يسـتوي واقفًـا في مواجهتـي كـما لـو كان يدعـوني للعبـور مـن خلالـه، وبالفعـل لم أتـردد، وفي اللحظـة التـي مـررت مـن خلالـه ومـن تحـت ضلعيْـه الواقفـيْن، أفقـت مـن نومـي، قبـل أن أبـصر مـا هـو الـذي كان بانتظـاري في الحلـم...

ولكنـي لم أقلـق، هـذا موعـدُ ذهـابي لـه، حيـث سـيأتيني، وهـو مـن سيكشـف لي مـا لم أره في الحلـم، هـو مـن سيكشـف لي واقعًـا أجمـل مـن الحلـم أو ربمـا خيـالًا أكـثر جـمالًا بواقعيتـه...

نهضـتُ وارتديـتُ ملابـسي وغـادرت الغرفـة والفنـدق، كانـت الشـوارع خاليـة في تلـك اللحظـات قبـل الفجـر ولكنـي مـن جديـدٍ لم أهتـم، تركـت قدمـيَّ تقودانـني إليـه...

وجاء إليَّ....

الشَّيخ الغريب

بجـوار النهـر يوجـد رزق، بجـوار النهـر يوجـد فرصـة أكـبر لتحصـل عـلى المزيـد، بجـوار المـاء حيـاة، وبجـوار النهـر سـتجدين أنقـى حيـاة...

حـين كنـت أفـرغ مـن حضـوري معهـا كنـت أسـعى لأبحـث عـن حضـوري معـه، كنـت أبحـثُ عـن مـكانٍ يحفظنـي بعيـدًا عـن الآخريـن، لأكـون معـه فقـط.

كانـت تقُـص عـليَّ كيـف أن المـكان يبحـث عنـي كـما أبحـث عنـه، "هـو في كل مـكان ولا تحويـه أبعـاد لمسـاحة مهـما وسـعت،

ولكـن هنـاك بقعـةً مـن الأرض تخصـك أنـت فقـط، في تلـك البقعـة ستجد نفسـك في قـربٍ خـاص بـك، ستشـعر بـه كأنـك تـراه، تذكـر كأنـك تـراه، أنـت تُبـصره في الكـون في كل لحظاتـك وفي جميـع مواضـع خطواتـك، ولكـن في تلـك البقعـة سـتتعرف عليـه كأنـك تـراه، يمكنـك أن تحمـل تلـك البقعـة في داخلـك حيثـما ترتحـل وتحـل، ولكنـك تحتـاج أن تعـود إليهـا بـين كل وقـتٍ وحـينٍ، تجلـس عندهـا بجسـدك لتشـعر بمـا أوجـده لـك في كـون الجسـد فتجـدد الإتصـال بـه مـن خـلال تجليـه في كونـك...

لا تُنهِـك الـروح بإفنـاء الجسـد، بـل اجعـل جسـدك مغذيًـا لروحـك...

ابحث عن تلك البقعة وستجدك...".

هنـا بجـوار النهـر وجـدتُ مـكاني الخـاص، في ذلـك اليـوم، كان الصبـاح قـد أشرق عـلى وجـودي معهـا، اسـتأذنتُ في الدخـول عليهـا، وسـألتها إن كانـت تريـد شـيئًا، كنـتُ أعـرف إجابتهـا وكانـت تعـرف أني سأسـأل، كانـت فقـط تبتسـم، بالتأكيـد لم تكـن تحتـاج شـيئًا، كانـت تـرضى بمـا هـو متوافـر، أو مـا يـأتي لبابهـا، لا تـرُد أحـدًا.

لم يكـن في الأمـر عـادة اعتـدت عليهـا، ولكنـه إحسـاسي بأنهـا غاليـةٌ عـلى قلبـي كان يجعـل مـن سـؤالي هـو تعريفـي لهـا بمـا تمثلـه عنـدي مـن مكانـةٍ. ليـس في السـؤال المُكـرر المعـروف إجابتـه عيـبٌ أو مـا يسـوء مـا دمـتُ سـألته لمـن يفهـم عنـك...

رغـم أني أعلـم إجابتهـا ورغـم أنهـا تعلـم أني سأسـأل، إلا أن كليْنـا كان يعلـم مـا في قلـب كلٍّ منـا للآخـر، وبالتـالي لم يكـن هنـاك تكـرار

في السـؤال، كان هنـاك تأكيـد كل يـوم عـلى أننـا مـا زلنـا نضيـف كل يـوم الجديـد لمـا بيننـا.

حـين كنـتُ أسـألها بالأمـس كنـا في مسـتوى مـن المعرفـة يختلـفُ عـن اليـوم الـذي سـبقه وسـيختلف عـن اليـوم الـذي يليـه، وبالتـالي مـع صبـاح كل يـوم لم يكـن السـؤال هـو المقصـود في ذاتـه، كان ازديـادُ المعنـى هـو مـا نسـعى إليـه لتأكيـد اسـتمرار مـا بيننـا مـع اتسـاعه.

كل لحظـةٍ بالنسـبة لنـا كانـت تضيـفُ لنـا فلـم أكـن أنـا بالأمـس نفـس مـن سـأل اليـوم، لم تكـن هـي هـي، لـذا حـين أسـأل اليـوم وتُجيـب اليـوم فـإن ذاتي الجديـدة تسـأل لتجيـب ذاتهـا الجديـدة، لنتعـرف عـلى بعـضٍ مـن جديـدٍ في سـياق مـا تأسسـت ذواتنـا عليـه.

هكذا معها كانت الحياة تتجدد، ولا تقف، ولا تنتهي...

في ذلـك اليـوم تلقيـتُ ابتسـامتها وانطلقـت متجهًـا إلى منـزلي، رغم علمـي بـأن والـدي سـيتجنب أن يكـون موجـودًا في ذلـك الوقـت حتـى لا يـراني، مـا زال يشـعر بـأني أهـدرُ حيـاتي بالاستسـلام لتلـك الحيـاة. كانـت والـدتي تفتـح لي البـاب كل يـوم في الصبـاح، أُقبـل يدهـا، تتركنـي في غرفتـي ثـم تعـود ومعهـا بعـض المـال والطعـام، ولكنـي لا أخـذ منـه شـيئًا، ولكنهـا في كل يـوم تكـرر نفـس الـشيء، كـما لـو كانـت تنتظـرُ منـي إجابـةً مختلفـةً، وأنـا مسـتمرٌّ عـلى نفـس الإجابـة.

في البيـت كان السـؤال يتكـرر ولكـن هنـاك رغبـةً وأمـلًا في أن تتغير الإجابـة، ولأنـه أملٌ بـدون معرفـةٍ أو رغبـةٍ في معرفـةٍ، فأمـي كانـت تكـرره مـن بـاب التكـرار لعـل وعـسى أن أتغـير، ولكنهـا لـو عرفـت مـا بي لعلمـت أن تغـير إجابتـي سـيكون دليـل فشـلي وانتـكاسي عـن طريقـي...

لـو فقـط تعـرف مـا أعـرف، هـي تدَّعـي أنهـا تعـرف، كل مـن حولهـا يوهمونهـا ويوهمـون أنفسـهم أنهـم يعرفـون، يتداولـون حديثًـا عـن المجذوبـين، عـن البهاليـل كـما يُطلقـون عليهـم، نسـبةً إلى بهلـول المجنـون الـذي يسـير في الشـوارع يهـذي بمـا لا يفهمـه الآخـرون ولكنهـم يتنـدرون عليـه. كانـت تـرى أن هـذا سـيكون مصـيري وتـرى أنهـا بذلـك تعـرف عنـي، وتخـبرني أنهـا تدعـو اللـه أن يكشـف عنـي.

"سـيخبرونك أنـه يدعـون اللـه لينجيـك مـما أنـت فيـه، لا تُجادلهم، فقـط قـل آمـين، هـم يدعونـك لبُعـد وتأمينـك يدعونـك لمـا تُريـد روحـك صدقًـا لمـا سـينجيك مـن وهـمٍ ويكشـف لـك معرفـة. لا تجادلهـم، لـن يعـرف مـا بـك إلا مـن عرفـه...".

كانـت دومًـا تكـرر عـليَّ ذلـك المعنـى كلـما كنـت أخـرج مـن عندهـا للكـون الخـارج عنـا...

في ذلـك اليـوم، كـررت والـدتي قولهـا، وكـررت قـولي آمـين، وقبَّلـت يدهـا وسـألتها أن تسـلم عـلى والـدي، وخرجـت عائـدًا إليهـا، ولكنـي وجـدت قدمـي تأخـذني إليـه...

كان بيـت أهـلي يقـع عـلى الضفـة الأخـرى مـن النهـر، فضَّـل والـدي أن يبتنـي بيتًـا بعيـدًا عـن مركـز المدينـة، ليكـن لديـه متسـعٌ في أن يـزرع حديقتـه الخاصـة، وكذلـك ليكـن عـلى مقربـةٍ مـن طريـق التجـارة الرئيـسي الـذي يصـلُ المدينـة بالمـدن الكـبرى الأخـرى...

لـذا في طريـق عـودتي كان يجـب عـليَّ أن أعـبر القنطـرة، التـي كانـت هـي المعـبر الأسـاسي لأهـل المدينـة بـين ضفتـيْ النهـر، ولكنـي في ذلـك اليـوم لم أعـبر النهـر مـن عنـد القنطـرة، شـعرتُ أني أريـد أن

أعـبره بأحـد القـوارب التـي يسـتخدمها أهـل المدينـة حـين يريـدون الانتقـال بأغراضهـم.

سرت بمحـاذاة النهـر في اتجـاه أحـد المـراسي التـي كنـت أعتـاد استخدام قواربهـا، وبالفعـل كان هنـاك قـارب يسـتعد للتحـرك بمـن فيـه، ولكنـي فضلـت انتظـار القـارب التـالي، كان مـا زال أمامـه وقـتٌ ليـس بالقليـل ولكنـي وجـدت في نفـسي شـوقًا للانتظـار.

كنـتُ أشـتاقُ للعـودة لهـا، في الأيـام التـي أعـود فيهـا للمنـزل، كنـت أشـتاق للعـودة إليهـا شـوقًا يمنعنـي مـن التقـاط أنفـاسي وأنـا أسرع الخطـى وصـولًا لبـاب حجرتهـا.

ذلـك اليـوم كان شـوقي مختلفًـا، كنـتُ في شـوقٍ للانتظـار. مشـتاق لأن أُبـصر شـوقي لهـا في انتظـاري لمـا يوصلنـي لقربهـا.

خلقنا للانتظار فمن رضيَ فقد آمن ومن تعجل فقد أشرك...

ولم أجلـس منتظـرًا بـل قـررتُ أن أواصـل سـيري بمحـاذاة النهـر وأن أعـود حـين أرى المركـب قـد اقـترب. وبالفعـل أخـذت أنقـل خطـواتي بهـدوء العـالم بأنـه ليـس هنـاك مـا سـأصل إليـه لـو أسرعـت الخطـى.

ذلـك الشـعور الواثـق، مـن أنـك تسـير في إطـارٍ محـدودٍ، نهايتـه محـدودةٌ لـن تختلـف باختـلاف الخطـوة، كنـت أبحـث عـن تلـك الثقـة في حبـي، رغـم لا نهايـة مـا يَمُـدني بـه مـن اتسـاعٍ في كـوني بمعرفتـه، إلا أن معرفتـي أنـه في نهايتـي وبدايتـي ومحيـط بـكل ذاتي هـو مـا كنـتُ أريـد أن يتعمـق بداخـلي، معرفتـي أن كل خطـواتي تسـير بي في مواضـع هـي بدايـة ونهايـة في حـدِّ ذاتهـا، معرفتـي أنـه

مهما أسرعت الخطوة أو أبطأتها سأصل لنفس المكان الذي هو فيه، لأنه في كل مكان.

شعرتُ بالمعنى يحتويني، أبصرته في جدولٍ صغيرٍ ينبع من النهر، هممتُ بأن أعبُره بقفزةٍ من قدمي، ولكني وجدته ينحني بخطوتي لتتبعه، تسير على تهادي جريانه، اختفى خلف مجموعة أشجار تظلل ما خلفها، فاختفيت في ظلالها ووجدته مستقرًّا في انتظاري...

في تلك البقعة وجدت الماء يصبُّ في بركةٍ صغيرةٍ، لم يكن للعين أن تراها لو لم تكن القدم قد اكتشفتها، ولكن حضور الجسد في تلك البقعة كان حضور خيال، لم يكن للبقعة وجود بدون أن أجدها، ولكني عرفتُ حين أبصرتها أنها في انتظاري، استقر الجدولُ وراق الماء وهدأت الطيور وتهادت النسمات وسكن السكون في انتظاري، لم أكن أتخيل، بل كان واقعًا ولكني حضرته في خيالي بعمقٍ لو لم أرقَ به لما اقتربت من معناه...

تمثل لي المعنى بصورة الكون الجميل من حولي، فاقتربت منه بقوة خيال المُحب، فشاهدته شهود مُحب في حضور من يُحب...

لا تسأليني عن ذلك الشعور، لا تسأليني عن أي شيء، فلستُ أملك أي إجابة.

فقط أخبرك بما حدث، كأنك ترينه...

لم أدرِ كم مرَّ عليَّ من وقت، كل ما أتذكره هو يدي تدق بابها مستأذنةً في الدخول.

كان وجهي يُخبرها، أو ربما غيري أخبرها بدون أن أتحدث، قامت إليَّ، كانت أول مرة منذ عرفت طريقي إليه عن طريقها التي تقف لي فيها، يبدو أنني لم أكن في حالةٍ تسمح لي بتعظيم ما قامت به، فلقد تركتها تُجلسني وتذهب لتعود بكوبٍ من اللبن الدافئ، الذي لم أسأل عن مصدره، فقط شربت منه قليلًا.

رفعت رأسي ناظرًا إليها...

ـ هل طُويَت الأرض؟

ـ كأنها..

ـ هل رأيت؟

ـ كأني..

أغلقتُ عينيَّ على تلك الكاف التي شكلت كوني...

ـ ما بين الكاف والنون واو كونك، وبها وصل خيالك بنور معانيك، الكاف كشفك لواو وصلك بنون نوره لتبصر كونك ما بين كافه ونونه، فلا تنسَ مقامك ولا تغتر...

ـ وهل يمكن للقلب أن يغتر؟

ـ لا يمكن للقلب إلا أن يغتر، كيف لا وهو حيث لا أحد سواه؟ أنت وحدك معه، هل هناك من هو أفضل منك؟

صمتُّ قليلًا ثم وجدتني أهمس:

ـ نعم، أنا في تَذَلُّلي...

ابتَسَمَت

ـ إذن احذر أن تَغترَ لكي تحصل على المزيد..

ـ هل هناك مزيد؟

ـ وهل هناك إلا المزيد؟

ابتَسَمْت

حَبِيبَة

ـ هل هذه البقعة قريبة من هنا؟

كنا جلوسًا على ضفة النهر في ذلك الموقع بجوار برج الذهب، ولم أتمالك نفسي وقمتُ من موضعي أتأمل النهر كما لو كنتُ أبحث عن تلك البقعة.

نظرتُ إليه فوجدته ينظر إليَّ فيما يُشبه الدهشة، كان من الصعب أن تعرف مشاعره من تعابير وجهه، ولكن هذ المرة يبدو أن تصرفي قد تجاوز كل ما توقعه مني، فخانته نظرة دهشة اختفت سريعًا، ولكني لمحتها وشعرتُ بالحرج..

ـ اعذرني ولكن حديثك شوَّقني أن أرى تلك البقعة، لا بد أننا هنا في أشبيلية لهذا السبب، أليس كذلك؟ أعتقد أني فهمتُ الآن لماذا انتقلنا من قرطبة إلى أشبيلية، لكي تأخذني لتلك البقعة، أليس كذلك؟

اعتدل في جلسته وهمَّ بأن يقول شيئًا ولكنه توقف، فأسرعت كما لو كنتُ أحاول إقناعه أن يتحدث:

- هذه بلا ريب إشارة، علامة على الطريق، أليس كذلك؟

أخـذ يحـوِّل نظـره مـا بـين الأرض وبينـي وبـين النهـر قبـل أن يقـول في هـدوءٍ:

- لا ليـس كذلـك. الإشـارات لا تـأتي هكـذا لتشـير بوضـوح لما تريـد أن تلفتـك إليـه. ليسـت الإشـاراتُ إلا مـا يجذبـك لتلتفتـي ولكنهـا ليسـت هـي في نفسـها مـا تريـدك أن تلتفتـي إليـه. لم يـأتِ بـك لأشـبيلية لتبـصري تلـك البُقعـة، أتى بنـا هنـا لـشيءٍ آخـر....

- وما هو إذن؟

نظـر في اتجـاه الضفـة الأخـرى مـن النهـر كـما لـو كان يبـصر ماضيـه، ثـم أكمـل كلامـه كـما لـو كان لم يسـمع سـؤالي:

- تلـك النقطـة في المـكان مرتبطـة بالزمـان الـذي وُجِدَت فيـه، لـن تحـضر في مشـاهدتك أو مشـاهدتي إلا إذا حـضر الزمـن نفسـه فينـا وحضرنـا فيـه.

جملتـه ذكرتنـي بـشيء لم أسـأله عنـه مـن قبـل، فاقتربـت منـه كـما لـو كنـتُ سـأُلقي عليـه سرًّا:

- هـل تعلـم أني لسـت مـن هـذا الزمـن، أنـا أسـتطيع أن أتحـرك بـين الأزمـان، ربمـا يمكننـي أن أسـتحضر الزمـن ونبـصر فيـه ذلـك المـكان. أنـت تعلـم عنـي، أجـل؟

نظر إليَّ تلك النظرة الخالية مما يمكنني أن أستشف به داخله:

- أعلـم أنـكِ أنـتِ، وأني أنـا، لسـتِ مـن زمـنٍ غـير مـا أُبـصر بعينـي، ولكـن في حـضرة الخيـال نُبـصر حقائـق تـتراص بجـوار المعـاني،

فـنرى الكـون بوجـهٍ أقـرب مـا يكـون لمـا هـو عليـه، وكُلٌّ يُبـصر بحسـب قدرتـه...

أعتقـد أني قـد عرفـتُ أنـه يعـرف عـن تجربتـي، التـي لم أكـن أعـرف عنهـا الـشيء الكثـير. حقيقـة لقـد ارتحـتُ أن وجـدت مخلوقًـا بشريًّـا حيًّـا أسـتطيع أن أُحدثـه عـما يحـدث لي، رغـم أني لم أكـن متأكـدةً إن كان يريـد الحديـث عنـي أم فقـط عنـه وعـن فاطمـة...

أخـذتُ أتأملـه وقـد عـاد لتأملـه لمـا لا أبـصره، كُنـا مـا زلنـا جلوسًـا عنـد النهـر ولكنـي كنـتُ أخـشى أن تسـتيقظ مُنـى وتتصـل بي لـكي ألقاهـا، لم أكـن قـد اكتفيـت مـن حديـث الشـيخ الغريـب. كان قـد مـرَّ علينـا حـوالي الثـلاث السـاعات، منـذ حـضرت ووجدتـه جالسًـا. لم أشـعر بالدهشـة حـين وجدتـه عنـد المـكان الـذي قـررت اليوم السـابق أن أذهـب إليـه، يبـدو أني قـد اعتـدت منـه عـلى الأشـياء التـي يصعـبُ تحديـد تفسـير لهـا، أو ربمـا هـذا هـو مـا يجـب أن أعتـاد عليـه؛ لا شيء يمكـن للمـرء أن يعتـاد عليـه أو يتوقعـه..

- حـين تشـعر الـروح في صفـاء الحضـور، يغيـب الوجـود ويَخلُـد الشـعور. حينهـا تجلـس الـروح تبـصر حقائـق الكـون ومعانيـه كـما لـو كان قـد خُلـق لهـا مـسرحٌ خـاص بهـا مـن خيـالٍ يسـتمد قوتـه وقدرتـه مـن مـددٍ لا يفنـى مـورده.....

كان يُحَـدِّث ذلـك الفضـاء الممتـد أمامـه، أو ربمـا يـردد مـا سـمعه مـن ذلـك المـكان في ذلـك الزمـان، أو مـا يسـمعه الآن.

كانـت السـاعة قـد اقتربـت مـن العـاشرة صباحًـا، كنـت أعلـم أن مُنـى سـتأتي قريبًـا، لـذا كان وقتـي الضيـق معـه يضغـط عَـليَّ،

وما كان الوقت ضيقًا ليكفي ما أريد أن أعرفه منه عن الزمن اللامحدود، الذي يخلقه لي بكلامه...

- حدِّثني بما تسمعه عني، فيجب أن أذهب بعد قليلٍ، وما زلتُ لا أعرف عني شيئًا...

التفت إليَّ بدون أن أشعر أن حديثي قد أخرجه مما هو فيه:

- أنا لا أسمع عنك ولكني أسمع عن الكون، فاسمعي عن نفسك مما أُحدثك به!

- وهل يحدثك الكون عني؟

- الكون كله حديث عن ذاته وأنتِ منه فكلامه سيحتويك لو أنصت له...

- إذن حديثك عنها يحتوي ما أعرف به نفسي؟

ابتسم فيما بدا لي كما لو كانت ابتسامة تعجُب:

- هي الكون وأنتِ الكون، كل كلام الكون عنها يحتويني ويحتويك ويحتوي الكون كله، فقط اسمعي...

لم أكن أريد أن أجادله رغبةً مني في معرفة المزيد:

- سأسمع، حدِّثني أكثر...

الشيخ الغريب

ـ كيف تطرب الروح للمعنى؟

سـألتها ذات ليلـة بعـد أن رحـل عنـا الجميـع، كنـت أعـرف أنهـا ترغـب في وقتهـا معـه وحدهـا، ولكـن كان الحديـث في درس ذلـك اليـوم عـن معنـى السـماع، وهـل يخلـق السـماع طربًـا ووجـدًا يجـذب الـروح أقـرب لحـضرة المعـاني التـي لا تسـتطيع أن تبصرهـا الـروح في الحديـث العـادي.

لم تكـن قـد أجابـت بمـا يُشـبع نهمـي لمعرفـة مـا يقربنـي منـه أكـثر. منـذ ذلـك اليـوم الـذي وجـدت فيـه بقعتـي الخاصـة، وأنـا أبحـثُ عـما يحمـل شـعوري في ذلـك المكان ليكـن معـي في أي مـكانٍ آخـر. كان جـمال الشـعور يجذبنـي لـكي أمكـث في تلـك البقعـة وقتًـا أكـثر ولكـن رغبتـي في المعرفـة كانـت تجذبنـي لجـمال وجـودي معهـا.

كنـت معـه وحـدي في تلـك البقعـة أشـعر بـه ولكنـي معهـا أشـعر بـه معـي بمـا يسـاعدني أن أتعـرف عـلى حقيقـة هـذا الشـعور أكـثر. وحـدي كنـت أشـعر الجـمال ولكـن معهـا كنـت أعـرف عـن معـاني ذلـك الجـمال.

ربمـا كنـتُ متعلقًـا بـه لتعلقـي بهـا أو متعلقًـا بهـا لتعلقـي بـه، كان ذلـك الإحسـاس يشـتتني في بعـض الأحيـان، ولكنـي كنـتُ أعـرفُ أني أحتـاج لوجـودي معهـا، لم أكـن أمتلـك القـدرة عـلى الاسـتغناء عنهـا..

ولم أكن أفكر حينها أني يجب أن أستغني عنها...

لـذا كنـتُ متلهفًـا لمعرفـة المزيـد عنـه مـن خلالهـا، ربمـا رغبـةً منــي في أن أُبــرر لنفــسي حُبــي لوجــودي في حضــور وجودهــا...

لذا سألتها:

- كيف تطرب الروح للمعنى؟

نظرتْ إليَّ وقامت من مجلسها:

- تعال معي نمشي معًا ونسمع المعاني..

تبعتهـا وأنـا مسـتغربٌ لقولهـا، ليـس لأني غـير فاهـمٍ لمـا تقـول، ولكنهـا كانـت المـرة الأولى التـي تدعـوني فيهـا للسـير خـارج حجرتهـا.

كانــت الشــمس قــد قَرُبــت عــلى المغيــب، وكان النــاس يســيرون عائديـن لمنازلهـم، فكانـت الشـوارع مزدحمـةً، وبالتـالي كنـتُ أعتقـد أنهـا لا تحـب السـير والاختـلاط بالنـاس وضجيجهـم...

كنـا نسـير بـين الحوانيـت التـي بـدأتْ تُغلـق أبوابهـا، والنـاس التـي تُـسرع في خطواتهـا بـدون أن تلتفـت حولهـا، كان الجميـع فيـما يشـبه الركـض، كلٌّ يُـسرع ليلحـق شـيئًا مـا، كان الإحسـاسُ أن هنـاك ضيقًـا في وقتهـم، كـما لـو كان اليـوم قـد قـرُب عـلى الانتهـاء والـكل يُـسرع ليُنجـز شـيئًا مـا لا يعلمـه إلا كل شـخصٍ، أو ربمـا لا يعلمـه ويُـسرع لأن الـكل يُـسرع مـن حولـه.

كانــت تســير بخطــى هادئــةٍ، كــما لــو كانــت ليســت منهــم، وبالفعــل كانــت ليســت منهــم، كنــت أســيرُ عــلى خطوتهــا، ولكنــي شــعرتُ وأنــا أنقــل الخُطــى أن هدوءهــا يــسري في ســيري وينتقــل رويــدًا رويــدًا إلى داخــلي.

كنتُ أنتظرها أن تتحدث، ولكني بمرور الوقت أدركتُ أنها لا تريد أن تتحدث إلا حين أشعرُ بالهدوء يملكني ويحركني، كانت تريد مني أن أقترب من هدوئها وأسير على سيرها في داخلي وليس فقط في خارجي...

- هل تسمع؟

استغربتُ سؤالها

- أجل أسمع الناس وضجيجهم...

- ليس هذا ما أسمعه..

- ماذا تسمعين؟

- أسمع الخلق بكلام الخالق...

لم أفهم في البداية ما تتحدث عنه..

- كيف هذا؟

- في البدء كانت كلمته، كل من في الكون بدأ من سماع أمره، كُن، فكل ما كان حولك ويكون حولك وسيكون حولك، هو تجسيدٌ لكلمته، كل من يفعل في الكون هو بسماع قوله وكل من يتحدث في الكون هو بحديثٍ من نبع حديثه.

كما لو كان الكون حولي قد اختلف فجأةً، أغلقتُ عينيَّ لأستوعب ما سمعته منها.

- ولكن كيف أسمعه؟

تابعتْ سيرها وأنا لجوارها وحدثتني بدون أن تنظر إليَّ:

ـ لا تسـمع حديـث الخلـق، اسـمع حديـث مـن خلقهـم. هـم كلماتـه التـي يخاطبنـا بهـا. مـا كلماتـه هـي حروفـه التـي خاطبنـا بهـا في كتبـه التـي تقرأهـا فقـط، كلماتـه لا تنفـد، لـو كان البحـر مـدادًا لحديثـه، لنفـد البحـر ومـا نفـد حديثـه، ولـن ينتهـي. كل يـوم هـو في شـأن، كل لحظـة هنـاك خلـقٌ جديـدٌ، وحديـثٌ لا ينقطـع.

توقفـت عـن السير وتوقفـت تنتظـرني، كان الكـون مـن حـولي قـد توقـف فجـأة كـما لـو كنـت لم أعـد قـادرًا عـلى اسـتيعاب حركتـه حـين أدركـت مـا تتحـدث عنـه. كانـت لحظـة الإدراك مفاجئـةً، لم يتوقـف الكـون في حقيقتـه ولـن يتوقـف ولكنـي مـن أوقفـت كـوني الـذي كنـت أظنـه حقيقـة، وبـدأت أُبـصر حقيقـة حركتـه.

الكـونُ لا يتحـدث، النـاس حـولي لا يُصـدرون أصواتًـا، تلـك الحـروف التـي تتجمـع في أذني ليسـت كلماتهـم أو نغماتهـم.

إنه حديثه...

ـ أأسمعه بروحي؟

ـ تسـمعه بمـا وقـرَ في قلبـك، مـا لا يملكـه غـيرك ويمكـن أن يملكـه الجميـع.

في داخلـك مـا سـيجعلك تسـمع كـما لـو أنـه يتحـدث، ليـس الأمـر في أن تحبـه وتعرفـه كـما لـو أنـك تـراه مختصًّـا فقـط بالبـصر، هـو يشـمل السـمع والبـصر وكل الحـواس. حـين تبـصر أن مـا في الكـون كلماتـه التـي لا تنتهـي ولا تنفـد، وحـين تشـعر بداخلـك بوجـودك كلـه نابعًـا مـن كلمتـه لـك حـين سـمعتها بالأمـر بـأن تكـون، حينهـا

ستسـمع ذاتـك تكلمـك بكلامـه، فأنـت موجـودٌ لأنـك سـمعت لـه، وأنــت تتحــدثُ بســمعك لــه، أنــت كلمــةٌ مــن حديثــه وحديثــك كلامـه، حينهـا ستسـمع لكلامـه في كل مـا خلـق، كل صـوت تسـمعه هــو منــه، كل معنــى تُبــصره بمــا تســمعه دال عليــه.

لـن تجـد الوجـد في اللحـن الجميـل، ولا الصـوت الشـجي ولا الكلام المـوزون فقـط، سـتجد المعنـى في صـوت الضجيـج، في مطرقـة الحـداد، في صريـخ المـارة، في وقـع الأقـدام في الشـارع. ستسـتمع لكلامـه في كل شيء، سـتبصر بروحـك المعنـى في أي شيء.

سيسـتوي لديـك تقاسـيم العـود وبـكاء الطفـل الوليـد، كل صـوتٍ تسـمعه هـو حديثـه ويحمـل لـك معنـاه، فتطـرب في كل وقـتٍ ولحظـةٍ...

- سأطرب في كل وقت ولحظة!!!

كانت قد عاودت السير وأنا لجوارها..

- ولِـمَ لا، فأنـت تسـمعه في كل لحظـةٍ، لأنـك في كل لحظـةٍ مـع كلماتـه التـي تحمـل معانيـه، كل لحظـةٍ أنـت مـع ذاتـك أو مـع صـور خلقـه، فـكل لحظـةٍ تحمـل لـك كلمـة منـه...

- وهل لو سمعتها ستصل روحي لمعانيه؟

- المعنى سيصل لا تخشَ من ذلك!

حـين يُحَـدِّث الكـون وجـودك وحـين يتحـدث وجـودك مـع ذاتـك وحـين تسـمع ذاتـك لوجـودك الـذي أصبـح بليغًـا بحروفـه وصـار مُبلِّغًـا لـك بكلامـه، حينهـا لـن تسـمع لغـيره، كيـف تسـمع لمـن لا تكتمـل جُملـه ولا تتصـل كلماتُـه وتتقاطـع حروفُـه بـدون صلـةٍ

تربطها؟ ستسـمع مـا هـو دون حروفـه كـما لـو كان لغـوًا، بـل لـن تجـد تلـك الحـروف لأذنـك سـبيلًا.

نحـن لا نسـتمع لمـا لا يمكننـا فهمـه، وحينهـا سـيصبحُ ظاهـر كلام الكـون غـير مفهـومٍ لـك، حتـى الألحـان التـي كنـت تطـربُ لهـا والكلـمات التـي كنـت تتغنـى بأشـعارها، كل هـذا لـن يطربـك، سـيصير نشـازًا أمـام لحـن الوجـود الـذي سـتنتشي بسـماع أنغامـه. سـيصبح عُـود الكـون أجـوف وسـتبصر عـوده وهـو لـك يعـزف...

حينهـا أنـت وحـدك ستسـتمع للمعنـى، لـن تتعـبَ لتعرفـه، سـيأتيك حقيقـةً في خيـالِ واقعـك الجديـد، ستفهمه بلغتـه، ستنسـابُ مـن حولـك حـروفُ نـوره، سـتتعرف عليـه بوصفـه، سـتطرب لتجـلي معانيـه عـلى ذاتـك.

لا تقلق، فمن يسمعه سيعرف...

- ولكني أعرف عنه بدون أن أسمع منه؟
- أن تعـرف مـا أُخـبرك بـه، هنـاك درجـةٌ تعـرف بهـا عنـه مـا يُحدثـك قلبـك بـه عنـه، وهنـاك مـن يعـرف عنـه بمـا يحدثـه بـه عـن نفسـه...
- وفي أي درجةٍ أنا الآن؟
- أنـت مـن يعـرف وليـس أنـا، لـذا عليـك أن تبحـث عـن معرفتـك لمـن تسـمع، لغـيرك، لقلبـك أم لـه...

كانـت خطواتنـا قـد اخترقـت قلـب المدينـة ووصلنـا عنـد شـاطئ النهـر حيـث وقفـت تتأمـل غـروب الشـمس...

- هل تعلم أني لم أبصر غروب الشمس منذ زمنٍ بعيدٍ؟

لم أستغرب ذلك، ولكني استغربت أنها تشاركني هذه المعلومة...

- وهل اشتقت لرؤية غروب الشمس؟

كانت تنظر شاخصةً للغرب وتهمس:

- لم تغب الشمسُ منذ عرفت نوره، ولكني اشتقتُ لسماع صوت نوره ينير ظلمة العيون...

اعتقدتُ أني قد فهمتُ ما تتحدث عنه..

- صوت نوره يُغني عن رؤية ذلك النور...

- لا يُغني شيء عن شيء في كونه، كل ما يأتي منه له معناه الخاص، ولكن في النهاية كل ما في كونه هو نورٌ لا ينتهي ولا يحدُّه حدٌّ، فلو رأت العيون غروبًا للشمس، تسمع القلوب نورًا يضيء الكون، فلا غياب لنوره...

كانت الشمس قد رحلت لكونٍ آخر ولكني شعرتُ بنور كلماتها يكشف لي نورًا غاب عني من قبل، نورًا سمعته من قبل في كلمات كتابه، ولكني الآن أسمعها في حروف كونه.

حَبِيبَة

كانت مُنى في طريقها إليَّ، كنتُ ما زلت جالسةً في مكاني في انتظارها، لم يرحل ولكنه كما اعتدت من قبل قد اختفى مع علمي بأني سألقاه قريبًا لنكمل القصة...

كنتُ أبحثُ في كلماته عن مكاني في قصته، لا بد أن لي مكانًا، لا بد أن الرؤى التي رأيتها وحديثه وهذا المكان والزمان الذي أنتمي له ولا أنتمي له في الوقت ذاته، لا ريب أن هذه كلها أشياء تربطني بتلك القصة...

ـ كل إنسان ستجدين له ارتباطا بقصة أي إنسان في هذا الكون...

ـ ولكن يا سيد نور كيف يحدث ذلك بدون أن تكون هناك خصوصية لأشخاصٍ مُعينين دونًا عن غيرهم، لو صحَّ ما تقول فلن تكون هناك خصوصية لأحدٍ دون الآخر...

ـ خصوصية كل شخص في قصة الكون هي في جانبه الخاص من تلك القصة والذي يقابله جانبٌ خاص لآخرين ولكن في النهاية ستجدين الجميع مرتبطا بخيطٍ ولو رفيعًا بقصة كل من في الكون غيره. لكل منا كونه الخاص ولكن كل الأكوان مرتبطة بمكونها، وهو واحدٌ وبالتالي كل من في الكون سيتصل بكل من في الكون غيره بدون أن يقلل ذلك من خصوصيته.

ـ أنا هنا إذن لكي أصل لما يربط كوني بكون الشيخ الغريب وفاطمة...

ـ ولم لا تقولين ما يربط كونهم بكونك...

شعرتُ به يبتسم وهو يفاجئي بقوله هذا

ـ ولكن هذا يعني أني هنا لهم وليسوا هنا لي.

ـ لِمَ يجب أن تفكري بشكل إما أو، لِمَ لا يكون الجانبان معًا، أنت لهم وهم لك.

- ولكـن مـن أنـا لـكي أضيـف لهـما؟ حيـاتي ليـس بهـا مـا يرويـه عـن حياتهـما مـن عمـقٍ وتجـارب.

- لا تقـاس الحيـاة بهـذا الشـكل. الحيـاة لا تُقـاس في الأسـاس. يكفـي أنهـا حيـاة، حـين تسـيرُ فاطمـة عـلى شـاطئ النهـر الذيـن تجلسـين عليـه الآن، لا يهـم الزمـان ولا شـكل المـكان، هـي تعيـش في كـونٍ ممتـد مـن قبلهـا ومتصـلٍ لمـا بعدهـا وسـتحتويك ليصلـك بمـا قبلـك لمـا بعـدك، المـكان يعيـشُ ولا يمـوت، فقـط اللحظـات هـي التـي تفصلـك عـن الزمـن الممتـد والمـكان الخالـد، حـين تقفـين مـع اللحظـة بـدون أن تبـصري فيهـا المـكان الظاهـر والباطـن والزمـان المـاضي والمسـتقبل حينهـا سـتفصلك اللحظـة عـن الكـون الممتـد ولـن تكـون الحيـاة حيـة بداخلـك وبالتـالي ستشـعرين بـأن حياتـك بـلا عمـق.

ولكنـك هنـا حيـث هـي لا أقـول كانـت هنـا ولـن أقـول لـو كنـت معهـا سـتكونين هنـا، أنـت وهـي هنـا فقـط لـو أبـصرت حياتـك كـما أبصرتهـا هـي...

- ولكن حياتي تفاصيلها مختلفة..

- ليـس هنـاك اختـلافٌ حقيقـي يـا حبيبـة، هـا هـي ذي مُنـى قادمـة إليـك، أقـترح عليـك أن تمـشي معهـا لتبـصري وتسـمعي الكـون بشـكلٍ مختلـفٍ، حينهـا سـتجدين أنـه ليـس هنـاك اختـلافٌ، كلهـا حيـاةٌ واحـدةٌ ولكننـا نراهـا مختلفـةً ومتعـددةً.

كـما لـو كان مجـيء مُنـى إيذانًـا بذهابـه، لم يعـد غيابـه أو ظهـوره يُحـيرني، كان مـا يشـغلني هـو هـذا الكـم مـن الأحاديـث التـي كنـتُ أسـتمعُ إليهـا، كان السـيد نـور يوجهنـي بحديثـه، والشـيخ الغريـب يُوجهنـي بحديثـه عـن كيـف وجهتـه فاطمـة...

كان الحديـث متصـلًا بطبقاتـه المختلفـة، والآن تجـيء مُنـى التـي لا تـدري عنـي غـير ذاتي التـي كانـت معهـا مـن سـنوات.

مُنـى في تلـك الفـترة مـن حيـاتي كانـت تُوجهنـي بشـكلٍ مـا هـي الأخـرى، كانـت تُسـاعدني عـلى تجـاوز مـا يشـغل ذهنـي، مـا زلـت تلـك الفتـاة ولكـن تعـدد مـن يوجهوننـي.

توقعـت مـن مُنـى أن تقـوم بهـذا الـدور حـين نبـدأ جولتنـا في المدينـة القديمـة، ولكننـي كنـت قـد قـررت أن أقـود معهـا الطريـق هـذه المـرة.

كـما لـو كان بحثـي عـن دور في كل مـا يـدور مـن حـولي (أو بداخـلي) قـد دفعنـي لـكي أخلـق هـذا الـدور مـع الإنسـانة الوحيـدة التـي أعلـم أن لـدي المقـدرة عـلى أن أُظهـر لهـا أني أسـتحق أن أقـود وأن أُوجِّـه.

أعلـم أنـه طلـب منـي أن أسـمع وأبـصر الكـون بشـكلٍ مختلـفٍ، لم أكـن أريـد مـن مُنـى أن تشـعر باختـلافي عـن حبيبـة التـي اعتـادت عليهـا، ولكنـي قـررتُ أني أريـد ولـو للحظـةٍ أن أشـعر بدور فيـما يدور، مـن الصعـب أن تسـتمر في القيـام بـدور المسـتمع طويـلًا، شـعرتُ أني أريـد أن أكـون المتحـدث ولـو حتـى حـين، حتـى يظهـر الشـيخ الغريب أو السـيد نـور، وحـين عزمـت عـلى ذلـك ظهـر آخـر شـخص أتوقعـه، ظهـرت فاطمـة...

مُنى

كانـت حبيبـة تجلـس حيـث أخبرتنـي عنـد بـرج الذهـب بجـوار النهـر، ولكنهـا لم تكـد تـراني قادمـة إلا وقفـزت مـن مكانهـا كـما لـو كانـت قـد رأت شـبحًا مـن ماضيهـا.

كانــت تقــفُ مدهوشــةً تُحــاول أن تنطــق أو تتحــدث لتخــبرني بــشيءٍ لم تكــن تــدري مــا هــو. في البدايــة تــرددت مــن الاقــتراب خوفًـا مـن أن يـؤدي وجـودي إلى انتكاسـةٍ في حالتهـا، كنـت أعـرفُ أن وجــودي يجــب أن يكــون بحــذَرٍ لأنــه قــد يجعلهــا تتذكــر مــا يجـب عليهـا ألا تتذكـره. لهـذا كنـتُ دومًـا أحـاول جاهـدةً أن أعطيهـا إحساسًـا بوجـودي بـدون أن أتدخـل كثـيرًا بالشـكل الـذي قـد يفتـح عليهـا أبوابًـا نحـاول بهـذه الرحلـة أن نجعلهـا دومًـا مغلقـة.

لذا حين رأيت وجهها توترت قليلًا، وأسرعت الخطى وبادرتها بقولي:

- آسـفة تأخـرت قليـلًا ولكـن العامـل في الفنـدق أشـار إليَّ بطريـقٍ أخـذني بعيـدًا عـن مكانـك. ولكـن هأنـذا. أخبرينـي مـن أيـن سـنبدأ جولتنـا؟

حبيبة

كانـت مُنـى التـي تتجـه نحـوي قبـل قليـلٍ، ولكنـي الآن لا أرى سـوى فاطمـة، اختفـت مُنـى مـن أمامـي فجـأة... لا أعلـم كيـف يمكننـي أن أراهـا فاطمـة وأنـا لا أعلـم شـكلها سـوى مـن تلـك اللوحـة عـلى ذلـك الجـدار في غرناطـة، ولكنـي أعلـم أنهـا هـي...

اقتربـت منـي في هدوئهـا الـذي نقلـه لي الشيخ الغريـب في وصفه لهـا، تقدمـت مني وابتسـمت:

- اليـوم أنـتِ مـن سـتقودني في رحلتـي لأبـصر غـروب الشـمس، أخبرينـي، مـن أيـن سـنبدأ؟

مُنى

كانـت دهشـة حبيبـة تتـلاشى بمـرور الوقـت، كانـت خطواتهـا في البدايـة قلقـة، تلتفـت إليَّ مـع كل خطـوةٍ، كـما لـو كانـت تسـألني هـل هـذا الطريـق يُناسـبك، كـما لـو كانـت تتأكـد هـل أنـا راضيـةٌ عـن اختياراتهـا للأماكـن التـي نزورهـا...

كانـت حبيبـة مختلفـةً، أعلـم الآن أنهـا مختلفـةٌ، اختلافهـا بـدأ مـن اللحظـة التـي اختفـت فيهـا عـن ناظـري في عـصر ذلـك اليـوم في غرناطـة، كـدت أن أمـوت فزعًـا ولكنـي تحليـت بصبرٍ غريـبٍ، لا أدري كيـف جـاءني، أردت أن أتصـل بمـن أعـرف أنهـا قـد تتصـل بـه ولكنـي خفـت أن أقلقهـم، لـذا جُبـت شـوارع غرناطـة يومًـا وليلـة بحثًـا عنهـا، ولكنهـا عـادت كـما ذهبـت، فجـأة بـدون مقدمـات.

لم أركـز في سـؤالي لهـا، خوفًـا مـن أن يتحـول السـؤال لبـابٍ يأخذها بعيـدًا عـن الهـدف الـذي جئنـا لـه. لـذا سـكتُّ وقـررتُ أن أتركهـا تحـكي وقـت أن يحلـو لهـا الحديـث.

والآن وهـي تجـوبُ تلـك الشـوارع الضيقـة، لتلـك المدينـة العتيقة، كانـت كمـن يسـير عـلى هـدى مرشـدٍ خـاص بهـا، لا أراه ولكنهـا تبـصره، ولكنهـا مـع ذلـك تحـاول أن ترضينـي، ربمـا تنتظـر منـي

حديثًا لتشجيعها، ولكنها من كانت تتحدث، بل كانت تتحدث مع نفسها أكثر من حديثها معي، كانت تسألني سؤالًا ثم تجيبه قبل أن أحاول حتى أن أستوعب معنى السؤال.

أعلم أنه يجب أن أتذكر كلامها في ذلك اليوم، ولكني كنتُ مأخوذةً بما تفعل وإلى أين تأخذني خطواتها بدون تركيز عميق في كلماتها...

كانت تتحدث عن المعنى، عن الزمن، عن اختلاف المكان، عن الحب، تداخلت كلماتها ومعانيها، ولكني أتذكر شيئًا واحدًا لأنه تكرر بشكلٍ غريبٍ، حتى إني ظننتُ للحظة أنها تُحدث شخصًا آخر غيري.

كانت تُكرر اسم سيدة ما تدعوها فاطمة، وكان صوتها يتسم بالإجلال والتوقير كلما خاطبتها باسمها.

حين اقتربنا من زاوية أحد الأزقة، هتفت بي:

- هنا؟ أليس كذلك؟

لم أدر بما أجيب، ولكني أومأت برأسي مؤيدةً...

مَن هي هذه الفاطمة؟ وما هو هذا المكان؟

حبيبة

كنتُ سعيدةً وقلقةً...

سعيدة لأنها معي، تسير خلفي، أنا من يُرشدها رغم أنها كانت ترشد من هم أفضل مني.

وكنـتُ قلقـةً خوفًـا مـن أن أخذلهـا، خوفًـا مـن ألا أقـوم بحـق السـير أمامهـا.

لـذا كنـتُ كلـما شـعرت بخطـوتي تسـبقُ خطواتهـا الهادئـة أنظـرُ خلفـي لأطمـئن عـلى أني أسـير عـلى خطوتهـا.

كنـتُ أسـتغل فرصـة أني أنظـر إليهـا لأسـألها، كنـت مـا زلـتُ أبحـث عـن دوري في قصتهـا:

- أخبريني هل أنت هنا بحقيقتك أم بمعناك؟

أعلـم أنـك قـد تكونـين فقـط في خيـالي أو أنـك صـورة تسـير في واقعـي، ولكنهـا مـن بنـاء واقعـك كـما رسـمه لي الشـيخ الغريـب.

ليسـت هنـاك حقيقـة إلا مـا نخلقـه بوعينـا، هـذا كلامٌ يُناسـب مـا يُخـبرني بـه السـيد نـور ومـا يُحدثنـي بـه الشـيخ الغريـب عنـك يـا فاطمـة. أجـل أشـعرُ أن وجـودك يجعلنـي أتحـدثُ بألسـنتكم. كل الكـون عـدمٌ ولا يُصبـح حقيقـةً إلا حـين نخلقـه بوعينـا بـه ومعرفتنـا عنـه. أنـتِ عـدمٌ قبـل علمـي بـك، والآن صرت واقعًـا أعلمـه ولهـذا أنـا أراكِ وأبـصرك.

هـل تريـن هـذا الشـارع الضيـق، إنـه يقودنـا لقريـبٍ مـن حجرتـك، أعلـم كيـف أصـل إليهـا، مـن شرح الشـيخ الغريـب يمكننـي ذلـك.

حتـى لـو لم يعـد لهـا وجـودٌ الآن إلا أنهـا موجـودةٌ لعلمـي بهـا، كـما أنـك موجـودة لمعرفتـي بـك.

ولكـن هـذا المعنـى يجعـل كل معلـوم خالـدًا بعـد أن كان معدومًا، أليـس كذلك؟

الزمن اختلف والمكان اختلف ولكنه باقٍ بمعرفتي بك وبما حدث لك في تلك الأماكن وفي ذلك الزمن، الكل متصلٌ بلا نهايةٍ، لأن معرفتي بك نظمت عِقد الماضي بالحاضر للمستقبل، وكشفت ظاهر المكان بنور ما في باطنه من قصصٍ وتفاصيل.

حين أعرفُ عنك فأنا أُبصر وجودك في زمانك ومكانك وأُبصر كونك حاضرًا في كوني، ليس حضور حلول واتحاد، بل حضور شهود...

في تلك اللحظة وصلتْ خطوتي لزاوية ذلك الشارع الضيق فهتف بها:

- هنا؟ أليس كذلك؟

أومأتُ في هدوءٍ بابتسامةٍ تخيلتُ فيها وجه مُنى من جديدٍ...

أنها ليست فاطمة...

ولكني أتحدثُ إلى فاطمة...

شعرتُ بالأرض تدور قليلًا أسفل قدميَّ ولكني تحاملتُ حتى بلغنا ذلك المقهى الصغير، مثله مثل غيره من المقاهي المنتشرة في تلك الحواري الضيقة، وجلستُ على ذلك المقعد الصغير وانتظرت حتى جلست مُنى وطلبت منها أن تحضر لي كوبًا من الماء، وتناولتُ الماء وأنا منتبهةٌ لنظراتها القلقة.

ولكني لم أكن أريد أن أتحدث عنها، لذا نظرتُ إليها مبتسمة:

- هل أعجبتك طريقتي في الإرشاد السياحي في طرقات أشبيلية، يا مُنى؟

مُنى

اطمأننت بعض الشيء حين نادتني باسمي فأسرعتُ أجيبها:

- بالتأكيد يا حبيبة، أنتِ تعلمين كم أستمتع بوقتي معك حتى وإن كان السير في جوٍّ شديد الحرارة مثل هذا الجو.

ابتسمتْ حبيبة وأجابتني بصوتٍ استعاد بعض الثقة:

- الحمد لله، أعتقد أن الجو يحتاج أن نعودَ للفندق لنرتاح من الحر قليلًا.

حمدتُ الله في داخلي لأنها طلبت هذا الطلب:

- هذا اقتراحٌ مثالي. هيا بنا، أعتقد أني سأجدُ طريقًا مختصرًا للفندق من هذا الممر.

حبيبة

سرتُ خلف مُنى هذه المرة وأنا أعلمُ أنها تريد أن تراني في الغرفة مرتاحة في أسرع وقت.

أعتقد أنها تظن أني متعبةٌ، ولا يمكنني أن ألومها، فهذا أقل شيء يُمكن أن تظنه لو رأيت من معك يحدثك كأنك شخصٌ آخر. في الغالب قد يراك مجنونًا ولا يمكنك أن تلومه على ذلك الظن.

لهذا كان اقتراحي أن نعودَ للفندق، حتى أكونَ لوحدي، أحتاج أن أختلي بذاتي قليلًا، لا أريد أن يراني أحدٌ أو يضعني تحت مجهر تقييمه .

هناك أشياء لن يُدركها غيري، ولن يراها غيري إلا جنونًا مني. ولكني أعلم أنها حقيقة، أعلم أني أبصرها، أراها في وجودي.

إني أسمع وأُبصر الكون بشكلٍ مختلفٍ الآن، ليس كما كنت أراه من قبل، لن تفهم مُنى أو تسمع لما أفهمه وأسمعه وأبصره، وليس هذا لأنها تعجز عن ذلك، ولكن لأن ما أعرفه موجودًا في كوني هو ما زال عدمًا في كونها.

أحتاج أن أختلي بكوني، أجلسُ بين مقتنياتي، بين مخلوقاتي، أُحدثها وتُحدثني.

أحتاجُ أن أنام ليبعدَ عني الواقع الذي يمنع عني خيالي الذي يقربني من حقيقة واقعي.

كنتُ ما زلت جالسةً عند سور المدينة ولكن هذه المرة كانت المرأة تجلسُ بجواري، كما أنها ما زالت في مكانها في اللوحة، تسير باتجاه الباب، ولكنها في حلمي الآن تجلس معي، كما لو كانت قد سمحت لي أن أخلقها لنفسي في وجودي الخاص بي.

كانت هذه أول مرة أُحدثها في الحلم:

- أخبريني عن الحب!

أسندت رأسها للسور وهي تنظر لنفسها وللرجل الذي يرنو بنظره إليها وأجابتني:

- الحب خلق من جديد، لا يعرف الموت، إلا لو كان موت سوى من تحب، فالمحب والمحبوب والحب ثالوثٌ لا يموت...

نظرتُ إليها وهي لجواري وإليه ثم إليها وهي في موقعها الأصلي:

- ولهذا ما زلتم خالدين في الكون؟

ـ نحن لا نموت، بفيض الحب صرنا خالدين

ـ أنتِ وهو المُحب والمحبوب، فمن أنا؟

لم تُجبني وهي لجواري ولكن أجابتني وهي واقفةٌ في موقعها في اللوحة وقد أدارت رأسها عنه لتنظر إليَّ:

ـ أنت من أنت؟

وجدتني أنظر للسور الخالي، لم أعد جالسةً في موضعي، ولم تعد هي كذلك، صرتُ فقط متحدثةً من موقعها، كما لو كنتُ أنا هي:

فأجبتُ:

ـ هل أنا أنت؟

بدوتُ كمن أحدِّث نفسي:

ولكني سمعتُ الرجل الجالس يهتف وهو ينظر إليَّ:

ـ أنت من أنت؟

ومرةً أخرى وجدتُ نفسي أنظرُ للمرأة التي تسير بعيدًا عني، أنا الرجل الجالسُ الآن ينظر إليها...

انتبهتُ من نومي على صوتي يهتف:

ـ أنتِ من أنتِ؟

كانت الغرفةُ غارقةً في الظلام، إلا من ضوء الشارع خارجها يتسلل من الشباك الصغير الذي يُطل على تلك الساحة الخلفية.

لم أفتح عينيَّ قبل أن أستطيع استيعاب أين أنا، أنا في غرفتي في الفندق، لقد عُدتُ مع مُنى وأخبرتها أني سأنام قليلًا، ولكن يبدو أني نمتُ أكثر مما قد توقعت.

ولكن السؤال ما زال يُداعب روحي:

من أنا؟

لم أجد في نفسي مقاومةً لرغبتي في القيام لأبحثَ عن إجابةٍ.

كنتُ أعلم أين سأذهب..

لم يقلقني الليل، كانت الساعةُ قد قاربت على الحادية عشرة قبل منتصف الليل، لا ريب أن مُنى نائمةٌ، لن تُحاول أن تحدثني قبل الصباح، حتى وإن لم تجدني، إن لم أعد قبل الصباح سأرسلُ إليها رسالةً لتطمئن عليَّ.

الآن أنا في طريقي لأقابله..

هناك حيث بدأت قصته...

كان حيث توقعته، أو حيث أرادني هو أن أجده، حيث أشرتُ على فاطمة هذا الصباح، حيث كانت حجرتها.

كنتُ أشعرُ أني أعلم الآن ما يجعلني أسألُ ما يزيدني علمًا بما في كوني فأخلق من العدم وجودًا جديدًا معلومًا...

ولكني كنتُ أريدُ أن أعرف عنه، كنتُ أشعرُ أن علمي بكونه سيخلق لي علمًا بكوني، لذا حين وجدته جالسًا بجوار بابٍ قديمٍ، من تلك الأبواب التي مرَّ عليها الزمنُ وترك في كل نتوءٍ فيه أثرًا لكل يوم مرَّ به. كان البابُ يحكي لو كان يتكلم بحديثٍ يغني

عـن حديـث الشـيخ، فظاهـره للكـون الممتـد ولكـن باطنـه يحفـظ أسرار مـن أُغلـق عليـه.

للأبـوابِ قيمـةٌ بمـا تحفظـه مـن أسرارٍ خلفهـا حـين تغلـق الكـون بعيـدًا عمـن طلـب حمايتهـا. وهـذا البـابُ خلفـه ليسـت كنـوزًا مخفيـةً ولكـن خلفـه معـانٍ لم يطلـع عليهـا إلا مـن خلقهـا في قلـب مـن علـم بحبهـا لـه.

لم أكـن أبحـثُ عـن تلـك الأسرار، لم أكـن أريـد فتـح ذلـك البـاب، كان الشـيخ الغريـب بـابي لتلـك المعـاني، ولكـن كذلـك البـواب، مـن يسـمح لي بالدخـول في الوقـت وبالكيـف الـذي يـراه.

لم أكـنْ في عجلـةٍ مـن أمـري، عـلى العكـس تمامًـا كنـتُ مسـتمتعةً بهـذه الرحلـة، كنـتُ فقـط أريـدُ أن أعـرفَ المزيـد، اتسـعت شـهيتي لمعرفـة المزيـد، لـذا بادرتـه...

- أخبرني عن الحب!

رفع رأسه قليلًا كعادته وابتسم على غير عادته:

- أنتِ مُحَمَّلةٌ بالأسئلة، أشعرُ بك لا تريدين فقط أن تصغي.

أخجلتني ملاحظته فطرقت النظر للأرض قليلًا:

- أريـد أن تحـكي بمـا يُجيـب عـن سـؤالي. كنـت في لوحتـك منـذ قليـلٍ ولم أجـد إجابـةً، بـل وجـدتُ نفـسي في حـيرةٍ، أريـد أن أعـرف مـن أنـا.

- لماذا تريدين أن تعرفي من أنت؟

- معرفتـي بـك وبفاطمـة جعلتكـم وجـودًا بعـد أن كنتـم لي عدمًـا، الآن أريـد أن يصـيرَ لي وجـود بمعرفتـي بـذاتي، أخـشى أن أظـل عدمًـا لنفـسي.

أشار إليَّ بالجلوس وهو يُحدثني:

- ولماذا إذن تسألين عن الحب؟

- في حلمـي بـدأتُ بسـؤالي عـن الحـب وكانـت النتيجـة أني أردتُ أن أعـرف مـن أنـا. لم أصـل لإجابـةٍ، فظننـت أنـك ستسـاعدني.

صمت قليلًا ثم أجاب:

- أعلـم أن هـذا البـاب قـد جـذب نظـرك، ولكـن هـل تعلمـين قصـة هـذا البـاب؟

في عـالمٍ آخـر كنـتُ لأجيبـه ومـا علاقـة هـذا البـاب بالحـب، ولكني الآن صرتُ متقبلـةً لعلاقـة كل شيء بـكل شيء بـدون اختلال أي شيء.

- أعلم أن خلفه قصة حب جميلة.

- لا يا حبيبة، هذا الباب هو الحب ذاته.

- كيف هذا؟

الشيخ الغريب

أحببتها وأحببتُ قربها،

ولكنها لم تكن لأحدٍ،

كانت للأحد،

لذا كانت للكل،

حين كشف لي معنى حبها منعتُ نفسي عن الدخول واكتفيتُ بالوقوف على بابها دليلًا على القبول...

كان الكل يأتي ليدخل ثم يذهب حين يكتشف أنه ليس له أن يمكث أكثر مما يستطيع، ولم يكن لهم أن يستطيعوا، ولكني كنتُ وحدي الموجود بلا ذهاب، لأني التزمتُ الباب، أدخل حين يأذن لي، وأعود عند الأعتاب حين ترغبُ في غلق الباب...

لا يمكنك أن تدَّعي الحب ولا تلتزم بآدابه..

- ولأن الحب ليس حبًّا واحدًا ولكنه يختلفُ باختلاف كل محب، بل يختلفُ باختلاف لحظة الحب لكل مُحب، لذا فآداب الحب من الصعب ذكرها وشرحها، بل عليك أن تعيشها، لتتعرفَ عليها، لحظةً بعد أخرى ستعرف ما يزيدك علمًا وبالتالي يزيدك حبًّا.

كانت تتحدثُ عن الحب لقلبي أو هكذا شعرتُ في ذلك اليوم، كانت تجلسُ في مجلسها وتلقي درسَها للحضور الذين ضاق بهم المجلس لذا كنت جالسًا في موضعي بجوار الباب بالخارج، بدون أن أراها ولكني مستمعٌ لها كما لو كنتُ وحدي الجالس معها.

سمعتُ أحدهم يسأل:

- ولكن أليس الحب بهذا المعنى الخالي من القواعد يتحوَّل لحالةٍ انسيابيةٍ بدون قدرةٍ على تأصيلها أو إحكام قواعدها وبالتالي لا يمكن تعميمُه على الجميع؟

وأضاف ثانٍ:

- الحب هكذا لا يمكن أن يكون وسيلةً للوصول لعبادة الله بشكلٍ جماعي، لا يمكن أن يتحول لسلوكٍ ديني شرعي.

لم تجب سريعًا، ولكن بدا عليها أنها لم تكن مستغربة المنطق الذي يتحدثون به، كنتُ أعلم كيف أنها مثل غيرها ممن يتحدثون بما تتحدث به يواجهون نقدًا مستترًا في بعض الأحيان وعلنًا في أحيانٍ أخرى، من رجالٍ يروون ما تقوله يسهم في تقليل ما لمفهوم الدين عندهم من سلطة وقوة...

كانت دومًا تقول لي، لا تسع نحوهم بما علمت، من سيُكشف عنه حجابه سيأتيك، حينها سيكونك علمك علمًا له، ولكن إن سعيت نحوه وهو غير مستعد، فسيكون علمك له مجرد حججٍ وأدلة، وسيراه بعقله ولن يبصره بروحه. لا تسع إليهم، أرواحهم ستأتيك حين يفتح لها الباب.

لذا حين سألها من سألها تلك الأسئلة كنت أعرفُ أنها كانت في انتظارهم، ليس لأنها تسعد بمن ينتقدها، ولكن لأنها تعرف أنهم لم يأتوها إلا لتأخذهم معها إلى حيث أتت هي.

- الحب ليس بحالةٍ تنتهي ولا هو بنزوةٍ تختفي ولا بجذوةٍ تنطفي ولكنه وجودٌ، حين يُدرَك يصطفي ويحتفي ...

حين تُحب ستجد الطريق إليه يأخذك إليه، ستسير بسيره وتسعى بسعيه وترتاح براحته وتسعد بسعادته، سيصير السير هو المصير...

في طريـق الحـب، سـتصبح كل خطـوة صـلاةً وكل لحظـة صمـت صومًـا، وكل دقـة قلـب زكاةً، وكل مشـقة حجًّـا، وكل همسـة شـوق شـهادة توحيـد...

حـين تُحـب قربـه، سـيخلق لـك قواعـد لكيـف تُحبـه، هـو مصـدرُ كل شيء، وخالـقُ كل شيء، فلـن تتعـددَ الجهـة وإن تعـددت الطـرق.

هل تؤمن أن الشرع وقواعده مصدره هو الله؟

انتبه السائل وارتبك قليلًا، ثم أجاب:

- بالتأكيد نعم.

- هل تؤمن أن كل شيء في الكون مصدره الله؟

كما لو كانت الشجاعة قد عادت للرجل، فأجاب:

- بالتأكيد كل ما في الكون خلقه الله.

ابتسمتْ

- إذن فالحب خلقه الله، أليس كذلك؟

عاد للرجل ارتباكه من جديدٍ، وأجاب في تردد:

- أعتقد كذلك..

- إذن يـا ولـدي لا تخـش مـما خلقـه اللـه، فـما مـن شيء إلا وهـو بـه جميـل، ولا شيء سـيأخذك إليـه جـمال خلقـه إلا وفيـه الخـير.

تعـدد وانسـيابية الحـب مـن شـخصٍ للآخـر ليـس إلا دليـلًا عـلى أن خالـق الحـب هـو اللـه، فلـو ثبـت الحـب وصـار محـددًا لمـا كان طبيعيًّـا، طبيعـة الإنسـان تفـرض تعـدده وتنوعـه وكثرتـه، تلـك الكـثرة

التـي هـي عـين وحـدة مـن خلقهـا دليـل عـلى أن خالقهـا واحـدٌ لا مثيـل لـه. كلٌّ يسـعى إلى الواحـد بطـرقٍ متعـددةٍ بتعددهـم وهـو مـع كل واحـد بمـا هـو مخلـوق لـه بـدون أن ينقـص منـه شيء...

هـذه حقيقـة الشريعـة، ظاهـر الأمـر فـروضٌ متسـاويةٌ للجميـع ولكـن في حقيقتـه هـي تتفـاوت بتفـاوت مـن يقـوم بهـا، وهـو بالحب تتسـاوى عنـده في أثرهـا...

- كيف ذلك؟

- لـو اقتـصر الأمـر عـلى الفرائـض لكنـا جميعًـا مُقصريـن، كنـا سـنتفاوت في تقصيرنـا. ولكـن لأنـه خلـق الحـب لنعرفـه بـه، فتفـاوتُ تقصيرِنـا في الظاهـر ليـس هـو الحقيقـة، ولكـن حقيقتـه أننـا جميعًـا نسـعى لـه كلٌّ بطريقتـه، وبالتـالي هـو يتقبـل كلًّا منـا عـلى قدرتـه وقـدره وتفاوتـه مـا دام هنـاك الحـب. فالـكل في الحقيقـة عنـده متسـاوون بسـعيهم بالحـب، حتـى وإن تفاوتـوا في الظاهـر.

كلنـا منـه متسـاوون وإن تفاوتنـا في الظاهـر، فالحـب يجمـعُ مـا بيننـا ولا يُفرقنـا أو يُقلـل مـن وحـدة البـشر، هـو يُوحـد الكـون كلـه بالحـب لـه وليـس فقـط مـن يسـجدون أو يعبدونـه بالديـن.

لم أكن محتاجًا لأسمع بقية كلامها...

ليـس لأني أعلمـه، بـل لأني شـعرتُ أني أريـد أن أقـترب منهـا بعيـدًا عمـن هـم قريبـين منهـا...

شـعرتُ فجـأةً برغبـةٍ في أن أنفـردَ بمـا شـعرتُ بـه وحـدي بعيـدًا عـن الكـون. كنـتُ أشـعرُ بالحـب.

أجل أشعرُ بالحب...

ولكنها كانت أول مرةٍ أشعرُ بحبي لها...

كانت هي طريقي لحبي له...

كان حديثُها يفتح بداخلي بابًا جديدًا في طريق حبي.

كنـتُ أجلـسُ أمـام البـاب لا أسـعى للدخـول، ولكـن معانيهـا دعتنـي للدخـول...

دخلتُ كونَها لأعرف كونه...

طلبـتُ منـه أن يوصلنـي لما لم يصـل إليـه غـيري في وجـوده، فحـين اقتربـت منـه فنيـت عـن ذاتي وتركـت كل مـا يعرفنـي الكـون بـه لأكـون كونـًا جديـدًا لـه وحـده، وحـده يعرفنـي بـه...

حـين تقـترب مـن مجهـولٍ تعشـقه فأنـت تقـترب بمعرفـة مـا تكشَّـف لـك، ولكـن تواضعـك يجعلـك تعـرفُ أنـك في القـرب سـتعرفُ جديـدًا وأنـك لم تكـن تعـرف شـيئًا..

لذا كان يجب عليَّ أن أبعد لأقترب...

قمـتُ مـن موضعـي وأسرعـتُ محتضنـًا شـعوري وبعـدتُ بـه لـكي أفهمـه منـه. كان القـربُ يكشـف ولكنـه يمنـع أن أعـرف، فانطلقـتُ بعيـدًا لـكي يكـون للقـرب معنـى أوضـح...

حَبيبة

نظرتُ إليه وقد بدا على وجهه التأثر...

ـ هل هذا البُعد هو نهاية قصة حبك؟

ـ ليس في الحب نهاية ولا نقطة وصول، فكل لحظةٍ تتلوها لحظةٌ هي عند المُحب الصادق حياة يتلوها حياة جديدة مُغايرة تمامًا...

حين اقتربتُ منها لم أكن أعلم ذلك عن نفسي، لم أكن أعلمُ أني قادرٌ على أن أخلق كونًا جديدًا في كل لحظةٍ بحبي لها...

لا تفهميني خطأ، لا أقصد أني أحببتها، أقصدُ بحبي له بتجليه من خلالها... أو ربما حبي لها الذي قرَّبني من حبي له...

لستُ أدري...

ـ حيَّرتني أيها الشيخ الغريب..

رفع رأسه في هدوءٍ ونظر إليَّ بدون أن يفتح عينيه:

ـ وهل في الحب الصادق إلا يقين الحيرة...

حين تحب فأنت تعرف جديدًا ينفي ما كنت تعرف من قبل أو يكمله ولكنه في النهاية يضيف لك...

فحقيقة الحب معرفة وحقيقة المعرفة يقين بأنك لم كنت تعرف أو أنه لا نهاية لما ستعرفه وهذا هو عين الحيرة...

من لم يتحير في معرفة حبه لم يُحب.

تركته في صمته، كنت أعلم أنه يريد أن يُكمل قصته...

الشيخ الغريب

مـرَّت عـليَّ معهـا سـنوات، في كل يـوم كنـتُ أعـرفُ عنـه جديـدًا بمعرفتـي بهـا...

كانـت تُدنينـي منهـا وهـي تدنـو منـه، فدومًـا كانـت هـي بينـي وبينـه عـلى مسـافةٍ واحـدةٍ...

ليـس القـرب منـه قـرب رغبـة أو إرادة، أنـت لا تريـد القـرب ولكـن القـرب يريـدك...

"أنـت مخلـوق في القـرب، ولكـن حجـاب الكـون حجبـك في البعـد، فتوهمـت أنـك بعيـدٌ عنـه ولكنـك في قربـه بـدون أن تعـرف، وحـين تبـدأ في معرفـة مكانـك منـه بتعرفـك عليـه، سـتبصر كيـف أن كل شيء هـو مظهـر قربـه"

توقفت قليلًا عن الحديث لترى وقعه عليَّ، فأسرعتُ بسؤالي:

- كيف ذلك؟

- كل شيء، أي شيء، أفعالـك، أفـكارك، خواطـر قلبـك، سـكنات روحـك، جمـوح مشـاعرك... كل هـذا منـه وبإرادتـه وبخلقـه لـه، أنـت مظهـر لـه، ولكـن حقيقتـه منـه.

- هكذا؟

- أجل هكذا.

- ولكنـك تجعلـين قربـه بسـيطًا في إدراكـه، فلـماذا إذن لا يدركـه الجميـع؟

- أجـل هـو بسـيط ولكنـه ليـس بسـهل... مـن شـدة القـرب احتجـب عـن إدراكـه مـن أبـصر ظـل نـوره ولم يقـو عـلى رؤيـة ذات النـور.

- كل مظاهر كوني هي ظل نوره، أليس كذلك؟

- نعـم، بسـيط أن تـدرك أنـه قريـبٌ في حـروفي التـي أُحدثـك بهـا الآن، أنـه قريـبٌ في إحساسـك بقربـه بمـا تسـمعه منـي عنـه، قريـبٌ في خفقـات قلبـك حـين تشـعر بـه ينبـض بهـا، قريـبٌ حـين تغمـض عينيْـك وتجدهـما تغلقـان عـلى نـورٍ أبـصرت قربـه داخلهـما بـه...

ولكـن ليـس مـن السـهل عـلى الجميـع أن يبـصر ذاتـه في قـرب لأنـه محجـوب بظـن البُعـد الـذي يسـبق القـرب...

كانـت خطواتنـا تتهـادى في تلـك الليلـة وكان القمـر قـد اكتمـل تمامـه وبـدأ في نقصانـه، ولكـن لا يـزال يُلقـي بنـوره يكشـف طريقنـا...

- ولماذا ترين البُعد ظنًّا؟

- البُعـد ليـس حقيقـة، الحقيقـة هـو معكـم أينـما كنتـم، الحقيقـة فأينـما تُولـوا فثـمَّ وجهـه، الحقيقـة هـو أقـرب مـن حبـل الوريـد...

ولكـن لأنَّـا لا نرغـب في القـرب، نخلـق ظـن البُعـد الـذي يجـب أن نجتـازه لنصـل للقـرب، هـذا الظـن يُريـح مـن لا يستشـعر حقيقـة القـرب، فيخـبر ذاتـه أنـه يسـعى ولكـن الطريـق طويـلٌ وبعيـدٌ ومرهـقٌ، فيسـتغرق في طريـقٍ متوهـمٍ ولا يسـتغرق في قـربٍ مُتحقق...

- ولكـن أهـل الحقيقـة يتحدثـون عـن الطريـق إليـه، فالطريـقُ يتطلـب مسـافةً بـين موضعـين فيتضمـن مفهـوم البُعـد...

توقفت ثـم نظـرت إليَّ وأدنتني مـن وجودهـا بعينيْهـا، ثـم نظرتْ في عينيَّ وهمسـت...

ـ هل تشعر بالقرب مني؟

كانت قد أخذتني بالمفاجأة فتلعثمتُ قليلًا قبل أن أجيب:

ـ نعم أشعر بقربك مني.

هزَّت رأسها في هدوءٍ بدون أن تبعد عينيْها عني:

ـ ليس قربي منك، قربك مني...

هل تشعر بالقرب مني؟

حاولـتُ أن أغلـق عينـيَّ لأسـتطيع التركيـز لأجيـب، ولكنـي وجـدتُ هـدوءًا عجيبًـا يحتوينـي بنظرتهـا لعيوني فهمسـت:

ـ لا، فقط أشعر بقربك مني ولكني لا أشعرُ أني قريبٌ منك.

استدارت وبدأت في السير وأنا أتبعها:

ـ صدقت، ولو قلت غير هذا لكنت غير صادقٍ مع ذاتك...

هـذا هـو الحـال معـه، هـو قريـبٌ منـا ولكنـا مـا شـعرنا إلا بأنَّـا غـير قريبـين منـه، طريـق القـرب منـه ليـس لـكي نقـترب مـن بعيـدٍ ولكـن لنتحقـق مـن قـرب القريـب....

هـل أدركـت الفـرق، مـا يقصـده أهـل الحقيقـة هـو طريـق القرب في إدراكك لقربـه منـك. لا أن تقـترب مـن بعيـدٍ ولكـن أن تقـترب مـن معرفـة أنـه قريـب. قـرب معرفـة لا قـرب وجـود.

حين تتعرفُ على قربه ستجد أنك تريد أنت بذاتك أن تقترب أكثر، فهو في قربه يجذبك لتقتربَ أكثر لأنه بلا نهاية، الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، فتسعى للمزيد من قربك منه لتحاولَ تحقيق كمال قربه منك...

توقفت عند كلماتها لأسألها:

- لهذا حين أشعرُ بقربي منك أشعرُ بقربي منه؟ وكلما زاد قربي منك زاد شعوري بقربي منه؟

لم تتوقف عن السير، ولكني شعرتُ بوجهها يتألم...

لم أفهم وقتها معنى ألمها، لم يكن من السهل عليَّ لحظتها أن أدرك ما كُشف لها، أو ما كشفه سؤالي لها...

ولكنها أكملت حديثها بدون أن يبدو في صوتها ذلك الألم الذي شعرت به. كنت أعلم أنها تعلم أني أشعر بما تشعر به، ربما لأنها تعلم ما يخلقه القرب من تجالس للأرواح فيصبح حديث كل روح للكون هو حديث لكل من اقترب من حضرة مجلسها، فينكشف لكل روح قريبة ما استكن في أرواح من سمحت لها بالقرب...

- حين تقترب ممن خلق فأنت تقترب منه، ولكن حين يقترب مَن قرَّبك منه فهو لا يُدنيك بدرجته ولكن أنت من تدنو بدرجتك...

- أعتقد أني بحاجةٍ لشرح لكي أفهم مكاني...

مرةً أخرى شعرتُ بألم في داخلها بدون أن يبدو على ظاهرها، ولكنها أكملت حديثها:

- حين تقترب مني فأنا منه وبالتالي أنت تقترب منه، ولكنك تقترب بدرجة قربك معه وليس بدرجة قربي منه، قربك مني لا يُعطيك من قربي منه، قربي خاص بي ولا ينتقل لك لأنك اقتربت منه بقربك مني...

- ولكن أليس قربي ممن هو أقرب له يجعلني أكثر قُربًا منه؟

- أكثر قربًا لدرجتك ولكن ليس بدرجتي....

فهمت ما تُخبرني به ولكني أردت أن أفهم عني وعنها أكثر...

كان القربُ منها متعةً خاصةً، لم تكن متعةً تعميني عن متعة من هو عين القرب، ولكني كنت أعلم أني أريد منها أن تخبرني عني وعنها، أعلم أن سؤالي قد يكون خطأ ولكني لا أريد الصواب، أريد فقط أن أعرف....

حبيبة

نظرتُ إليه وأنا مندهشةٌ من صوته، كما لو كان قد عاد طفلًا منبهرًا بإحساس أنه على أبواب معرفة جديدة...

فهتفت به:

- ما هو الذي تريد أن تعرفه بهذه النشوة الجزلة؟

نظر إليَّ بعينيْن تلمعان بدموع ذكرى شيقة ولكن بابتسامة سعادة التذكر:

- أريد أن أعرف حقيقة حبي لها....

قمتُ فزعةً كما لو كان قد ألقاني في النهر وأنا أهتف:

- حبك لها!!!!!

كنتُ أحسبك تحكي قصة حبك له....

لم يبد عليه الاندهاش من سؤالي حيث أجاب بهدوءٍ أكثر من هدوئه المعتاد...

- وما حبي لها إلا قصة حبي له، وما قصة حبي له إلا قصة حبي لها....

انتهى من جملته وقام وأشار إليَّ أن أنتظر...

كان يريد أن ينفرد بذاته، وكنت كذلك أريد أن أنفرد بذاتي....

كان كلٌّ منا يريد وقتًا في قربنا لا نسعى لقرب أكثر ولكن نكتفي بما نحن فيه من قرب انتظارًا لمعرفة جديدة تزيدنا قربًا.

كنتُ قد بدأت أفهم قولها، ليس هناك بُعد، فقط قُرب وما يلي إدراك القرب من زيادة في القرب، ولكني أعرف أنه يحتاج هذا الوقت وحده، لم أكن أعرف أين يختفي ولأين يذهب، فكرت مرة أن أتبعه ولكن في النهاية توقفت لأنه ليس هناك فائدة من معرفتي لأين سيذهب، الفائدة في وجوده حين يعود وبالتالي يجب ألا أشغل بالي الآن...

الآن يجب أن أجد مُنى...

أحتاج أنا أيضًا أن أعرف عن حُبي.....

بك أَعرِف

وبك أُعَرِّف

وبك أُعرَف

سمعت تلك الكلمات وشعرتُ بالسيد نور يهمسُ بها بداخلي كما لو كان يريد مني أن أهمس بها لكوني.

فهمستُ له:

ـ هل هذا ما تريد مني أن أقول؟

ـ لا أريد منك أن تقولي شيئًا، أريد من القول أن يريدك أن تقوليه.

ـ أن أشعر به فأهتف به كما لو كان قولي؟

ـ أن تشعري بالقول يشعر بك.

ـ كيف ذلك؟

ـ الكون يتحدث والوجود حروفٌ مكتوبةٌ لنا لنتحدث بها، الحروف حين تُصاغ في كلماتٍ تعرج في وجوده وتُحاول الوصول للملكوت الأعلى، ولكن من يصل هو الكلم الطيب، وتبقى بقية الكلمات مُعلقة في الفضاء، لا يراها إلا من يُبصر.

ـ تنتظرنا الكلمات والحروف لكي نهتف بها ولكننا لن نهتف بها إلا حين نشعر برغبتها فينا.

ـ وهل الكون يريدنا ويرغب فينا؟

ـ الوجود موجودٌ في العلم قبل أن يوجد في علمك، وهو موجودٌ لك، يرغب فيك لكي تعلمي به وحين تعلمين به ستنطقين بحروفه.

ـ كما نطقت بها فاطمة؟

ـ فاطمـة عرفـت رغبتـه في أن يُعـرف بوجودهـا فحـين عرفـت نطقـت بوجـوده.

ـ أشـعر أني أريـد أن أعـرف أكـثر عـن وجـودي قبـل تلـك اللحظـة، أعـرف مـا لم أسـمع منـه مـن قبـل وأنطـق بحـروفٍ لم أعـرف أنهـا موجـودةٌ مـن قبـل.

ـ لهذا تريدين أن تجدي مُنى؟

ـ أجـل أشـعرُ أنهـا ستسـاعدني عـلى معرفـة تلـك الكلـمات، لقـد كانــت معــي مــن قبــل. وأعلــم الآن أني يجــب أن أفهــم ذاتي الســابقة عــلى هــذه اللحظــة قبــل أن يُكمــل الشــيخ الغريــب قصتـه، أشـعرُ أن قصتـه سـتحتوي مـا لـن أفهمـه قبـل أن أفهـم ذاتي قبــل الآن. أشــعر أني الآن مســتعدةٌ أن أفهــم وأعــرف.

ـ إذن اذهبي إليها، هي في انتظارك...

مُنى

كانـت مُنـى قـد انتهـت مـن موعدهـا، لم يكـن هنـاك جديـدٌ غـير أنهـا يجـب أن تقـرر في أسرع وقـت...

دلفـت إلى سـيارتها وهـي لا تـدري إلى أيـن تذهـب. كان اليـوم لم ينتصـف بعـد، ولكنهـا تشـعر أنهـا تحتـاج الليـل سريعًـا.

لم تكـن تتوقـع أن تصـل لنتيجـةٍ جديـدةٍ أو أن يحـدث مـا يكشـفُ لهـا عـن أمـرٍ يُعطيهـا أمـلًا أو عـلى الأقـل يُحافـظ عـلى مـا تبقّـى لديهـا مـن أمـل.

لم تكـن تتوقـع شـيئًا مـن ذلـك، ولكنهـا كانـت تنتظـرُ شـيئًا يأخذهـا بعيـدًا عـن تلـك الدوامـة، تنتظـر سـببًا يجعلهـا تبتعـد عـن وجودهـا في فلـك حبيبـة، الـذي تـدور فيـه منـذ ذلـك اليـوم.

تعلـم أنهـا هـي مـن قـررت أن تلتـزمَ بوجودهـا بـدون أن تُحـاول أن تدفـع بنفسـها خـارج ذلـك الإطـار. في الحقيقـة هـي مـن سـعتْ نحـو أن تلتـزم بوجودهـا بجـوار حبيبـة، وكيـف لا وهـي من اكتشـفت مـا حـدث لهـا، هـي مـن وثـق بهـا الكـون وبـاح لهـا باحتيـاج حبيبـة إليهـا، حتـى وإن لم تشـعر بأنهـا تحتـاج لعـون مُنـى.

كانـت مُنـى تريـد ليـلًا لتهـرب إليـه بعيـدًا عـن نـور الحقيقـة التـي تراهـا سـاطعةً أمامهـا. أو هكـذا ظنـت.

كانـت تخـشى الفـراق، وحـين جاءتهـا حبيبـة في ذلـك اليـوم البعيـد لتكشـف لهـا عـن مكنـون قلبهـا، اكتشـفت مُنـى أنهـا سـتفقد حبيبـة كـما فقدتـه مـن قبـل.

هـو قـد رحـل بجسـده ولكـن حبيبـة سـترحل بعقلهـا وإن بقـى جسـدها...

كانـت مـا زالـت جالسـةً في سـيارتها، ولكـن حـرارة الجـو التـي بـدأت تـزدادُ داخـل السـيارة المُغلقـة دفعتهـا لـكي تفكـر سريعًـا في مـكان تلجـأ إليـه بأفكارهـا.

كـما لـو كان النهـارُ بشمسـه وحرارتـه يدفعهـا دفعًـا للهـروب، ولكنهـا تعبـت مـن الهـروب باللافعـل، كل يـوم تريـد أن تفعـل شـيئًا تهـربُ بـه هروبًـا حقيقيًّـا مـن هـذه الدائـرة التـي أغلقتهـا عـلى نفسـها، ولكنهـا تكتفـي بهـروبٍ وهمـي كالفقاعـة، تختفـي بداخلهـا،

تبصرُ من خلالها الكون ولكنها لا تتفاعل معه، وتقنع نفسها أنها في الكون.

الأمرُ يحتاج منها قدرةً على الخروج ولكنها تكتفي بقدرتها على أن توهم نفسها أن لديها القدرة، ولم لا أليست فيما تفعله تحافظ على صديقة عمرها؟

ألم تتعهد لها في ذلك اليوم أن تحفظ سرها؟ ولقد حفظته بحفظها لصاحبة السر حتى وإن باحت به. حتى لو ظن من لا يعرف أنها قد تسببت فيما تواجهه حبيبة الآن، إلا أنها في النهاية تُحافظ عليها ذاتها وليس فقط ما توهمته حبيبة أنه سرٌّ لا يجب البوح به.

لم تكن مُنى تسعى يومًا لتكون إنسانًا مختلفًا عما توقعته لنفسها وهي تبدأ خطواتها الأولى في الحياة. كانت ترى نفسها مجتهدةً ومخلصةً وصادقةً مع نفسها، لذا فكل تصرفاتها كانت قائمةً على هذه القناعة الذاتية بما هي عليه أو بما يجب أن تكون عليه. لم تكن تريد يومًا ما أن تسعى لتكون غير ما توقعت لنفسها، حتى وإن لم تجد في أقوال من حولها ما يؤكد قناعتها الذاتية، كانت تلجأ لتوقعاتها الخاصة وتكتفي بها دليلًا على أنها تسيرُ وفق ما تؤمن به.

لذا حين جاءتها حبيبة في تلك الليلة، لم يكن يحتاجُ الأمر منها لتفكيرٍ كثيرٍ، لم تتعب نفسها في محاولة البحث عن سلوكٍ مخالفٍ لما تتوقعه من نفسها أن تفعله.

حبيبة

لم تكن مُنى تحب الليل، وكانت دومًا تنتظر النهار لتجد فيه نشاطها. كان الليل بالنسبة لها ظلامًا يجب النوم فيه.

"الليل للنوم حتى نستيقظ في النهار".

كانت هكذا تُخبرني كل ليلة حين أطلب منها أن نخرج أو أن نسهر لنفعل شيئًا مختلفًا. لذا حين فرغتُ من حديث الشيخ الغريب كنت أعرف أن أمامي وقتًا قليلًا قبل أن تأوى مُنى لفراشها.

كنتُ أعلم أين سأجدها، كانت قد طلبت مني أن نُجرب ذلك المطعم الذي يطل على النهر والذي رشحه لها أحد أصحاب المحال المُحيطة بالقصر الكبير.

- لقد أكد لي أنه أفضل مكان يمكن أن نأكل فيه البايلا الشهيرة بالسمك.

- ولكننا حسب ما أتذكر لا نأكل شيئًا إلا البايلا من يوم أن وصلنا إلى إسبانيا.

أجبتها ضاحكةً في صباح ذلك اليوم، قبل أن أنطلق للقاء الشيخ الغريب وتنطلق هي في جولتها.

- أعلم، أعلم... ولكن لا تنكري أن لكل طبق مذاقًا مختلفًا من مدينةٍ لأخرى ومن مطعم لآخر، حتى وإن تشابهت المسميات.

قالتها وهي تنظر بعيدًا خوفًا من المواجهة. ولم أكن وقتها في وضعٍ يريد المواجهة، كنتُ أريد أن أُسرع لموعدي:

- حسنًا يا عزيزتي، أرسلي لي موقع المطعم وسأكون هناك في السابعة بالدقيقة.

ابتسمتْ وهي تستدير لتواجهني، ثم بدا كما لو كانت تستغل إحساسها بموافقتي لها لكي تسأل:

- شكرًا، لن تندمي.. ولكن ألن تخبريني إلى أين ستذهبين وتتركيني لأستكمل اكتشاف المدينة وحدي؟ هذا آخر يوم لنا هنا بأشبيلية، ما هو هذا الشيء المهم الذي غيَّر لنا ما اتفقنا على فعله في الرحلة.

كنتُ أعرفُ أنها ستسأل، ولذا كانت إجابتي جاهزةً، فابتسمتُ وأنا أجيبها:

- سأخبرك، ولكن ليس الآن.

- متى إذن....

هأنذا متوجهة لكي أخبرك الآن...

لم أكن أعرف بالتحديد ما الذي سأخبرها به، ولكني حين تركت العامل بالمطعم يقودني لحيث تنتظرني مُنى عرفت أني سأخبرها بما يكشف لها حقيقة ما أنا فيه الآن، أنا لستُ حبيبة التي تعرفها، أنا حبيبة التي تحتاج أن تعرف ذاتها قبل أن تُعرِّف ذاتها لها.

وهكذا حين جلست بدأتها بقولي:

ـ مُنـى، سـأعترفُ لـك بـشيء قـد يجعلـك تظنـين أني مجنونـة، ولـن ألومـك، ولكنـي أحتـاجُ أن أحـكي لـك، لأني أحتـاج منـك أن تساعديني عـلى فهـم حقيقـة مـا حـدث لي، مـا حـدث لنـا كان شـيئًا صعبًـا، لم يكـن أي منـا يتوقعـه، ولأنـه حـدث فجـأة فـما نـزال مرتبطـين بـه لنحـاولَ أن نفهـم السـبب والنتيجـة والأثـر، ولكنـي أعلـم الآن أنـه لم يكـن بـلا هـدفٍ، ربمـا يمكننـي الآن أن أصارحـك بـأني أعتقـد أن الهـدف منـه هـو أن يحررنـا لـكي نكتشـف جديـدًا... أعلـم أن كلامـي صعـبٌ عليـك، ولكـن خـلال الأيـام الماضيـة تعرَّفـت عـلى حيـاةٍ جديـدةٍ لم أكـن أعرفهـا عـن ذاتي، تعرَّفـت عـلى زمـنٍ لا محـدودٍ يُمكننـي أن أنتقـلَ فيـه بـدون أن يوقفنـي شيء، فقـط إن تعلقـت بمعنـى صادق واحـدٍ، يمكننـي أن أعيشـه مـرةً أخـرى كـما لـو كنـتُ قـد عُـدت في الزمـن....

توقفـت عـن الحديـث فجـأةً كـما بدأتـه فجـأة. كنـتُ أريـد أن أرى وقعـه عليها. لـذا انتظـرت لحظـاتٍ بـدت بـلا نهايـةٍ قبـل أن تبـدأ مُنـى في اسـتعادة صوتهـا وتتحـدث:

ـ هـل أنـت مريضـةٌ يـا حبيبـة، لمـاذا تتحدثـين كـما لـو كنـتِ مـن عـالمٍ آخـر؟ بالفعـل أشـعرُ بـك بعيـدةً.

ـ ربما لأني فعلًا من عالمٍ آخر....

وعلمـتُ مـن تعبـير وجههـا أنهـا سـتكون ليلـةً طويلـةً، وأنهـا لـن تنعـمَ بالنـوم في تلـك الليلـة وربمـا في الليـالي التاليـة وربمـا ليـالي لا يعلـم عددهـا إلا اللـه....

ولكني نمت...

نمتُ ورأيته...

سـمعتُ صوتـه، يهمـسُ بي يوقظنـي مـن نومـي، كنـتُ أعلـم أني نائمـةٌ في مـكاني بجـوار السـور، وأعلـم أن الوقـت ليـلٌ، وأن القمـر لا يـزال في طـور التكويـن، ولكـن حـين سـمعت صوتـه، انتبهـت عـلى إحسـاسي بنـور وجـوده.

لم يكـن يهمـسُ بـشيءٍ محـددٍ، ولكنـي سـمعتُ منـه كلامًـا منسـابًا، كـما لـو كان يلقـي وحيًـا...

كنـتُ في يقظـةٍ حـين حـضر، ولكنـي لم أبـصره بجـواري حيـث قبعـت بجـوار السـور، أبصرتـه يتسـلل داخـلي بحروفـه، كنـتُ أشـعرُ بأنفاسـه تهـب بنسـيمها عـلى خصـلات شَـعري، ولكنـي لم أره فقـط شـعرتُ بـه...

- أنا هنا..

- أعلم.

- لم أذهب.

- أعلم.

- وَلِمَ أعود.

- أعلم.

- هل تريدين أن تريني؟

- لا أعلم.

- ربما أنتِ بالفعل ترينني.

- أعلم.

صمت فسكت.

كنتُ أعلم أنه ما زال يتحدث بداخلي، يعلمني كيف أنه لم يذهب، كنت أعلم أني يجب أن أخبر الكون بما علمت به، وشعرتُ بنفسي أهمُّ لأقوم من موضعي لأذهبَ حيث الناس لأخبرهم أنه لم يذهب.

ولكن حين بدأتُ في السير نحو المكان الذي ظننتُ أن الناس فيه، توقفت حروفه عن مداعبة وجودي بحقائق وجوده.

فتوقفت، فعاد...

- ألا يجب أن أخبرهم؟

- ألست تعرفين؟

- ولكنهم قد يحتاجون أن يعرفوا؟

- هل تحتاجيهم أن يعرفوا؟

- أيكفيني أن أعرف وحدي؟

- أيرضيك أن تعرفي وحدك؟

- أيرضيك أن أعرف وحدي؟

- أيكفيك أن تعرف وحدك؟

- إذن ستبقى معي؟

- وهل ذهبت لأبقى؟

- إذن سأبقى معك...

استيقظت وأنا أُردد ما كنتُ أقوله؛ سأبقى معك.

كانـت السـاعة قـد قاربـت مـن الفجـر، كنـتُ أعلـم مـا عـليَّ فعلـه. كانـت مُنـى تنتظـرُ مني أن أذهـب معهـا لنُكمـل رحلتنـا كـما هـو مقـرر مـن قبـل، لم أكـن أعلـم بعـد هـل هـي تنتظـرني كحبيبـة التـي أنـا عليهـا أم حبيبـة التـي تظننـي هـي، لم ينتـه حديثنـا أمـس بـشيء يمكنهـا أن تعلـن أنهـا اقتنعـت بـه، كـما لـو كانـت تهـربُ مـن أن تتحـدث بمـا في قلبهـا وقناعتهـا.

لم أكـن لألومهـا، مـن يمكنـه أن يسـتوعب مـا لا يُمكننـي أنـا ذاتي مـن فهمـه إلا بمـا لـديَّ مـن قـوة إيمـان بـه.

لـذا حـين قـررتُ أن أجمـع أغـراضي وأتـرك لهـا رسـالةً لـدى الاسـتقبال أني ذهبـت لأُكمـل رحلتـي وسـألقاها حـين أعـود في النهايـة لمدينتنـا، فـكأني كنـت أخبرهـا أني في رحلتـي وحـدي وألا تقلـق عـليَّ.

كنـتُ أعلـم أنهـا سـتقلق، ولكنـي لم أكـن لأرحـل مـن أشـبيلية بعـد أن وعدتـه أن أبقـى، هنـا سـتكتملُ رحلتـي، لا يمكننـي أن أرحـل الآن.

لم أكـن بذلـك أتركهـا بعـد أن أخـذت منهـا مـا أريـد، ولكـن رغـم مـا كشـفه لي وجودهـا هـو أني يجـب أن أرحـل عنهـا.

لقـد حـضرت إليهـا بحثًـا عـن فهمـي لنفـسي لـكي أواصـل رحلتـي، لم أكـن أريـد أن أعـرف ذاتي لـكي تنتهـي رحلتـي.

ـ كل معرفة تزيدك قربًا ستزيدك عمن لا يعرف بُعدًا.

ـ أعلم يا سيد نور، الآن أعرف ذلك.

ـ هل تشعرين بأنك تبعدين بشكلٍ قد يجعلك تندمين؟

ـ هـذا مـا يُدهشـني، لـو كنـتُ فعـلًا حبيبـة ذلـك الوقـت وحـدث مـا يجعلنـي بـين قـرار أن أبعـد عـن مُنـى في تلـك الظـروف أو أن أسـتمر معهـا، لكنـتُ بـلا شـك قـد اخـترتُ أن أبقـى معهـا، لم يكـن في الكـون مـا يجعلنـي أفكـر يومًـا أني سـأتركها لتكمـل رحلتهـا وحدهـا.

ـ والآن؟

ـ الآن لـكي تسـتطيع أن تواصـلَ رحلتهـا عـليَّ أن أواصـل رحلتـي وحـدي.

ـ ولكنـك لسـت وحـدك، أنتـما في نفـس الرحلـة ولكـن كلًّا منكـما يسـير عـلى خطوتـه الخاصـة. هـي رحلـةٌ واحـدةٌ ولكـن لـكلٍّ منكـما خطوتـه. ليـس هنـاك انفصـالٌ فالـكل منـه وإليـه وبالتـالي ليـس هنـاك بعـد حقيقـي بينـك وبينهـا، هـو بُعـد في الظاهـر ولكنكـما تقتربـان أكـثر.

ـ ولكن لماذا نشعر بالبعد؟

ـ لأننـا نحـب أن نظـن أن القـرب هـو دليـل الحـب، فـإن حـدث مـا هـو غـير قـرب نشـعر بـه نقـص حـب ونربطـه بالبعد.

ـ ولكن أليس البعد هو ما تقصده بغير القرب؟

ـ لو كانا شيئًا واحدًا لما كنتُ فرقت بينهما...

ـ هل ستخبرني إذن؟

لمَّا لم أجد منه جوابًا علمتُ أني قد وصلتُ لموعدي مع الشيخ الغريب.

ولكني حيث وصلت قدماي لم أجد الشيخ الغريب..

وجدت فاطمة....

فاطمة

كنتُ أعلم أنه يحبه بحبه لي ولكني أحبه بحبي له....

كيف تمنع نفسك عن حب من تعلم أنك لا معنى لوجودك بدون حبه؟

كان يعلم أنه يجب أن يمنع نفسه من أن يبصرني في حبه له،

كان عليه أن يُسرع الخطى ليعبر من فوق جسر وجودي ليصل لجنة وجوده، لم يكن عليه أن يقف ليتأمل مستمتعًا بالكون الذي يجري من تحت جسري..

كان يعلم أن عليه أن يعبر ولم يكن يتراجع غير أنه في تقدمه كان يُبطئ الخطى.

حين تُسلم ذاتك للحب ليصلَ بك إلى رحابات أوسع، يخف وجودك ويلطف ويصبح للحب في القلب سلطانًا على الروح، فتُبطئ الخطوات، ليس تعبًا ولكن استمتاعًا بحضور الحب...

الروحُ تطير بأجنحة الحب، ولكنها تخضعُ لحضوره في القلب بصدق.

وما بين شوقٍ يجذب لحضرةٍ أسمى وبين رضا يسكن لحضورٍ طاغٍ يكون على الروح العاشقة أن تجد توازنها؛

فتصل وتتصل،

تصل للحضرة الأسمى وتتصل بالحضور الطاغي.

كان ما زال يحتاج أن يعلم أن كلا الموقفين أمرٌ واحدٌ...

كل السُّبل تقود إليه ولكنه يتولاها في النهاية برحمته...

أنت تريدين أن تعرفي عن ذاتك، ولهذا ترين في هذا الذي تمرين به تجربة تأخذك لمعرفة أكثر عن نفسك، ولهذا تتساءلين ما علاقة معرفتك به وبي في قصتنا بمعرفتك عن ذاتك!!!

ولكن كله في النهاية أمرٌ واحدٌ، كله يبدأ منه وينتهي إليه، فكل ما في الكون متصل ولكنك يجب أن تبحثي عن كيف يأخذك لوصول.

فمعرفة اتصالك بمن حولك لأنكم في النهاية مرتبطون بمصدرٍ واحدٍ سيجعل وصولك للواحد أمرًا أيسر وأوضح...

هو كذلك كان عليه أن يعرف عني ويتصل بي ليصل، ولكنه أبطأ في الوصول بجمال الاتصال...

كنتُ أعلم أن قربه مني سيجعل مني مركزًا لهذا الحب، كلنا كذلك، كلنا نحتاج من يرتقي بنا في معاني الحب، خطوة بعد الأخرى حتى نصل...

حين جاء إليَّ لم يكن يعرف عن الحب،

وهكـذا جميـع البـشر، لا يولـد مـن يعـرف الحـب، فقـط نشـعر بـه و لكننـا نتعـرف عليـه، نحـن نتعلـم الحـب مـن خـلال مـن نتصـل بـه في هـذا الكـون مـن بـشر...

ولكنـه عنـدي عـرف معنـى للحـب يفـوق مـا يتعلمـه البـشر الآخـرون، رغـم أنـه هـو المعنـى الـذي يجـب عـلى الجميـع أن يعرفـوه عـن الحـب...

عـرف مـن خـلالي معنـى أن يحـب ذاتـه ليصـلَ لحـب غـيره ثـم يصـل لحـب مـن خلـق ذاتـه والغـير، ولكنـه الآن يحـب مـن دلَّـه عـلى الحـب...

ولكـن لأن المطلـوب غـالٍ، بـل هـو أغـلى مطلـوب، كان يجـب عليـه أن يضحـي كذلـك بمـا هـو غـالٍ لديـه لعلـه أن يسـتحق ادعـاء صـدق الحـب...

- أنـت الفتـاة التـي تتركـه في اللوحـة لتدخـل للقلعـة؟ هـل تـركك لـه هـو العـذاب الـذي سـيكون عليـه تحملـه؟

- ليـس لي ولا لـه أن نقـرر شـيئًا، ولكنـه يفتـح لـه بابًـا ليختـار مـا هـو اختيـاره لـه، لم يكـن لي أن أتركـه لأنـه لم أكـن أنا مـن حضرت، ولكنـه أحـضرني وهـو مـن سـيخلص وجـوده لـه وحده...

- مهما كانت المسميات ولكنه سيتعذب في النهاية.

- ليسـت مسـميات ولكنهـا حقيقـةٌ واحـدةٌ بمظاهـر مختلفـةٍ، هـو في رحمـة خالـق الحـب، وهـو مَـن عليـه أن يسـلم لـه، عليـه أن يحـب بـدون توقـف، وعليـه أن يتوقـف عـن أن يُحـب غـيره.

- هل أنت هنا لكي تحكي لي ختام القصة؟ ألن أراه مرةً أخرى؟

ـ لا يا حبيبة، أنا هنا لأن القصة لم تنته، وكيف لها أن تنتهي...

ـ هل تحبيه، ألهذا عُدتِ؟

ـ أنا لم أذهب لأعود، أنا دومًا معه، وهو معي، ومن يستطيع بعد أن عرف خالق الحب ألا يحب خلقه بمددٍ من حبه؟ أجل أحبه،

أحب حبه لي،

أحب كيف اقترب مني،

فلم ينخدع بمظهري،

وتعرَّف على قلبي،

وبلذيذ معاني الوجود عشقني...

كيف لي ألا أحب من تجسَّد لي في بشريته معاني يحبهم ويحبونه، وعايشت معه حقائقها...

بالتأكيد أحبه،

ولكني أحبه حبًّا لا ينتهي ولا يفنى لارتباطه بمن لا ينتهي أو يفنى،

لذا فالقصة لم تنته،

ولن تنتهي،

بالحب نحن كائنات نورانية،

نطوف بكعبة الكون،

ونقبل حجر الزمان السماوي،

فيسقينا شربة لا نموت بعدها أبدًا،

لأنَّا دومًا في ارتواء من ود حبه ورضا قربه،

فنُكمل رحلتنا التي لا تقف من زمنٍ لزمن ومن مكانٍ لمكان،

لا نبلى ولا نفنى،

فنحن معنى،

وكيف للمعنى أن يموت،

لا تسري علينا قواعد البشر،

فنحن شاهدنا خالق البشر في البشر،

عرفنا حبه،

فعرفناه،

فأحببنا كل ما نعرفه به،

فأحببناه،

فكلما أحببنا،

اقتربنا،

فالتحقنا بجنابه،

نخدمه بالحب ونطوف بالحب،

فلا نقفُ إلا لنغترف شربةً من بحر الرضا لنُكمل رحلتنا في كون نوره...

أنا هنا لأن القصة مستمرة:

- وماذا عن قصتي؟

- أخبرتـك، كلـما عرفـتُ عـن الكـون الـذي كلنـا متصلـون بـه، سـتصلين.

- ولكني بدأت أخاف...

- ممَّ تخافين؟

- ألا أصـل للمعنـى، كل مـا يصلنـي مـن كلـماتٍ أشـعر أنهـا ألغـازٌ، أو رمـوزٌ لأسرار، أو إشـارات لا قـدرة لي عـلى قراءتهـا، كيـف لي أن أعلـم مـا الـذي عـليَّ أن أعرفـه؟

- ولكنـك تعرفـين يـا حبيبـة، ولكـن لأن مـا تعرفـين يكـبر مـداه مـن لحظـةٍ لأخـرى، فحيرتـك تـزدادُ، لأن مـا تعرفينـه في لحظةٍ يكشـف لـك جديـدًا، وهـذا الجديـد يعرفـك معرفـةً مختلفـةً، هـي في ذاتهـا تخلـقُ لـك قـدرةً لأن تبـصري جديـدًا، وتسـتمر هكـذا مـا دمـت تريديـن معرفـة الاتصـال للوصـول.

- ولكـن هـل سـأصل؟ هـذا هـو مـا يؤرقنـي في الحـيرة، خـوفي مـن ألا أصـل...

- كلنـا موصولـون بـه، فـلا تخـشي مـن عـدم الوصـول، فالأصـل هـو الوصـول، ولكـن تتراكـم حُجـب الأكـوان فتقطعنـا عـن شـعور الوصـول، ولكـن هـذه الحجـب في ذاتهـا هـي مـا يصلـك بـه، لأن الأكـوان مظهـره، فعليـك أن تعـرفي عنهـا، لتصـلي بمعرفتـك إليـه...

- أعتقـد أني أحتـاج أن أتعـرف أكـثر عـلى مـا سـيحدث للشـيخ الغريـب لأتعـرف عـلى كيفيـة الوصـول في الاتصـال بمـن ليسـوا غايـة الوصـول... ولكـن أيـن هـو الآن؟

حبيبة

لم تُجبنـي فاطمـة، بـل وجـدتُ نفـسي جالسـةً بمفـردي، لم تكـن فاطمـة بجـواري كـما كانـت حـين كنـتُ أحادثهـا، ولكـن يبـدو أني لم أعـد أتأثـر بحقيقـة الاختفـاء والظهـور لهـا أو للشـيخ الغريـب أو حتـى للسـيد نـور، كنـت أعلـم أن فهمـي للأمـر قـد صـار مختلفًـا عـن قبـل...

مـن قبـل كنـت لأظـن في نفـسي جنونًـا، أمـا الآن فأنـا أعلـم يقينًـا أنهـم موجـودون، أنهـم امتـدادٌ لوجـودٍ لا ينتهـي ولكنهـم يظهـرون حـين يحتـاج هـذا الوجـود أن يظهـر في مجـرى الزمـن الخـاص بي....

لم أعـد أرى الكـون خطًّـا واحـدًا، أو أبعـادًا محـددةً، بـل هـو في أبعـاد الحـب لا نهـائي الأبعـاد، أعلـم أني لسـتُ مثلهـم؛ يمكنهـم طـي الوجـود ليصلـوا بيقـين حبهـم لحيـث يريـدون وقـت مـا يريـدون، ولكنـي أعلـم أني قـادرةٌ عـلى اسـتقبالهم بـدون أن أشـعر أني مسـتغربة هـذا الوجـود...

أعلـم أني لسـتُ مرتبطـةً بفهـم أحـد عنـي، أعلـم أني قـد تحـررتُ مـن ذلـك الوهـم، ربمـا لهـذا كان يجـب عـليَّ أن أتـرك مُنـى، كان يجـب أن أتحـرر مـن وهـم مـا أعقلـه بمـا أراه مـن خـلال غـيري لأبـصر مـا أراه في خيـالي واقعًـا أمامـي...

كنـتُ أسـعى لـكي أرى في الخيـال مـا لا أراه في الواقـع، ولكنـي الآن أريـد أن أرى كل شيء في الواقـع، أن يـزول مـا يحجبنـي عـن عـالم الخيـال، لا لأعيـش في الخيـال ولكـن ليصـير كل مـا في واقعـي وخيـالي هـو حقيقـة وجـودي...

كيـف تخـرجُ مـن وهـم العقـل الـذي يجعلـك تظـن أن مـا في الخيـال ليـس لـه وجـود في كونـك....

ـ هذا هو ابتلاء القرب...

التفـت للشـيخ الغريـب الـذي كان جالسًـا في نفـس الموضـع الـذي كانـت تجلـس فيـه فاطمـة مـن قبـل، فكـرت أن أخـبره أنهـا كانـت هنـا قبـل قليـل، ولكنـي أعتقـدت أنـه لا بـد يعـرف، أو أنهـا معرفـة لـن تفيـده بـشيء.

ـ ما هو ابتلاء القرب يا سيدي؟

ـ ابتـلاء القـرب قـد يكـون أصعـب مـن ابتـلاء البُعـد، هـل تحافظين عـلى قـربٍ تخشـين أن يخلـق بمـرور الوقـت بغضًـا، أم ترضـين ببُعـدٍ تعلمـين أنـه قـد يحافـظ عـلى مـا بقـي في القلـب مـن حـب؟

بـدا كـما لـو كان يُحـدث نفسـه، لـذا لم أتدخـل، وتركتـه يسترسـل في مناجاتـه:

ـ حـين تقتربـين في غطـاء مـن نـور الحـب وبريقـه، تتعطـل قـدرات وعيـك فـلا تسـتطيعين أن تحكمـي بفهمـك بـأن مـا أنـت فيـه الآن هـو لحظـة مـن العمـر ولـن يكـون العمـر كلـه هكـذا.

هـذا القـربُ في غشـايةٍ مـن بصـيرة الوعـي قـد يُعَجـل باقـتراب مشـاعر مـن الصدمـة والضيـق التـي تصبـح غضبًـا وقـد تصـير كرهًـا.

أجـل كل هـذا الحـب قـد يصبـح كذلـك إذا لم يسـتيقظ الوعـي قبـل فـوات الأوان ليحافـظ عـلى الاتـزان في القـرب...

ـ تقصد يستيقظ العقل؟

ـ لا أقصد الوعي، العقل ليس بالحكم العدل في شئون الحب، الوعي هو تلك القدرة الذاتية على أن تبصري كامل ذاتك، ذاتك بما تحتوي من جسد وعقل وقلب وروح، الوعي هو قدرة الخيال لديك على أن تبصري مجموع ذاتك في وحدتهم وانفصالهم بشكلٍ يعطيك القدرة على أن تتعاملي بواقعيةٍ بدون تجاوز جانب منك على جانب آخر...

ـ أرى في كلامك ما يُجيب عن تساؤلي عن كيف أبعد العقل عن الحكم على الخيال بأنه غير واقعي، ولكن ألفاظك لا تتسق مع بعضها، كيف يحكم الخيال بواقعية؟ الخيال والواقعية لا يجتمعان....

شعرتُ به يبتسم...

ـ الخيال ليس أن تتخيلي عوالم غير موجودةٍ، في الحقيقة كل ما ستبصرينه بخيالك سيصبح موجودًا ولكني رغم ذلك أتحدث عن قدرتك على أن تبصري ما خلف ظواهر الوجود فتتعرفي على معانيها وعلى ما لا ترينه بعينيك.

في قرب الحب أنت ترين ظاهر متعته ولكن لهذه المتعة معنى وإحساسًا وتفاصيل في القلب والعقل والروح وليس فقط الجسد، قدرتك على أن تبصري تفاعل هذه العناصر مع لحظة المتعة في القرب، هذا هو قدرتك على أن تري بالخيال ما هو واقعٌ ولكنه ليس بظاهر...

فالخيـالُ تبصريـن بـه واقعًـا يخفـى عنـك في وهـج اللحظـة الظاهـرة ولكنـه باطـنٌ في عنـاصر وجـودك الأخـرى، وبـه تسـتطيعين أن تكـوني عـلى وعـي بمـا يُحيـط بـك وتقدريـن أن تبنـي عالمـك الـذاتي بواقعيـةٍ أكـثر...

تخيـلي أنـك تبصريـن قلبـك وعقلـك وروحـك في حـوارٍ مـع جسـدك، هـذا مـا يحـدث بالفعـل فهـو واقـعٌ ولكنـك لـن تبصريـه الا بقـوة خيالـك.

- إذن فالخيـال ليـس عالمًـا منفصلًا ولكنـه قـدرة عـلى ربـط العـوالم التـي تبـدو متناقضـةً أو متباعـدةً..

لم يؤكـد كلامـي، ولكنـه التفـت لي وقـال بابتسـامةٍ حقيقيـةٍ هـذه المـرة، أجـل ابتسـامة واضحـة المعـالم، موجهـة لي، كانـت لحظـةً مختلفـةً، شـعرتُ أنـه يريـد أن يفاجئنـي بابتسـامته، ولكـن المفاجـأة كانـت فيـما أخـبرني بـه:

- لقد تركتِ صديقتك من أجل أن تكوني معي، أليس كذلك؟

- نعـم، أريـد أن أعـرف نهايـة قصتـك، لأني أشـعر بهـا مرتبطـةً بقصتـي

- حسـنًا، ولكنـك مـاذا لـو عرفـت أنـك في النهايـة لـن تعـرفي نهايـة، فهـل مـا زلـت تريديـن أن تعـرفي القصـة؟

- وما جدوى القصة بدون نهاية؟

- وما أهمية النهاية إذا كانت المتعة في القصة؟

- إذن علـيَّ أن أختـار بـين متعـة اللحظـة بـدون ختـام يـرضي فضـولي أو ألا أعـرف القصـة خوفًـا مـن ألا أسـتطيع أن أروض فضـولي فأحبـط لأني لم أعـرف الختـام؟

- ليـس هكـذا بالضبـط، ولكـن عليـك أن تعـرفي أنـك إن عشـت في اللحظـة بـدون انتظـارٍ للنهايـة، فليسـت هنـاك نهايـة، بـل سـتكون لحظـة ممتـدة...

توقفـت قليـلًا لأفكـر فيـما يقولـه، كنـا قـد بدأنـا السـير في محيـط المدينـة القديمـة، ولم ألحـظ الوقـت أو الأماكـن، ولكنـا كنـا فقـط نسـير كـما لـو كانـت المدينـة قـد هجرهـا أهلها لأنهـم يعلمـون أننـا نحتـاج الهـدوء، أو أننـا نسـيرُ في طرقـات المدينـة ولكـن خلـف حجـاب يحفظنـا مـما يُحيـط بنـا، فـلا نراهـم ولا يروننـا...

- أعتقد أنه ليس لديَّ خيار؟

- لكل منا خياره حتى وإن كان كل شيء معروفًا.

- إذن فأنت تعرف أني سأختارُ أن أستمع للقصة؟

أكمل ابتسامته

- إذن لنبدأ...

كـما لـو كانـت كلمتـه هـي إشـارة لابتسـامته لتختفـي، كـما لـو كان قـد تذكـر مـا يحملـه قلبـه، أو تذكـر حقيقـة الشـوق في حياتـه، فعـاد وجهـه لصمتـه، وانتظـرت أن يبـدأ مـن حيـث توقفنـا...

الشيخ الغريب

كنتُ أريد أن أعلم حقيقة حبي لها...

أنـا الآن أحدثـك كـما لـو كنـتَ خـير مـن يفهـم عـن الحـب، كـما لـو كنـت مُعَلِّـمًا لـكِ ولكنـي دومًـا كـما كنـتُ حينهـا، سـأظل أتعلـم عـن الحـب.

حينهـا كنـتُ أريـد أن أعـرف عـن حقيقـة الحـب، ولكنهـا كانـت معـي، فكانـت حقيقـة الحـب مرتبطـةً بمعرفتـي عـن حبـي لهـا، الآن وأنـا معـك، لا يمكـن لي أن أدَّعـي أني عرفـتُ مـا يُغنينـي عـن أن أسـتمر في سـعيي لمعرفـة المزيـد عـن حبـي وحقيقتـه.

حينهـا كنـتُ طالبًـا لمعرفـةٍ فأصبحـتُ بالمعرفـة طالبًـا للمزيـد مـن المعرفة...

مـن الوهـم أن تظنـي أن لمعرفتـك حـدًّا أو نهايـةً، أو حتـى هدفًـا، لأن الحـب لا ينتهـي ولا يتوقـف في لحظـةٍ وليـس لـه نهايـة، فـكلٌّ مرتبـطٌ بـه، وهـو لا نهايـة لـه.

هـذا مـا علَّمَتنـي إيـاه ومـا عرفتـه مـن حبـي لهـا، لـن ينتهـي، فاستسـلم.

كانـت تتقـدم في العمـر، وكنـتُ مـا زلـتُ في مقبـل العمـر، أو هكذا كانـت النـاس تعتقـد. في حقيقـة مـا يـرى النـاس كانـت تقـترب مـن نهايـة الثمانينيـات في عمرهـا، وكنـت مـا زلـت في بدايـة العشرينيـات مـن عمـري، لم يكـن لأحـدٍ أن يتخيـل أو يشـك أن هنـاك مـا قـد يربـط بيننـا غـير أني طالـبُ علـم وخـادمٌ لأسـتاذته.

لـذا كان سـيري معهـا في شـوارع المدينـة لا يلفـت الأنظـار، كانـت المدينـةُ تعتـادُ عـلى أن يكـون لـكل شـيخ أو أسـتاذ خـادمٌ، سـواء كان هـذا المـربي شـيخًا أو هـذه الأسـتاذة عجـوز في أواخـر العمـر.

حقيقـة لم يكـن هنـاك مـن يعـرف بحبـي لهـا غـيري، ومـن خلـق الحـب. أو هكـذا كنـت أظـن.

بعـد ذلـك اليـوم، عرفـتُ أنهـا تعـرف بحبـي لهـا، ولكنـي عرفـتُ كذلـك أنـه ليـس لـه معنـى أن يتحـول لـشيءٍ غـير معرفـة.

كان الصـدقُ منهـا تجاهـي بـلا حـدودٍ، لم تكـن لتكـذب عـليَّ أو لتأخـذني في كـونٍ بعيـدٍ أو تلقينـي في مغامـرةٍ بـلا هـدف. لـذا لم يكـن لي مـن هـذا الحـب سـوى المعرفـة.

في دنيـا البـشر، نظـن أن الحـب يجـب أن يسـير وفـق ترتيـبٍ معـينٍ، بدايـة وتفاصيـل مترابطـة متتاليـة ثـم وصـول لغايـة محـددة، ولكنـي معهـا تعلمـت أن هـذا هـو الوهـم.

صدقهـا معـي علَّمنـي أن حقيقـة الحـب نتعـرف عليهـا في توقفنـا عـن أن نصنـع مـن الحـب قواعـد يجـب أن نسـير عليهـا في طريقنـا لغايـة الحـب.

- ليس للحب غاية، غاية الحب هو نهاية للحب ذاته.

كنـتُ أسـمعها في ذلـك اليـوم تُحـدث سـائلها في مجلسـها، لم أكـن بالداخـل، ولكنـي شـعرتُ بهـا تُحدثنـي.

سألها من تُحدثه متعجبًا:

- كيـف ليـس للحـب غايـة؟ مـاذا يحـدث إذن بعـد أن أشـعر بالحـب؟

- بعـد أن تشـعرَ بالحـب، تتعـرف عـلى معنى هـذا الحـب في وجود مـن تحـب، ثـم تبحـث عـن معنـى أعمـق، ثـم معنـى أبعـد، ثـم معنـى أعـلى، حـين تحـب يجـب أن تتعـرف بصـدقٍ عـلى معـاني ذلـك الحـب، وسـتأخذك تلـك المعرفـة لجهـات الكـون بحثًـا عـن حقائـق خلّاقـة، كلـما عرفـت معنـى وحقيقـة تخلـق لـك معنـى جديـدًا يأخـذك لمعنـى آخـر، كل يـوم هـو في شـأن، ولكـن حـين تقـرر أن تضـع للحـب غايـة، لـن تجـد لديـك الرغبـة في اسـتمرار البحـث عـن الجديـد، سـتكتفي بجميـل مـا تجـد، ولـن تجـد الرغبـة في البحـث عـن جديـد بداخلـه، رغـم أنـك إن تركـت وهـم غايـة الحـب بعيـدًا عـن ذهنـك، سـتجد أنـك بذاتـك كل يـوم أنـت في شـأن.

- ولكـن أيـن الاسـتقرار في هـذا؟ هـذا سـلوكُ قلـبٍ هائـمٍ عـلى وجهـه بـلا راحـةٍ، مـن يقـوى عـلى هـذا؟

كان هـذا هـو سـؤالي لهـا، ولكنـه نطـق بـه عنـي، كنـتُ أعلـم أنهـا تعـدني لأن أكـون باحثًـا عـن المعنـى بـلا حـدودٍ لأن مـا أبحـث عنـه بـلا نهايـة، ولكنـي في الطريـق وجـدتُ في حبـي لهـا راحـة، فاسـتكنتُ لهـا، فهـل في اسـتقرار قلبـي عندهـا، ظهـر تعبـي أم اسـتمتعت براحـة في رحلـة قلبـي الهائـم؟

- لمـاذا تجعـل الراحـة مرتبطـةً بوجـود الاسـتقرار أو التوقـف؟ لمـاذا تجعـل مـا تصفـه بالقلـب الهائـم عـلى وجهـه في موقـف التعـب؟ أريـد منـك أن تُخـرج مـن وعيـك تلـك المفاهيـم التـي تعيقـك

عـن أن تبـصر الوجـود بحقيقتـه كـما أراهـا؛ لا تجعـل المسـمى يخلـق لـك تعريفًـا يُقيـد حريـة المعنـى، الراحـة هـي في أن تعـرف حقيقتـك بصـدق، أن تعـرف أن القلـب لا يسـتقر، بـل هـو يتقلـب، بـين يـدي الرحمـن، يقلبـه كيـف يشـاء، ولأنـه الرحمـن فهـو يقلبـه بـين كل جميـل وخـير ورحمـة ورضى، لـذا فليـس هنـاك تعـبٌ في القلـب الهائـم بـين معـاني الحـب وحقائقـه.

إذا اسـتحضرت تلـك الحقيقـة، عرفـت أن قلبـك لـن يسـتقر أبـدًا، بـل سـتعرف أن سـعيك لاسـتقرار القلـب هـو ضـد حقائـق الوجـود، فسـتجد راحتـك في تناغمـك مـع حقيقـة أن تكـون كل لحظـة معـه، في شـأنٍ جديـدٍ، في معنـى جديـدٍ، لا تتوقـف، لأنـه ليـس هنـاك توقـف...

ـ شـأن جديـد، في معنـى جديـدٍ كل لحظـة!!! وحـب جديـد كذلـك إذا؟

ـ أجـل وحـب جديـد، ولِـمَ لا، مـا دام كل الحـب سـيربطك بـه، فبالتـالي كل لحظـة حـب وإن اختلفـت في الظاهـر فهـي سـتقودك لحـبٍّ واحـدٍ وهـو حبـك لـه، وحيـث إن حبـه هـو الأصـل، ولأنـه بـلا بدايـةٍ ولا نهايـةٍ، فبالتـالي حقيقـة حبـك بـلا بدايـة أو نهايـة، مهـما تعـددت المظاهـر لا تدعـي أنهـا تُـسيء لصـدق الحـب، مـا دمـتُ تبـصر باطنًـا فيـما ظهـر، مـا دمـتُ توحـده فيـما تعـدد، مـا دمـت لا تفـرض عـلى ذاتـك الوقـوف في تعرفهـا عليـه بالحـب.

ـ ما خيانة الحب إذن؟

ـ الخيانـة هـي خيانتـك لـه، ألا تبـصره بصـدق فيمـن تحـب، الخيانـة هـي أن تُـشرك في حبـه أحـدًا بـأن تتوهـم بـأن قلبـك لا يحـب ولـن يحـب سـوى هـذا السـوى... حـين ترفـع مخلوقًـا

لمرتبـة الخالـق فأنـت تخـونُ عهـدًا مـن لا نهايـة لحبـه بـأن تجعلـه محـدودًا فتعطـل مـا لم يخلقـه إلا ليكـون متجـاوزًا بحـدود الآن والمـكان.

كانـت النـاس تعـبر مـن أمامـي وأنـا أسـترقُ السـمع لحديثهـا في الداخـل، كانـت بداخـلي أسـئلةٌ لا تنتهـي، أعلـم أن مـن يُحاورهـا لـن يسـتطيع أن يسـألها جميعًـا، ولكنـي لا أريـد الإجابـة الآن، كنـتُ فقـط أحتـاج منهـا أن تخـبرني مـاذا عـليَّ أن أفعـل الآن، هـل أنطلـقُ بعيـدًا عنهـا لأبحـث عـن مظهـر حبـه التـالي أم أبقـى لأكتشـفَ المزيـد مـن خلالهـا....

- في المعرفـة حـيرة، وحـين تتوقـف الحـيرة، اعلـم أنـك تجهـل، مـا دمـت في حـيرةٍ، فأنـت عـلى الطريـق، الحـيرة تجعلـك ضعيفًـا وهـو لا يريـدك ضعيفًـا لـذا يعطيـك معرفـةً ليتحـول ضعـف الحـيرة لتواضـع، فالتواضـعُ يجعلـك تستسـلم لـه أكـثر، فحـيرة القلـب في تقلبـه بـين تعرُّفـه عـلى معـاني حبـه لا تجعلـه ضعيفًـا فيقـف ليطلـب الراحـة، بـل تجعلـه متواضعًـا فيندهـش لمـا يتعـرف عليـه، فيسـعى لطلـب المزيـد، لـذا فـلا تتوقـف، اسـع إليـه وسـيعطيك المزيـد....

كانـت تُخـبر مَـن يُحدثهـا ولكنـي عرفـتُ أنهـا تُخـبرني بمـا عـليَّ أن أفعل ...

لـذا نهضـتُ مـن مجلـسي، ونظـرتُ مـن البـاب المفتـوح عليهـا، فوجدتهـا تنتظـر نظـرتي بابتسـامةٍ، كانـت تعلـم مـا سـأفعل، لـذا فقـط ابتسـمتُ لتخـبرني أنهـا سـتنتظرني...

استدرت وبدأت في سيري، لم أكن أعلم وجهتي، ولكني أعلم أنه هذا ما يجب عليَّ فعله، وهذا يكفيني...

رغم ما كان للمدينة من مركزٍ حضاري وديني مهم للأندلس إلا أنه كانت هناك بعض الحانات التي تفتح أبوابها لمن هم من غير المسلمين، ولكن الخمر لم يكن يسأل عن الدين قبل أن يحتسيه من يرغب فيه.

لم أكن يومًا راغبًا فيه، ولكني سرتُ باتجاه أبعد مكانٍ يُمكن لي أن أشعر بوجودها حوله أو بداخله.

لكن أريد أن أبتعد عنها، أريد أن أبحثَ عن مظهرٍ آخر يقربني منه غيرها، كنتُ أريد أن أختبر حبي له؛ هل هو بسبب وجودها أم أنها مظهرٌ بدون أن تؤثر على إرادتي له...

أردتُ حيث لا يوجد وجود له ظاهر أن أبصره خالصًا بدون أن يمنعني حبي لها...

في هذا المكان لن أجدَ ما اعتدت عليه من أحاديث عنه، أو وجوه تجذبك إليه، هنا سأجدُ من لا يعرفونه وبالتالي إذا أبصرته فسيكون بقوة حبي له، وبرغبتي فيه وحده...

أو هكذا ظننت...

كانت الساحةُ التي وصلتُ إليها تعج بصنوف البشر، لم تكن لي رغبةٌ في التعرف عليهم، ولكني كذلك لم أكن أعرف إلى أين أذهب، كانت هذه هي أول مرةٍ لي في ذلك الجزء من المدينة، لذا اخترتُ ركنًا قصيًّا وجلستُ...

جلستُ أتأمل تلك الوجوه التي تسيرُ أمامي، لم أكن أعرفُ ماذا أنتظرُ ولكني كنتُ أعرفُ أني أنتظر شيئًا ما، كنتُ أريد أن أعود إليها، ولكني كنتُ أنتظرُ شيئًا ما لأعود...

كنتُ أريد من يجذبني من يدي ليعودَ بي إليها...

لم يكن قد مرَّت ساعاتٌ معدودةٌ، ولكني كنتُ أشعرُ أن هذه مرحلة يجب أن أتجاوزها لأعود إليها، كنتُ أعرف أني في النهاية سأعودُ إليها...

كنتُ أعلمُ أني قد ابتعدت عنها حين حصرتها في شعوري الذي بحت به، ولكني أعلم أنها لم تطردني، أنها لن تطردني، أنها تنتظرني، ولكني أريدُ أن أعود وقد تعرفت على ما حدثتني عنه، وقد تحوَّلت معرفتي لنورٍ يكشفُ لي كيف سأكونُ في كونها بدون أن يكون كوني، كيف سأكون في كونها بدون أن أفنى عن كون من له نسعى...

كنتُ أنتظرُ من يأخذ بيدي لأعودَ إليها، ليصلَ بي لما وصَلَت إليه ونعرج معًا لما يصل بي معها إليه...

في تلك اللحظة من عمري، كنتُ أريد المدد، كنتُ أعلم أني على مشارف لحظةٍ فاصلةٍ ولكني أريد أن يُرسلَ إليَّ ما يجعلني أشعرُ به يحدثني...

أجل، نحن نعلم أنه موجودٌ، ولكننا في لحظاتٍ مثل تلك نريد أن نشاهده يُحدثنا لنطمئنَّ إلى أننا ننتظرُ في المكان الصحيح، كل الأماكن صحيحة، لأنه في كل مكانٍ، ولكننا نريد منه أن ينزلَ

إلى منطـق قلوبنـا الضعيفـة لنستشـعرَ بـه يحنـو عـلى قلوبنـا المحتاجة لـه...

هـو يعلـمُ أننـا نحتاجـه، وهـو يحبنـا، ونحـن نعلـمُ أنـه يُحبنـا، لـذا نطلـبُ منـه بضعـفٍ أن يعاملنـا بضعفنـا لا بقوتـه، لـذا نحتـاجُ أن نشـعر أنـه قريـبٌ بمـا يناسـبُ بشريتنـا لا بمـا يليـق بألوهيتـه...

وكنـتُ أريـد منـه أن يُحدثنـي، أن يحـكي عـن أنـه معـي بمـددِه الـذي يأخـذني لمـا ينتظـرني...

وجاءني مددُه...

كان فتـىً مثـلي في العمـر وإن كان وجهُـه يُخـبر أنـه في الحكمـة قـد عـبر...

جـاءني وأنـا جالـسٌ بعيـدًا عـن النـاس وسـار إليَّ، أو ربمـا كان فقـط يسـير واكتشـفني في كشـفٍ مـن تجلياتـه فسـار إليَّ...

قال لي:

- تعال معي!

- إلى أين؟

- إلى حيث لا جسد.

- وأين هذا؟

- حيث نودع الأجساد ونسلم الأرواح إليه.

- في المقابر؟

- أجل.

ـ ولماذا؟

ـ سنبيت الليلة هناك.

ـ لماذا؟

ـ لنعود إليها غدًا.

لم أنتظر، فقط انطلقت معه إليها، وأنا أعلم أنه يأخذني إليه...

حبيبة

نظرتُ إليه، ولكني في الحقيقة كنتُ أنظرُ بدهشةٍ إلى حيث وصلت بنا خطواته...

كنا قد وصلنا إلى مقابر أشبيلية، كانت ملحقةً بكنيسةٍ تبدو حديثة العهد، ولكني شعرتُ بالأجساد التي تسكن الأرض تنتمي لأزمانٍ تعودُ في الزمن أبعد من عهد وجود ذلك المبنى...

ـ هل هذا هو المكان الذي قضيت فيه ليلتك معه؟

نظر إليَّ وقد عاد إليه هدوؤه:

ـ ليس بالضرورة هو نفس المكان، ولكنه تجربة شبيهة.

ـ هل تقصد تجربة الجلوس مع الأموات..

أدار ظهره إليَّ وتقدم بين شواهد القبور واختار أحدها وجلس على صخرةٍ مجاورةٍ، ورفع رأسه إليَّ كما لو كان يدعوني للجلوس.

ـ ليسوا أمواتًا وليس جلوسًا.

جلستُ إلى جواره وأنا أعلم أنه سيكمل حديثه فلم أسأل:

ـ الجلوس فعل تريدين فيه أن يقف بك الزمن عن السير، حين لا نعي الفعل يتحوَّل لعادة تقتل معنى الفعل، نحن لا نجلس ولكننا نُسلِم خيالنا لما سيكشفه لنا المكان والزمان، لما سيأخذنا إليه بوعيٍ منا...

ـ إذن نحن الآن حيث يريد منا الزمان لنُكمل رحلتنا فيه؟

ـ نحن حيث يريدنا وكفى، رحلة كلٍّ منا لم تقف لنُكملها، حين تُسلمين ذاتك بوعيٍ له، سيأخذك بمدده لخيالك في كل لحظةٍ لما يكشفُ رحلة الزمن فيك ورحلتك فيه...

ـ وكيف يرحلُ في الزمن؟

ـ هذه هي التجربة، لكلٍّ منا رحلته فيه ومعه، أنا في مكاني هذا في رحلتي وأنتِ في رحلتك..

ـ وهذا الفتى كان في رحلته...

ـ رحلته هي رحلتنا جميعًا...

ـ كيف ذلك؟

ـ حين خلقنا للوجود خلقنا لنسع الوجود، ولكننا لسنا دومًا على وعي بذلك، قليلٌ منا من يُدرك سعة ذاته، وأقل من يُدرك أنه يسع الوجود، ومن يبصر كل ذلك يحتوي الكون بزمانه ومكانه بفيض ممن خلقه...

ـ ولكن من هو هذا الفتى؟

ـ هو من أحضرك لهنا...

ـ نظرتُ إليه فوجدتُ وجهه يبتسم بإشراقه...

هو من أحضرني؟!!!

أخـذتُ أتذكـر، هـل يقصـد السـيد نـور، لا السـيد نـور فقـط بداخـلي، أم ربمـا كان لـه وجـود في زمـنٍ آخـر، لا ليـس هـو....

مَن يقصد....

ثم فجأةً تذكرت الأبيات:

أنـا القـرآنُ والسـبعُ المثـاني   وروحُ الروحِ لا روح الأواني
فـؤادي عندَ مشـهودِي مقيمٌ   يشـاهدُهُ وعندكُـمُ لسـاني

أخذت أردد الأبيات فنظر إليَّ:

ـ هو..

أغلقـت عينـيَّ وقـد بـدأت أنـوار معـاني الأبيـات تكشـفُ لي مـا سـيحكيه بعـد ذلـك، ولكنـي تركتـه يُكمـل قصتـه....

وبدأ يُكمل:

الشيخ الغريب

اسمه محمد

هكـذا أجابنـي حـين سـألته، لم أكـن مهتـمًّا باسـمه، ولكنـي وجـدتُ أننـا سـنقضي ليلـة معًـا في المقابـر، فـكان مـن الطبيعـي أن أعـرفَ مـن سـيكون رفيقـي...

كان شـابًّا صغير السـن، لم يتجـاوز الثامنـة عـشرة مـن العمـر، بـل ربمـا السـابعة عـشرة. مشـيته كانـت واثقـةً، كـما لـو كان يعـرفُ الأرض التـي تلمسـها قدمـاه، لم يكـن يطـأ الأرض، كان يلمسـها خفيفًـا كـما لـو كان مـن طبعـه الطـيران ولكنـه فقـط هبـط إلى الأرض ليسـير بي إلى حيـث يريـد...

لم أكـن أعـرفُ كيـف أبـدأ الحـوار معـه، عرفـتُ أنـه سـيتحدث، ولكنـي أردتُ منـه ألا ينتظـر إلى أن نصلَ ليبـدأ الحديـث، أردتُ منـه أن يبـدأ الآن، كنـتُ في عجلـةٍ مـن أمـري، أريـدُ أن أعـودَ إليهـا...

وتحدث:

- ليـس في الأمـر عجلـةٌ، الزمـن قصـيرٌ إذا حسـبته بأيـام الجسـد ولكنـه لا نهـائي إذا عشـته بحسـابه. مـا رأيـك أن تجـرب معـي اليـوم أن تعيـش يومًـا كألـف سـنة؟ حـين تكـون معـه كـن معـه...

- هل تعرف ما أريد؟

- يـا أخـي لا يعلـم الغيـب إلا اللـه، ولكنـي أعـرفُ أنـك إن سـلَّمت للغيـب سـتعرف مـا تريـد...

- أليـس وجـودي معـك وأنـا لا أعـرفُ مـن أنـت، وسـيري معـك لمـكان لا أعرفـه هـو تسـليمٌ منـي للغيـب؟

- حـين تبـدأ في الظـن أنـك تعلـم الغيـب مـن خلال سـلوك التسـليم فأنـت لسـت في الغيـب، الغيـبُ دائـمٌ، لا تفنيـه معرفتـك، وبالتالي اجعـل تسـليمك دائمًـا ولا تقتلـه بظـن معرفتك...

كنا لا نزال في الطريق ولكني أردتُ أن أفهم أكثر..

ـ اشرح ما تقصد!

ـ الغيـبُ الحـق مرتبـطٌ بالحـق، لـذا هـو لا ينتهـي لأن الحـق لا نهايـة لـه، فـإذا تحققـت بهـذه الحقيقـة، علمـت أن مـا تعرفـه عـن حالـك لـن يجعـل الغيـب ينتهـي، بـل هـو ظـن فالغيـب لـن ينتهـي، لـذا فتسـليمك للغيـب يجـب أن يكـون كذلـك بـلا نهايـة، لا توهـم نفسـك أنـك سـتعرفُ في لحظـةٍ مـا بعـد وقـتٍ قليـلٍ أو كثـيرٍ، أنـت دومًـا في غيـبٍ، فـلا تمنـع نفسـك حضـورك معـه في حقيقـة وجـوده...

ـ بالتسليم؟

ـ أجـل، مـا دام ليـس لـك مـن معرفـة حقـه وأن الغيـب هـو الحـق فتسـليمك هـو الـذي يكشـف لـك مـا في الغيـب بـدون أن يفنـى ذلـك الغيـب، فقـط تتعايـشُ معـه لتصـلَ لغيـبٍ أكـثر ...

ـ إذن ما جدوى الحياة إذا كان الغيبُ هو واقعها؟

ـ لهـذا نحـن ذاهبـون حيـث يـرى النـاس نهايـة الحيـاة، للمقابـر، لنعـرف عـن الحيـاة... لا تعجـلْ، وعـشْ معـي يومًـا كألـف سـنة بتسـليمك لغيـب بعمـر الدهـر....

كانـت الشـمسُ تسـير بمحاذاتنـا، تتجـه معنـا في اتجـاه غروبهـا، أو نحـن مـن كنـا نسـيرُ معهـا في اتجـاه الغـرب، تعجبـت قليـلًا كيـف أن الأجسـاد التـي يأخـذني للجلـوس بـين شـواهد قبورهـا، قـد وريـت تحـت الـثرى حيـث تختفـي الشـمس.

ربمـا تدفـن الشـمس نفسـها في نفـس الأرض لتنفذ لتضيء للأجسـاد الباليـة عالمهـا الخفـي عنـا. حـين يـأتي الليـل تغيـب الشـمس عـن عـالم

الأحياء، لتشرق على عالم الأموات، لتهب لهم الحياة، ليعودوا من جديدٍ في هيئة أرواحٍ تطوف حول شواهد القبور. هكذا شعرتُ، أو تخيلت، وهكذا شعرتُ أننا لا ريب ذاهبون لنتحدثَ مع الأرواح التي حضرت من عالم الموت، لتحكي لي كيف أحيا بلا موت...

لم أدر هل كان رفيقي على وعي بما أتخيله أم لا.

كانت شواهد القبور تظهر من حولنا ممتدةً، تقتربُ مع تتابع دقات قلوبنا الحية الصامتة، كما لو كنا لا نريد أن نحدث صوتًا في تلك البقعة الساكنة، لم يكن هناك من يتجه للقبور في الليل، كانت المقابر خارج أسوار المدينة، وحين يأتي الليل تصير خارج أسوار الإدراك البشري، لم يسكن هناك من يريد أن يعرف بوجودها في الليل، بل لم يكن هناك من يريدُ أن يمر خيالها على وعيه، خوفًا من قشعريرةٍ تخرجه من سكونه لاطمئنانه بظاهر الحياة التي يستمتع فيها بالضوء والصحبة النابضة بالحياة.

رغم أن الليل هو للسكون والنوم، الذي هو في الحقيقة شكلٌ من أشكال الموت، إلا أننا نتجنب التعمق في إحساس الموت بأن نفكر في القبور في الليل...

لذا حين اقتربنا كان الليل قد غلفنا بالسكون، فكنا كما لو كنا قد خرجنا عن الكون الواعي بحياته الظاهرة، ودلفنا إلى كونٍ لا يعيه إلا أنا وهو فقط...

حينها تذكرتها، هل تعلم أين أقف الآن؟

التفتُّ إلى رفيقي ولكنه لم يقف، استمرَّ في خطواته يسعى بين القبور، كما لو كان يريد أن يصل لنقطة ما يعرفها.

سرت خلفه متحسسًا خطواتي بما أسمعه من خطواته، فالظلام كان أشد مما توقعته، ونجوم الليل لم تكن بالقوة الكافية لتحل محل القمر الذي لم يكن بكامل دائرية إنارته.

استمرَّ السير دقائق قليلة، ولكني شعرتُ أنها أطول من ذلك، هل هذا ما يقصده بالألف سنة؟

حين يقلُّ اعتمادك على حاسة من حواسك رويدًا رويدًا يختفي العالم المحسوس، فتفقد الإحساس بما يقيسه لك، ومنه الوقت، لا ريب أن هذا ما يريدني أن أشعر به....

تزاحمت الأفكار داخلي، ومع كل خطوةٍ، يتكرر السؤال: هل تعلم أين أنا الآن؟

وحين لا أستطيعُ الإجابة، تتضاعفُ الأفكار ويزدادُ صوتها ارتفاعًا، فيغيب عني سكون الليل وصمت القبور، فأجد الحيرة تزدادُ حتى تعبت...

وحينها توقف، لم أره، ولكني لم أعد أسمع خطواته، فعرفت أنه قد توقف عن المشي، فتوقفت، وأغلقت عيني لكي أستمع، فسمعتُ أنفاسه تتردد عن قرب أمامي، فعرفت مكانه، ففتحت عيني، فتخيلت مكانه، ولكني بعد لحظةٍ وجدتني أتساءل، ماذا لو كان من أتخيله أمامي هو شبحٌ لروحٍ من أهل تلك المقابر؟

هممتُ بسؤاله، ولكنه بادرني، كما لو كان يريد أن يُسكن روعي...

- أعلم أن ما أنت فيه جديدٌ عليك، لذا دعنا نجلس لتستجمع أنفاسك اللاهثة. لقد وصلنا حيث سنقضي ليلتنا...

تنبهـتُ لحظتهـا لصـوت أنفـاسي، لقـد كنـتُ بالفعـل أتنفـس بسرعـة، لسـت أدري لمـاذا، حقًّـا لم أكـن أدري لأني لم أشـعرْ بنفـسي أعـدو خلفـه، ولكـن يبـدو أني بالفعـل كنـتُ أعـدو خلفـه بـدون أن أشـعر، وإلا مـا تفسـير أنفـاسي اللاهثـة...

لم أحـاول أن أشغل تفكيري بأنفـاسي أكـثر مـن ذلـك، فعينـاي قـد بدأتـا تعتـادان الظلمـة، فبـدأت أرى مـا حـولي شـيئًا فشـيئًا.

كانـت القبـورُ حولنـا قـد أخـذت شـكل الدائـرة، وكنـا في وسـط الدائـرة. فهمـت الآن إلى أيـن كان يسـير بنـا، كان يريـد الوصـول لمنتصـف المقابـر، نقطـة البـدء التـي حولهـا بـدأت القبـور تضـاف يومًـا بعـد يـوم.

حـول هـذه النقطـة وَري الـتراب أول جسـد، ثـم أُضيفـت الأجسـاد حولهـا، واحـدًا بعـد الآخـر في دائـرةٍ صغـيرةٍ، ثـم حـين اكتملـت الدائـرة، أُضيفـت الأجسـاد لدائـرةٍ أوسـع مـن الأولى، ثـم حـين اكتملـت الدائـرة الثانيـة بأجسـادٍ جديـدةٍ، تمـت إضافـة دائـرة ثالثـة، وهكذا....

ـ نحن الآن في نقطة المنتصف، أليس كذلك؟

ـ لا، ليس كذلك، اقترب مني!

تـرددت لحظـةً ثـم أخـذتُ أقـتربُ مـن جسـده الـذي تخيلـت أنـه هـو، كنـت مـترددًا في البدايـة، مـا زلـت لا أعـرف هـل مـا أتخيلـه شـبحًا أم هـو. ولكنـي اقتربـتُ..

وحـين لمسـتْ يـدي يـداه التـي تخيلتهـا ممـدودةً في الظـلام، أخذهـا في يـده ثـم أجلسـنا عـلى الأرض وهمـس لي:

ـ الآن نحن في نقطة المنتصف...

حَبِيبَة

سرتْ في جسدي قشعريرةٌ لا إرادية، كان الشيخ الغريب يروي قصته بصوتٍ تملؤه مشاعر اللحظة التي عاشها، فكنتُ أشعرُ بما يشعر به، حتى أني قد أغلقتُ عينيَّ لأشعر بالظلمة التي كان يسيرُ فيها...

شعر بجسدي يرتجف قليلًا، فنظر إليَّ، أو هكذا شعرتُ، لأن عينيَّ كانتا مغلقتيْن، ولكني شعرتُ به ينظر إليَّ، بل شعرتُ به يبتسم، أو لعله كان يريد أن يبتسم، لأني سمعته يهمسُ لي بصوتٍ خالٍ من الابتسام:

- لنُكمل غدًا!

لم أكن أحتاجُ لأن أفتح عينيَّ لأعرف أنه قد رحل، لذا لم أحاول أن أنظر، بل تركتُ نفسي مغمضة العينين، وعدلت من جلستي، واستحضرت إحساسي به بين القبور، ثم نمت، كنتُ أريد أن أنام لأبصر رؤيا جديدة، كنت كمن قد اعتاد على تلك الرؤى التي تكشف لي المزيد، التي تُكمل ما أراه في صحوي...

لذا نمت وأنا أنتظر الرؤيا، ولكنها لم تأت، لم أدرِ كم نمتُ، ولكني فتحتُ عينيَّ مستيقظةً بدون أن أرى رؤيا كاشفة.

انقبض قلبي قليلًا..

واعتدلتُ في جلستي، كنت ما زلت في موضعي ولكن كان هناك نورٌ للشمس. شعرتُ أني مستغربةٌ لوجود نور الشمس...

كان حديث الشيخ الغريب عن الموت والقبور والليل والظلام قد جعل الشمس أمرًا غريبًا عليَّ في تلك اللحظة...

وفي استغراقي في استغرابي لغربتي عن النور تذكرت السيد نور...

لقد كان السيد نور مثله مثل الرؤى التي تأتي خلال الأحداث التي أتعرف بها قصتي مع الشيخ الغريب، لذا وجدتني كذلك في انتظار أن يظهر لي، أريد بعض التوضيحات لما تعرفت عليه، قمتُ من موضعي، والشمس تمنعني من أن أفتح عينيَّ لأرى بوضوح، لذا فتحت أجفاني قليلًا وأخذت أحاول أن أعتاد على النور، ولكني لم أستطع أن أتعود عليه، كان النور مبهرًا، كما لو كانت الشمسُ تسطع أمامي، أو كما لو كنتُ أنا من صعدت للسماء وأخذت أحدق في عين الشمس...

رويدًا استسلمت وأغلقت عينيَّ، لم أكن أريد النوم ولكني أريد أن أستسلم، ما الذي سيحدثُ لو لم أفتح عيني؟ هل في شعوري بالنور بدون أن أبصر ما يكشفه لي، يكفيني؟

أنا أشعرُ بالنور محيطًا بي، بل أشعر به يمنعني من رؤية تتجاوزه، يريدني أن أكتفي بأن أشعر به، وأترك نفسي لتلك الحقيقة، بدون أن أسعى للمزيد، ما الذي سيحدث لو توقفت عن محاولة مقاومة النور؟

فقط أستسلم له، بدون أن أفتح عيني، لأرى به؟

هل في ذلك كفرٌ بالنور؟

هـل في ذلـك جحـودٌ لمـن أوصلنـي لأشـهد النـور في منبعـه، مـن حيـث يـشرق؟

تركـتُ نفـسي مغمضـة العينـين، بـدون أن أسـعى لأن أحـاول أن أبـصر خـارج أجفـاني، ورويـدًا رويـدًا لم يعـد يؤلمنـي وجـود النـور ولكنـي بـدأت أبـصر بـه مـا بداخـلي؛ رأيـت لوحـة الفسيفسـاء، وأبصرتهـا في وضـوح الشـخصيات الآن، تعرَّفـت عـلى الشـيخ الغريـب وهـو جالـسٌ متأمـلًا في فاطمـة وهـي تسـير في اتجـاه البـاب الكبـير...

ورأيـت نفـسي في موضعـي، بـل رأيـتُ نفـسي كـما لـو كنـتُ انعكاسًـا لـذاتي وأنـا جالسـةٌ في موضعـي، لم تكـن الملامـح لي، ولكنهـا كانـت أنـا، كانـت ملامحهـا تُخـبر عـن أنهـا أنـا، ولكنهـا في مجموعهـا إنسـانة مختلفـة...

هل هذه أنا؟

لا بـد أنهـا أنـا، أنـا أرى بوضـوح الآن، لا بـد أن هـذه هـي أنـا في وضـوح رؤيتـي..

هل هذه هي أنا الأكثر قربًا من ذاتي الحقيقية؟

هل هذه أنا في النور؟

- ربما.

استيقظت من رؤياي على صوت السيد نور:

- ربما هي أنا؟

- أجل.

- ولكني أعرف أنها أنا، لقد أبصرتها من قبل وأعرف أنها أنا.

ـ وما دليلك؟

سـكت للحظـة، بدايـةً لأدرك هـل بالفعـل قـد اسـتيقظت هـذه المـرة أم مـا زلـت في الرؤيـا، ثانيًـا لأني بالفعـل لم يكـن لـدي دليـل سـوى ذاتي.

ـ أتذكـر إحسـاسي حـين نظـرتُ إلى ذاتي في تلـك الرؤيـا وأنـا نائمـةٌ مــن داخــل اللوحــة، أذكــر أني تعرفــت عــلى ذاتي واســترحتُ لمعرفتــي تلــك.

ـ ولكن هذا ليس بدليلٍ..

ـ ولكنه يكفيني لأطمئن...

ـ إذن لا تشـك حـين أقـول ربمـا، بالنسـبة لي ربمـا هـي أنـت ولكـن رأيـي لا يهـم مـا دمـت مطمئنـة...

ـ ولكنـي فقـط مطمئنـةٌ ولسـت واثقـةً، والدليـل أني توتـرت حـين شـككتُ في إحسـاسي...

ـ لــذا أقــول لــك يكفيــك الاطمئنــان فــأي شيءٍ غــير ذلــك لــن يأخــذك لمثــل هــذا الاطمئنــان. لــن تعــرفي الثقــة لــو انتظـرت تأكيــد الآخريــن، لــذا يكفيــك الاطمئنــان...

ـ لمــاذا إذن أشــعر بالاطمئنــان لــذات لا تشــبهني ولكنــي أعــرف أنهــا أنــا؟

ـ ربمـا لأنـك خـيرُ مـن يعـرف نفسـك؛ يُعـاني البـشر مـن داء الاعتياد عـلى مظهـر لا يُدركـون أنـه سـيتغير بمـرور الوقـت، وحـين يتغـير يحسـبون أن الدنيـا تتغـير عليهـم ولكنهـا في الحقيقـة هـي هـي

ولكن بتطور المعرفة وتطور الشيء ذاته تظل هي هي. أنت كذلك لم تتغيري ولكنك صرت أكثر قدرةً على الرؤية فأبصرت ما كان خفيًّا عنك وحسبتيه جديدًا ولكنك في النهاية الوحيدة القادرة على أن تبصر ذاتها الحقيقية خلف كل كشفٍ جديدٍ...

ـ هل تعني أني أصبحتُ في حالٍ أفضل الآن عما كنته من قبل؟

ـ لا تحتاجي لي لتعرفي مثل هذه الحقيقة يا حبيبة...

شعرتُ به يبتسم..

كان عنده حق في ذلك، لقد صرتُ أعرفُ نفسي بشكلٍ أفضل، أصبحتُ أكثر ثقةً في معرفتي بنفسي...

ولكن ما زالت الحيرة مرتبطةً بالشيخ الغريب، إلى أين يأخذني بقصته...

كالعادة اختفى السيد نور ولم أجد إجابةً على حيرتي غير أن أترك نفسي تحتارُ أكثر وصولًا لما يمكن أن تكون عليه نهاية القصة؛ لو افترضنا أن هناك نهاية...

كنتُ الآن أعلم أني قد استيقظت، لم أكن قد تذوقت طعامًا من وقتٍ لم أحسب مدته، ولكني شعرتُ لحظتها أني بحاجةٍ للطعام.

كان الجوعُ هو مُحركي الآن، لم أكن أعرف بالتحديد أين موقعي، ولكن الوقت كان قد تجاوز الثامنة صباحًا، كانت المنطقة بالفعل معزولةً عن الحياة في المدينة، كانت خير موقع ليسكن فيها الموتى.

انطلقـت خـارج جـدار المقابـر وسرت قليـلًا في ذلـك الطريـق الممهـد حتـى بلغـت أول الطريـق الرئيـسي، ولم يكـن صعبًـا بعـد ذلـك أن أجـد اسـتراحةً عـلى مقربـةٍ مـن مدخـل المدافـن.

دلفـت إلى حيـث يتـم تقديـم الطعـام، ووجـدت سـيدة في الخمسينيات مـن عمرهـا، بـدت كـما لـو كانـت قـد فوجئـت بي، ربمـا لأن شـكلي لم يكـن إسـبانيًّا ونوعًـا مـا كان ذلـك الموقـع عـلى طريـقٍ بعيـدٍ عـن الأماكـن التـي يرتادهـا السـائحون في الغالـب.

ولكـن عينيهـا كانتـا تحمـلان شـيئًا أكـثر مـن الاسـتغراب، كان هنـاك نـوعٌ مـن الخـوف، وتسـاءلت بينـي وبـين نفسي، هـل تحولـت إلى شـبحٍ بعـد قضـاء الليـل في المقابـر أم أنهـا شـعرت أني لا أنتمـي لهـذا العـالم الـذي تعمـل فيـه لتخـدم العابريـن عـلى هـذا الطريـق في هـذا الصبـاح؟

كان الجـوع أقـوى مـن أن يوقفنـي عنـد تلـك الأسـئلة، فجلسـتُ عـلى أقـرب طاولـةٍ منهـا وأشرت إليهـا. كنـتُ أعـرف بعضًـا مـن الكلـمات الإسـبانية التـي سـاعدتني عـلى أن أطلـب القهـوة وطبقًـا مـن البيـض المخفـوق...

كان مـن الواضـح فعـلًا أن هنـاك شـيئًا بشـكلي غـير مريحٍ للسـيدة، فلقـد كانـت تتجنـب النظـر إلى عيـوني وأنـا أحدثهـا، وإن حـدث والتقـت عيوننـا تبعدهـا سريعًـا كـما لـو كانـت بالفعـل تخـشى مـن أن يلحـق بهـا أذى...

توجهـتُ للحـمَّام المُلحـق بالمـكان وبمجـرد مـا نظـرتُ في المـرآة عرفـتُ مـا الـذي كان يرعـب السـيدة، وعذرتهـا...

كانـت عيـوني تغـرق في لـونٍ مـن الـدم، وليـس اللـون الأحمـر، كان أحمـر قانيًـا بشـكلٍ يُعطـي الإحسـاس أن جفـوني تُخـرج دمًـا بـلا توقـف.

مـا هـذا؟ لا ريـب أنـه مـن قلـة النـوم، واكتشـفتُ لحظتهـا أني لم أنـم بشـكلٍ طبيعـي منـذ وقـتٍ طويـلٍ، حقيقـةً لا أعلـم بالتحديـد متـى آخـر مـرةٍ نمـتُ وأيـن، ليـس فقـط متـى وأيـن في هـذا العـالم بـل ربمـا متـى وأيـن في عالمـي...

لم أدر مـا الـذي حافـظ بداخـلي عـلى التفرقـة مـا بـين العالمـين، كان كل شيء مـن حـولي يأخـذني للإيمـان بـأني أنتمـي لهـذا العـالم الـذي عشـتُ فيـه قبـل وجـودي في اللحظـة التـي عُـدت فيهـا إليـه مـن جديـدٍ لـكي أعيشـه بـذاتي التاليـة لتلـك اللحظـات.

في البدايـة كنـتُ أحسـب نفـسي هنـا في حلـم أو رؤيـا مـن نـوعٍ مختلـفٍ، ولكـن رويـدًا رويـدًا أدركـتُ أني هنـا بجسـدي، بكامـل وعـي وبدقـة شـعوري، مـا زلـت لم أعـرف كيـف حـدث ذلـك، وهـل عُـدت في الزمـن أم فُتـح لي بـابٌ يأخـذني لعـالمٍ مـوازٍ لعالمـي، أنتقـلُ فيـه بحريـةٍ بـدون أن أُحـدث تأثـيرًا عـلى الزمـن في عالمـي.

الـذي أعرفـه بالتأكيـد هـو أني لا أنتمـي لهـذا العـالم، هنـاك حاجـزٌ يفصـلُ بينـي وبينـه، لعلـه وعـي بـذاتي التـي وُجـدت قبـل أن أحـضر إلى هنـا.

حينهـا شـعرتُ بتلـك الفكـرة المجنونـة، ربمـا أحتـاجُ أن أفقـد وعيـي الكامـل بـذاتي الأصليـة، لأنتمـي بكامـلي لهـذا الوجـودِ الـذي لا بـد أنـه وجـودي الحقيقـي الآن.

ربما هـذا مـا قصـد إليـه السـيد نـور حـين قـال إني خـيرُ مـن يعرف نفـسي، ربمـا أحتـاجُ ألا أتذكـر ملامحـي القديمـة وأنسـاها وأتـرك ذاتي لملامحـي التـي تتشـكل رويـدًا رويـدًا.

في النهايـة أنـا أنـا، لا سـبيل لأن يأخـذ ذاتي وجـودًا مختلفًـا، ولكـن مظهـري وإدراكي للكـون مـن حـولي سـيختلف، فلـن أراه بحـواس مـن أتـت مـن عـالمٍ مختلـفٍ، بـل سـأبصره بنفـس حواسـه، سـأكون عـلى نفـس الموجـة معـه.

توقفـت قليـلًا أتأمـل شـكلي في المـرآة، وشـعرتُ بأنـه يتغـير مـع تبلـور الفكـرة بداخـلي...

غسـلتُ وجهـي جيـدًا وتأكـدت مـن أن عيـوني أصبحـتُ مرعبـةً بشـكلٍ أقـل، وخرجـت مـن الحـمام متوجهـة للطاولـة الخاصـة بي.

وجـدتُ السـيدة تتحـدث مبتسـمةً مـع الشـيخ الغريـب، الـذي كان قـد جلـس عـلى الطاولـة الخاصـة بي.

التفتــت الســيدة إليَّ وبالفعــل بــدت أكــثر راحــةً في النظــر إلى وجهــي، ولم أعــرف هــل هــو نتيجــةً لعينــي التــي أصبحــت أقــل احمــرارًا أم لحديثهــا مــع الشــيخ الغريــب.

أفسـحتُ لي لـكي أجلـس في مواجهتـه، وابتسـمت لنـا وهـي تتركنـا لتذهـب لتحـضر طلباتنـا.

تابعهـا الشـيخ الغريـب بنظرتـه، ثـم التفـت إليَّ والتقـت عينـي بعينـه للحظـة كانـت كافيـة لأعلـم أني يجـب أن أنـسى جوعـي لأنـه سـيأخذني مـن جديـدٍ إلى حيـث لا جـوع ولا شـبع...

الشيخ الغريب

أجلسني حيث أشار إليَّ، جلست في مواجهته، تربعنا أرضًا وجهًا لوجه، شعرتُ بعظام قدمه تلتصق بعظامي.

أقولُ شعرتُ لأني من هذه اللحظة لم أعد أراه، فقط أشعرُ به، حتى في ضوء النجوم والقمر الخافت من خلف سحابات الليل، لم أعد أرى ملامحه، فقط أشعر به، وأسمع صوته، حين يُحدثني...

ولكني مع ذلك كنتُ أشعر بعينيْه تنظران من خلالي للكون.

وتركتُ عينيَّ تعتادان على المكان..

- بل أترك قلبك يعتاد على المكان أولًا...

همس بصوتٍ يكاد يُسمع لمن حولنا ولكنه بدا مدويًّا لي، كما لو كان هذا الكون من حولنا هو فقط متفرج صامت ونحن على خشبته نؤدي دورًا خاصًّا بنا مستغلين مسرحه.

- كيف يعتاد القلب المكان؟

- الكون مخلوقٌ، والقلب مخلوقٌ، لا تخشَ الكون ما دام كلاكما خلقتما من نفس النفس... تعرف على إيقاع الكون في اتساقٍ مع إيقاع دقات قلبك، اترك قلبك يبحث عن الإيقاع المناسب لهما، لا تقلق، القلب يعرف طريقه هنا...

- ولكننا حيث الموتى، فكيف يعرف القلب الحي طريقه بين الموتى؟

- حين يسكن القلب، وتعتاد دقاته إيقاع قلوب الموتى، سيجد طريقه.

- وهل للموتى قلوب تدق؟

- الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا، هنا سيسمعُ القلب لصوت القلوب التي تدق بصدق. في عالم الموت هنا ستجد الأرواح اليقظة، الأرواح التي تسبح فيما بين عالم الأموات الأحياء والأحياء الأموات...

- إذن هذه الأرواح أصدق من يأخذني إليها؟

- هذه الأرواح ستساعد قلبك على أن يترك نفسه لعالمٍ جديدٍ، مختلفٍ، وهناك ستعرف أين ستصل وكيف...

صمت بعد أن انتهى من جملته، وكما لو كان ذلك إذنًا للصمت بأن يُحيط بنا، أدركتُ لحظتها أن الكون بأجمعه قد سكت، حتى صوت أوراق الشجر، وأزيز حشرات الليل، وحتى صوت السحاب المتحرك فوق رأسي لو كان له صوتٌ قد صمت...

لم يكن هناك سوى صوت أنفاسي، حتى تلك شعرت أنها قد توقفت عن أن تصدر صوتًا...

الصوتُ الوحيدُ الذي بدأ خافتًا ثم بدأ يتصاعد رويدًا رويدًا هو صوت دقات قلبي، أو لأكون دقيقًا، دقة قلبي...

أجل دقة قلب واحدة، تتكرر، هي نفس الدقة التي بدأت، شعرتُ بذاتي تبصرها في تكرارها، لم يكن القلب يدق سوى نفس الدقة، مرة بعد أخرى، والصوت يتصاعد. لدهشتي، لم يكن الصوتُ هو ما أسمع، كان جسدي هو ما يتفاعل بأكمله

مـع دقـة القلـب تلـك، مـع كل تصاعـد كان جسـدي يصعـد درجـة، يرتقــي...

وجـدتُ جسـدي خفيفًـا، يحملـه دقـة قلبـي ويصعـد بـه إلى حيــث لا أعــرف...

لم يكـن الفتـى يصعـد معـي، ولكنـي لسـببٍ مـا كنـتُ أعـرف أنـه يعـرف مـا أمـرُّ بـه، كنـتُ أريـد أن أعـرف أيـن هـو، ولكـن بعـد لحظـاتٍ نسـيت وجـوده.

قبـل أن تتوقـف دقـة القلـب، أدركـتُ أنهـا تتحـدث، تُحدثنـي في كل مـرةٍ بكلمـةٍ مختلفـةٍ، كانـت نفـس الدقـة ولكـن ليـس نفـس الكلمـة، كانـت تُلقننـي لغـةً خاصـةً لم أسـمع بهـا مـن قبـل. وحـين توقـف قلبـي عـن الـدق، كنـت قـد تعلمـت تلـك اللغـة التـي سـأحتاجها حيـث سـأصل...

حـين توقـف قلبـي علمـتُ أني حيـث أخـبرني الفتـى، كنـتُ مـا زلـت في ظـلامٍ، ولكـن ليـس ظـلام القبـور حيـث بـدأت، ظـلام يـلازم محيـط عينـي، كنـتُ أشـعر بجسـمي في نـورٍ دافـئ، ولم تكـن عينـاي مغلقتـيْن ولكنهـما محاطتـان بغلالـةٍ مـن ظـلام.

سـمعتُ صوتًـا يُحدثنـي بحـروفٍ مـن اللغـة التـي تعلمتهـا في صعـودي، كنـتُ أعـرفُ الحـروف ولكـن تركيـب الكلـمات عجيـبٌ، فالألـفُ هـي الألـف والـلام هـي الـلام والـكاف والنـون والـواو وبقيـة الحـروف هـي هـي، ولكـن تركيـب الحـروف لم يكـن بترتيـب الكلمـة، ولكـن بالمعنـى الخـاص بـكل حـرف.

كان لـكل حـرف معنـى خـاص في هـذا الوجـود، فالألـفُ مـن معانيهـا الوحـدة والعـين مـن معانيهـا المعيـة والـواو مـن معانيهـا الـود والقـاف مـن معانيهـا القـدرة والـكاف مـن معانيهـا الكيفيـة، فحـين تجمـع الحـروف لم تكـن تجمعهـا بالكلمـة، ولكـن بالمعنـى الـذي تُريـد لـه أن يصـلَ.

لـذا حـين تحـدث إليَّ ذلـك الصـوت لم يكـن يتحـدث بكلـماتٍ ولكـن بحـروفٍ تركَّبـت في معـانٍ، فـكان الحديـثُ عذبًا يصـل بـدون أن أحتـاجَ أن أسـمع...

«لا تحك عني، ولكن أخبر عني...

لسـت قصـة لترويهـا ولكنـي وحـيٌ خـاصٌّ لـك، أنـت وحـدك ستسـمع منـي، ووحـدك سـتفهم عنـي، لا تجعلنـي لغـيرك، فأنـت لي وحـدك، فكـن لي وحـدك...»

لم أكـن أدري مـن يتحـدث، هـل هـو رجـل أم امـرأة، لم أدر لـه عمـرًا، كان صوتًـا يحمـل كل الأجنـاس والأعـمار، صـوت العـالم الـذي أعيـشُ فيـه، غـير أنـه يصلـح لكـونٍ سـابقٍ ولاحـقٍ، صوتًـا لـكل أحوالي، لأنـه ممتـزجٌ بـكل أحـوال الحيـاة، بـكل أحـوال الغيـب وكل صنـوف المعرفـة...

هـل جربـتِ يومًـا أن تجمعـي كل مـا عشـته مـن تجـارب ومـا ستعيشـينه، وكل مـا مـرَّ بـكل مـن مشـاعر ومـا سـيمر بـك، وكل مـا حصلـت عليـه مـن معـارف ومـا سـتحصلين عليـه، وكل مـا لديـك مـن أفـكار ومـا سـيكون لديـك، هـل جربتـي أن تسـمعي لهـم في وقـتٍ واحـدٍ بـدون أن تشـعري بهـم يتداخلـون فيـما بينهـم، يتداخلـون لمجـرد البحـث عـن أيهـم تسـمعينه في البدايـة، أو يتداخلـون لمحاولـة

كل منهـم أن يقنعـك أنـه واقعـك أو أنـه مسـتقبلك الحـق، أو أنـه ماضيـك الـذي كونـك وشـكلك....

في ذلـك المـكان حيـث حملتنـي دقـة قلبـي الموحِـدة بحقيقـة وجـودي الواحـد، بـدا كـما لـو كان مـن حـضرت عنـده قـد أودع كـوني في تناغـم لفظـي خـاص بـه، فصـار يحدثنـي بمـا أعرفـه عـن نفـسي، ولا يعـرف بـه غـيري، ويخـبرني بمـا لا أعرفـه بعـد عـن نفـسي ولكنـي أتمنـاه أو أرجـوه.

معـه مكثـت لمـا شـاء ولمـا شـئت، كلانـا كان في حديـث مـع الآخـر، هـو يُخـبر عنـي بحقائـق كـوني وأنـا أغـذي حديثـه بخيـالي وتفاصيـل ظنـوني وأحلامـي وجمـوح خواطـري...

كشـف لي مـا لا أسـتطيع أن أبـوح بـه، ولقننـي مـا أعلـم أني يجـب أن أوصلـه للكـون، في لحظـة الصـدق تلـك، حـين تركـت ذاتي خلفـي وامتزجـت بحيـث أرادني، رزقنـي دقـة قلـب تُميتنـي ثـم تُحيينـي، تُميتُنـي بعيـدًا عـن الوعـي الـذي يُعيقنـي فتحرمـه مـن دقـات قلـب يُسـاعد الجسـد المُتعلـق بـه عـلى الحيـاة، فتوقـف القلـب في دقـة، ثـم في نفـس ذات الموتـة كانـت اليقظـة، فكانـت دقـة واحـدة تكفـي لتصعـد بالقلـب الصـادق لحيـث لا يعلـم وحيـث يعلـم...

لحيث لا يعلم حيث يعلم...

«لقـد عرفتنـي مـن قبـل، ولكنـك مـا رأيتنـي، ولـن تـراني، ولكنـك سـتبصرني حـين تتحقـق مـن أنـك تعرفنـي»

مـا رأيتـه غـير أني عرفتـه، هكـذا حدثنـي الصـوت، وهكـذا بدأنـا نتعـرف لنتحقـق...

حبيبة

- من هو هذا الصوت..؟

قاطعته بفضولي...

توقف قليلًا ثم رفع عينه ونظر إلي عيني وهو يقول:

- هـو صـوت كونـك حـين يتحـدث بلغـة ذاتـك.... تذكـري دومًـا حبنـا لـه كان بدايتـه سـماعًا وليـس رؤيـةً...

رحـل بعـد قولـه هـذا، أو لم يرحـل، حقيقـةً لم أنتبـه، شـغلني قولـه عـن الصـوت، وعـن العلاقـة التـي بـدأت بالسـماع قبـل أن تكـون هنـاك رؤيـة، شـغلني لأني تخيلـت السـيد نـور، لم أتخيلـه شـكلًا فأنـا لا أعـرف شـكله، ولكنـي تخيلتـه صوتًـا، هـو دومًـا كان صوتـا بداخـلي، لم أعـرف لـه مظهـرًا في حيـاتي غـير هـذا، صوتًـا...

هل هو نفس الصوت الذي تجلى للشيخ الغريب؟

كنـت أريـد السـيد نـور لأسـأله ولكنـي أعـرف أنـه لـن يـأتي لطلبي ولكـن سـيأتي لحاجتي بـدون أن أدري...

تجمعــت لــديَّ اللحظــات التــي ســمعت فيهــا صوتــه، لم تكــن بطلبـي ولكنهـا دومًـا حـين أحتـاج إليـه، حـين تكـون اللحظـة بداخـلي تحتـاج منـه أن يكشـف لي مـا لا أعـرفُ حتـى وإن كنـتُ لا أعـرف أني لا أعـرف.

قمـتُ مـن مـكاني وتركـتُ للسـيدة حسـابها وتوجهـت لـكي أخـرج لأسـير في اتجـاه المدافـن التـي تركتهـا في الصبـاح بحثًـا عـن الطعـام. ولكنــي توقفــتُ حــين تذكــرت أن جســدي بحاجــةٍ للراحــة، عُــدت

أدراجـي للسـيدة وسـألتها بإنجليزيتـي والقليـل مـن الإسـبانية الـذي لـديَّ أني بحاجـةٍ لغرفـة لسـاعات قليلـة. ويبـدو أن صـوتي كان متعبًـا بشـكلٍ شـارحٍ لحاجتـي، فأشـارت إليَّ أن أتبعهـا، وصعـدت بي سُـلمًا صغـيرًا كان مختفيًـا خلـف بـاب المطبـخ، ودخلـت بي غرفـة ليسـت بالكبـيرة ولا الصغـيرة ولكـن كان يقبـع في منتصفهـا سريـر متوسـط الحجـم ملائـم لغـرضي...

اسـتلقيت في هـدوءٍ وأنـا أشـكرها بإسـبانية، أو هكـذا تخيلـت، كل مـا أتذكـره هـو أني أغلقـت عينـي ثـم جـاءت فاطمـة...

في البدايـة لم تكـن تتحـدث، فقـط جلسـت إلى جواري عـلى السرير، ظننـت لوهلـة أنهـا السـيدة صاحبـة المـكان قـد عـادت لتطمـئن عـليَّ، ولكنـي أدركـتُ أنهـا فاطمـة، كان ذهنـي متعبًـا كجسـدي، كنـتُ عـلى شـفا أن أطلـب منهـا أن تدعنـي أنـام قليـلًا حتـى أسـتطيع أن أواصـل هـذه الرحلـة، ولكنهـا لم تمهلنـي وهمسـت:

- ليس للمحب أن ينام.

كنـتُ أشـعر أني لـن أنـام ولكنـي قمـتُ فزعـةً أو مندهشـةً، ليـس مـن قولهـا أو مـن وجودهـا ولكـن لأنهـا كانـت تتحـدثُ والصـوت هـو صـوت السـيد نـور، كـما لـو كان نابعًـا مـن داخـلي...

- هل أنتِ السيد نور؟

لم يبـد السـؤال متسـقًا لغويًـا ولكنـي كنتُ فعـلًا متعبةً ومندهشـةً لأُركـز في صيغته.

- ليـس للشـكل قيمـة بـدون معنـى وكذلـك ليـس للصـوت سـماع بـدون كلمـة...

إذن لقـد حـضرت فاطمـة بصـوت السـيد نـور، أو حـضر السـيد نـور في شـكل فاطمـة، أدركـت أنـه لا يفـرق مـا دام الـكل واحـد...

الكل واحد..

- هل هذا هو السر، الكل واحد؟

رأيتها تبتسم أو شعرت به يبتسم..

- الواحـد واحـد ولكـن الـكل منـه، لـذا حـين تسـمعين الصـوت أو تريـن الشـكل فكلاهـما واحـدٌ إن تعرفـت عـلى الأصـل...

- وهل هذا هو الصوت الذي يُخاطب الشيخ الغريب؟

- عليك أن تتعرفي عليه منه.

- لقـد تعبـت ولم أعـد أسـتطيع أن أسـتمر هكـذا بـدون أن أعـرف مـا الهـدف

كنــت فعــلًا متعبــة، وأشــعر بقلبــي مقبوضًــا، لم يعــد يشــعر بالانبسـاط الـذي كان يصاحبـه حـين يسـمع للسـيد نـور أو يكتشـف جديـدًا مـع الشـيخ الغريـب يأخـذه لحيـث يبـدأ حيرتـه مـن جديـد. كنــتُ أشــعرُ أن روحــي قــد أنهكتهــا الحــيرة...

اقتربــتْ منــي فاطمــة وقبلــت جبهتــي وأغلقــتُ عينــيَّ وشــعرتُ بهـا تطلـب منـي أن أنـام. شـعرتُ بهـا هـي كأمٍ لي ولم أشـعر بالسـيد نـور...

لم أشـعر بـشيء غـير أني نمـت. أجـل شـعرت بالنـوم يتملكنـي، كـما لـو كان تعـب الجسـد مـن الشـدة بحيـث تطَلَّـب مـن النـوم أن يـأتي بنفسـه ليحتوينـي، لأشـعر بـه، حـين ننـام نشـعر بأنفسـنا في اللحظـة

التي تسبق النوم واللحظة التي تليه، وما بينهما لو شعرنا به فهو في الغالب نعتبره من الأحلام، ولكني في تلك اللحظة شعرت بالنوم، حين دخل على وجودي، وسلمت له ذاتي، وأحاط بحواسي، فمنع عني الكون وتركني مع داخلي، حيث كوني الخاص، ولكنه أحاط بأفكاري وعزلها عن فكري، وغَلَّف مشاعري بأغلفة من قطن ناعم، شعرت بملمسه حين اقتربت مشاعري من شعوري فلم تثرني بل أثرَت مخزوني من الراحة، الذي بدأ يتمدد من شعوري وفكري لبقية كياني. شعرت بالنوم يعمل عمله، أبصرته يقوم بما يقوم به كل ليلة ولكني لم أكن أعلم به. ثم تركني لكي لا أنشغل بمراقبتي له عن نومي...

ثم استيقظت وكان هو جالسًا حيث كانت فاطمة تجلس..

- هل ما زلت في نومي؟

سألته بدون صوتٍ فأجابني بصمت...

- أشعر أني ما زلت في النوم وهذا حلم جديد..

هذه المرة سمعت صوتي، لذا تحدث بصوته..

- لا يهم، المهم هو شعورك بالراحة، هل ارتاح عقلك قليلًا؟ هل قل الانقباض الذي أرهق شعورك؟

- أجل، أشعر أني أفضل. هل ستُكمل قصتك مع الصوت والفتى وفاطمة؟

حين ذكرت اسمها تذكرت أنها هي من قبلتني للنوم قبل أن أغلق ذاتي خلف باب النوم...

- سأُكمل.

كنتُ أشعر أنه يعرفُ أني أرى فاطمة ولكن يبدو أنه لم يكن يريد أن يصرفه هذا عن قصته، بدا لي كما لو كانت رسالته في الحياة الآن هي أن يفرغ من القصة، أنا كذلك، أريد أن أصل لنهاية لهذه القصة، ربما لأني شعرت لسبب ما أن نهاية القصة ترتبط ببداية جديدة لي، وكنتُ متشوقةً لأعرف تلك البداية التي ستولد من رحم النهاية...

اعتدلت في جلستي وقام هو وأشار إلي أن أبقى مكاني وجلس هو على كرسي مقابل للسرير وبدأ يتحدث....

الشيخ الغريب

„لقد عرفتني من قبل، ولكنك ما رأيتني، ولن تراني، ولكنك ستبصرني حين تتحقق من أنك تعرفني"..

هكذا أخبرني الصوت...

كنتُ أريد أن أعرف أين الفتى محمد هل هو بالأسفل أم هو معي حيث ارتقيت أم هو من يرتقي بي.

حين تصل لمكانٍ جديدٍ عليك تمامًا تجد ذاتك تبحث عن أي شيء تعرفه لتشعر بالأُلفة ويقل إحساسُ الغربة بداخلك. وفي تلك المقابر وفي هذه اللحظة رغم ما يُخبرني به وما أفهمه من سماعي لهذا الحديث بأني أعرف ما يحدث لي غير أني لم أتحقق

منـه بعـد، شـعرتُ أن ذلـك الفتـى الـذي أرشـدني لهنـا هـو الوحيـد الـذي سيُشـعرني بقـدرٍ مـن الفهـم بمجـرد وجـوده...

كنـتُ بحاجـةٍ لذهـنٍ بـشري لجـواري حتـى لا أشـعر أني في جنـوني أتوهـم مـا حـولي...

ولكنه لم يكن موجودًا كان كالعدم لم يكن في الأصل...

كنـتُ مـا زلـت في تلـك البقعـة، حيـث النـور يحتـوي الجسـد ولكنـه ينفـذ إلى الـروح فتبـصر بمـا يكشـفه لـه ذلـك النـور...

رويـدًا تركـتُ جسـدي يشـعرُ بـذرات النـور تسـيل عـبر مسـام جلـدي، تركـت إحسـاس النـور يُنسـيني كل شيء سـواه...

كان مصـدر النـور غـير محـدد الاتجـاه أو محـدودًا، كـما لـو كان يفيـضُ في ذهنـي وتخيـلي ويحتـوي جسـدي بقـوة خيـالي وإيمـاني بوجـوده...

ثم سكن قلبي...

وحين سكن قلبي سكن قلقي ورغبتي في البحث عن الفتى...

حقيقةً نسيت الفتى...

غـاب عنـي كل شيء سـوى ذلـك النور الـذي بـدأ يحملنـي كـما لـو كنـتُ أطفـو فـوق بقعـة تظللهـا ذاتي السـابحة فوق كـوني...

حين بلغ بي الحال ذلك المقام، سمعته يُخاطبني:

ـ لماذا أنت هنا؟

ـ جئـت بـلا سـببٍ غـير أني أبحـث عـن راحـةٍ لقلبـي المحـب لما فـوق البـشر إلا أنـه متعلـق بالبـشر...

ـ أتبحث عن معنى الحب؟ هذا فوق طاقتك، اذهب...

دُهشــت منــه، ليــس لقولــه ولكــن لأني لا أعــرف حقًّــا إلى أيــن أذهــب، ربمــا لأني لا أعــرف أيــن أنــا في الأســاس.

ـ تعبت من الذهاب... أريد الوصول.

ـ عرفتنـي في الوصـل وتعرفتنـي في القطـع، أنـت في الوصـل مقطوع وفي القطـع موصول...

ـ إذن خـذني وأوصلنـي وفي وصلـك أبعـدني، ولكنـي اقتربـت منهـا لـك فبعـدت عنـك وتعلقـت بهـا..

ـ ولكنـي معـك معها مـا دمـت رأيتهـا مظهـرًا لمعنـى ولكـن ليـس المعنـى...

ـ هذا ما أخبرتني به. هل أنت حقيقة الحب؟

ـ لا تبحـث عـن حقيقتـي، فلـن يعرفنـي إلا أنـا ولكـن تحقـق مـن وجـودي بالحـب.

ـ أنـت تـرى كـم أنـا مشـتتٌ الآن، بداخـلي هـدوءٌ أنـك تكشَّـفتَ بـدون واسـطة، فـلا ريـب أني على طريـقٍ صحيـحٍ إليـك، ولكنـي كمـن وضـع قدمًـا واحـدةً عـلى أول الطريـق، ولكـن الخطـوة التاليـة مؤجلـة، لإنشـغال القـدم الثانيـة بالبحـث عـن موضـعٍ جديـدٍ لهـا، لا تريـد أن تكـرر خطـوة القـدم الأولى، حتـى وإن كانـت قـد أخذتهـا لكـونٍ جديـدٍ، هـي تريـد أن تلمـس كونًـا أفضـل لـو اسـتطاعت، تريـد نفـسي أن تجعـل مـن كل خطـوةٍ لهـا كشـفًا، لهـذا أنـا مُشـتت...

أنت لا بد تعلم سبب تشتتي، أخبرني، هل لأني لا أشبع من متعة الحب بعدما تذوقته، تذوقته بها ومن خلالها وعرفت أن الحب يتجاوز ما وصلت له، ورغم أني أشعر أني وصلت لشاطئ لا بحر بعده، إلا أني أعلم أن هناك بحارًا لا نهاية لها، لذا فلن أشبع...

أنهيتُ كلامي ووجدتُ صدى صوتي يعود إليَّ ليحملني، بدا كما لو أن صدى صوتي صار تابعًا لصوت المعرفة الذي يُحادثني ويُحركني في تلك الليلة، كما لو أن أي صوتٍ سيصدر عن مخلوقٍ سيكون تابعًا للصوت الأول، النابع من علمٍ سابق لا بداية له ولا نهاية، لذا تركت نفسي لصوت صدى كلماتي، التي حملتني داخل حروف من كلماتي تقاطعت لتدور في سرعة حولي، صرت بحركتها مركزًا لدورانها حولي، كنت أستطيع أن أميز الحروف المنفصلة ولكن بمرور الوقت مع زيادة سرعة دورانها حولي، صارت الحروف ومضاتٍ من نور، تتعاقبُ حولي، كلما نطقت بكلمةٍ، يخرج صوتي طبيعيًّا كما اعتدته، ولكن يعود كصدى، تتساقطُ حروفُه حولي وتنضم لدائرة الحروف التي وسعتني وأحاطت بي.

ـ كدائرةٍ من ومضات النور، لا تكتمل الأنوار ولكنها تزداد نورًا على نورٍ، هكذا أنت، ما دمت لا تزال تخلق كلماتٍ تتركبُ من حروفٍ مخلوقةٍ لتحفظ معاني الوجود، ما دمت لا تزال تحيا بروحٍ لا تعرف نهاية لأن تسعى لتعرف الحب، ما دمت أنت هكذا، فأنت صادق الحب، لذا فأنت دائم الحيرة، لن ينتهي تشتتك ولن تستقر...

ـ إذن لماذا نحب؟ لماذا خُلق لنا الحب؟

لقد تركت نفسي لآتي إلى هنا لأصل لإجابةٍ تُريحني، تجمعني بها ولا تمنعني عنك، فلا تزيدني حيرةً...

ـ أنت جئتَ لتعرف والعارف مُحب وإن جهل أنه يحب. لن تعرف لماذا خُلق الحب إلا إذا عرفت عنه وعني، وحينها ستعرف عنها، ستعرفُ حقيقتها.

ـ وهل ستعلمني؟

شعرتُ به يهمسُ ويحتويني، كما لو كان يقودني من داخلي لعالمه:

ـ سنتعلم معًا...

ـ هل تقصد أنا والفتى محمد؟

ـ لا يوجد إلاك وإياي أعني.

ـ ولكن ماذا عن محمد، هل سنتركه؟

ـ لا تشغل بالك به، هو لم يكن إلا لكي تشغل بالك بي الآن.

لم أضيع وقتًا آخر، ولكني لم أكن أعرف حقيقةً من أين أبدأ، فانتظرت في دائرة أنوار حروفي لكي أعرف خطوتي التالية...

لم أنتظر طويلًا، أو ربما طويلًا ولم ألاحظ، لقد صرتُ وقتها مثلك يا حبيبة، لا أبصر للوقت حدودًا ما نسميه ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا، لذا لا أعلم كم انتظرت أو إن انتظرت في الأساس، ولكني أبصرتُ حركة الحروف تسرع وتيرتها واختفت معالمها مع تسارع أضواء الحروف وبدا كما لو أنها تنقلني لمكانٍ مختلفٍ، كنتُ أشعر بأني لا بد سأنتقلُ لمكانٍ لم يصل إليه أحدٌ من قبلي،

في تلك الليلة وفي تلك اللحظة شعرتُ أني في معراج روحي، سيصل بي لسر الكون، سر الحب.

غبتُ عما حولي بما بدأتُ أتوهمه من مكانتي ثم فجأة وأنا في خضم الصور التي أتوقعها، اختفت الدائرة من حولي، وبالفعل كانت دهشتي عظيمةً، كان المكانُ غير متوقعٍ لي، لم يخطر بالفعل على بالي، وجدتُ نفسي في غرفة فاطمة....

- هل عُدت من حيث أتيت؟

هذا كان أول شيء هتفتُ به حين أدركتُ حقًّا أني بغرفة فاطمة...

كانت هي في مجلسها كما لو كانت في انتظاري، لم تجب على سؤالي، لأنها لم تسمعني، فصوتي لم يتجاوز فكري، أعرف أنها عرفت بوجودي ولكن كما لو كانت تعرف به من قبل أن أحضر...

كان الوقت نهارًا، لا أعلم هل هو نفس اليوم الذي تركتها فيه أم يوم سابق، أم تراه يومًا لاحقًا...

لا أعرف بعد متى هذا الأين الذي حضرتُ فيه....

كانت تنظرُ للباب كما لو كانت تنتظر أحدًا عالمةً بحضوره، كنت أشاهدُ ما تشاهده، ولكن أين أنا، لا ريب أني لستُ في الحجرة وإلا كان لي حيز في المكان...

أين أنا؟

أجابنـي الصـوت في لغـة المعـاني التـي صرتُ أتقنهـا بـدون أن أعـرف بعـد هـل أسـتطيع أن أتحـدث بهـا أم لا:

ـ أنت في الباطن لهذا الظاهر...

ـ لا مكان إذن؟

ـ مـكانٌ ولا مـكان، هنـا حيـث تعيـش هـي وحيـث كنـت تقـضي الوقـت وتتلقـى العلـم منهـا ولكنـه كذلـك هنـا يجـري الزمـن خلـف ظاهـر المكان أو أمامـه أو مجـاور لـه، لا مـكان هنـا رغـم أنـك هنـا لأن هنـا مـكان...

ـ فأنا في الزمن...

ـ هل تريد أن تعرف حقيقة حبك أم تعرف أين أنت؟

علم ما بي فصمتت إرادتي ونطقت حقيقتي:

ـ أريد أن أعرف الحب...

كـما لـو كنـتُ قـد تعلمـت لغـة المعـاني تلـك، وجـدتُ ذاتي تبـصر فاطمـة وتسـمع لمـا تتحـدث بـه بلسـان الحـب...

لم أعد أسمع معرفة فقط حب..

حبيبة

ـ ماذا تعني فقط تسمع حب؟

لم أسـتطع أن أمسـك نفـسي مـن السـؤال، كان يحـكي تجربـةً خاصـةً ولكنـه كان يحـكي لي، لا بـد أن هنـاك معنـى خفيًّـا عنـي هـو هنـا لأفهمـه...

نظـر إليَّ كـما لـو كنـتُ قـد أيقظتـه مـن حلـم، كانـت عينـاه زائغتـين، لم يكـن يحمـل تلـك النظـرة الواثقـة، أو ربمـا هـما واثقتـان ولكــن بطريقتــه الخاصــة...

ـ أعلـم أني أحببتهـا وكنـتُ أتعامـل معهـا بهـذا الحـب، كنـت أسـمعها تتحـدث وأنهـل مـن علمهـا ومعرفتهـا بدافـع حبـي لهـا، الآن صرتُ أسـمع الحـب فيـما تعرفـه، أسـمع فقـط حديثهـا بمـا يحملـه مـن معـانٍ تنبـع مـن حبهـا هـي وليـس حبـي أنـا...

هل تلاحظين الفرق؟

فكـرتُ للحظـة تذكـرت فيهـا مـا كنـتُ فيـه مـن حـب، تذكـرتُ كيـف كنـتُ أسـمعه وأحـب مـا يتحـدث بـه، ولكنـي لم أسـمع الحـب في حروفـه مـن منبعـه، كنـتُ دومًـا ألقـي بظـلال حبـي عـلى مـا يقـول دون أن أعطـي نفـسي فرصـةً لأسـتمع لحبـه...

ـ أعتقد أني أعرف الفرق...

ـ إذن هل أكمل يا حبيبة؟

هممتُ بأن أجيب بنعم ولكني تذكرت شيئًا..

ـ هــل سـيرك في الزمـن في باطـن الظاهـر مـن الأماكـن هـو مـا يحـدث لي؟ هــل أنــا تكـرارٌ لنفـس تجربتــك؟

ـ لا يوجـد تكـرارٌ لـشيء في الوجـود يـا حبيبـة، كل لحظـة هنـاك خلـقٌ جديـدٌ، حتـى وإن كان الظاهـر متشـابهًا فلـكل منـا تجربتـه.

ـ أعلـم ذلـك الآن ولكـن هـل وجـودي في زمـنٍ غـير زمنـي بوعـي ينتمـي لمـكاني الـذي جئـتُ منـه هـو نفـس الـشيء؟

- يمكنك أن تعتقدي ما تشائين، ولكني لا أعلم غير ما أحكيه عن نفسي.

- لماذا لا تجيبني بما يُريحني؟

وجدتُ كفه يمتد في هدوءٍ ليستقر أعلى يدي ويربت عليها وهو يهمسُ لي:

- لو أردت راحة البشر لما كنتِ هنا الآن، ولكنك تريدين الراحة الحقيقية، لذا فأنت هنا معي الآن، وأنا كذلك معك...

شعرتُ باطمئنانٍ للحظةٍ وتذكرت السيد نور...

- ولكن لا ريب أنك وجدت راحتك الحقيقية في رحلتك تلك، وإلا ما كنت هنا الآن تحكي لي؟

ابتسم ابتسامةً واسعةً كادت تتحوَّل لضحكةٍ يبدو أنه كتمها خوفًا على وقاره:

- يا حبيبة لو وجدت الراحة لما كنت معك الآن. من قال لك إن رحلتي انتهت؟

تلعثمت قليلًا وأنا أحاول أن أجد إجابة. حقًّا من قال لي إن رحلته قد انتهت!!!

نفترض عن الآخرين ما لا يؤكدون ثم بعد قليلٍ تتحول افتراضاتنا إلى حقائق من وجهة نظرنا.

- لا أدري، ظننتُ أنك قد بلغت نهاية رحلتك لذا فأنت مؤهل لتحكي لي.

- دعيني إذن أحكي لك لتعرفي حقيقة ما أنا فيه معك....

صمت لبرهةٍ كما لو كان يستعد ليكمل قصته، ثم عاد ينظرُ إليَّ مباشرةً في عيني وأكمل جملته:

لعلك حينها تعرفين حقيقة ما أنتِ فيه....

ثم أكمل....

الشيخ الغريب

كانت فاطمة تنتظرُ وصول شخصٍ ما، كانت لا تزال في جلستها الصباحية، أعرفُ تلك الجلسة، الساعة التي تسبق وصول مريديها.

حقيقةً لم أكن أعرف الزمن، هل هي ذي في نفس عمرها حين تركتها أم أصغر أم أكبر...

كان عمرها يقرب من التسعين حين تركتها بالأمس في كوننا، ولكني ولا مرة رأيتُ العمر يظهر على وجهها، كان وجهها دومًا نضرًا كما لو كانت ابنة العشرين، جسدها لا ينحني بفعل العمر، كانت تبتسمُ تلك الابتسامة التي لا تشيخ....

كان جسدُها يتحدث بالحب، عجيب أمر اللغة حين تتحرر من أسر اللغة وتذوب مع حروفها المعهودة بفعل حرارة المعنى فتتشكل الحروف من جديد، مصبوبةً في قوالب لا يحُدها إلا حدود كل يوم هو في شأن...

فحروفٌ بلا قيودٍ تخلق حديثًا غير معهودٍ، يخلق الوجود من جديد...

أنصت لجسدها يهمس لأذني بتراتيل من حب لا يرتبط بي...

كنت قبل تلك اللحظة لا أفكر في جسدها، كنتُ أسمع بحبي لها بأذني الصماء ما يمنعني عن حب جسدها...

كيف أضع الجسد مع الحب في عبارةٍ واحدةٍ مرتبطةٍ بها؟!!

الجسد من حيث جئت يخنق الروح، يقضي على معنى الحب، لذا تعمدت أن أُخرجه من أي مشاعر ترتبط بها...

كيف يتجاور الجسد مع مشاعر ستأخذك لملكوت خالق الحب؟

ولكني في هذه اللحظة استمعتُ لجسدها، بلسان حبها وليس بعقل حبي لها....

فسمعته ينسجم مع عزف الروح المحبة...

لم أشعر بتأنيب ضمير لشعوري بحضور الحب في تفاصيل الجسد...

لم أشعر بأني قد دنست محراب حبي بامتزاج شعور جسدها المحب بمعنى الحب...

- حين تصدق في معرفة الحب، سيصبح للجسد حضور طهور، ستقوم من حضرته لتصلي بوضوءٍ من نور...

- هل لهذا لا يظهر للعمر أثر عليها؟

- العمر يظهر ولكن لأن الجسد في طهر الحب، فهي تغتسل كل ليلة بنوره فيحفظها بل ويزيدها بهاء...

ـ أنـت تعلـم مـا بي مـن عـدم رغبـة إلا في حضـور روحـي لحـب يتجـاوز حبـي لهـا، فلـم الآن أشـعر بالجسـد وجمالـه، حتـى وإن كان ذات الـذي كنـت أتجنبـه لخـوفي منـه؟

هـو نفـس الجسـد، ولكنـك لا تراهـا بعينـك، لا تراهـا بجسـدك، أنـت تسـمعه بصوتهـا هـي، تسـمع أطرافهـا في عشـقها تناجـي مـن تحـب فتعـرف أن الجسـد محـرابٌ تصـلي فيـه صـلاة حـب...

ـ هل أقترب؟

ـ لا تخـشَ مـن حـب الجسـد، فلـولاه مـا أبـصرتَ أن هنـاك وجـودًا بعـد الجسـد...

اقـترب ولا تخـش شـيئًا، أنـت في باطـنٍ مُطَّلِـع، أنـت محـاط بنـور كاشـف، فـلا تخـش واقـترب...

ـ ولكني قريب، أراها ولا تراني...

ـ اقترب بقُرب لا يعميه حبك!

ـ ولكني أسمع حبها وليس حبي...

ـ اقترب في صمتٍ من حبك واستمع لحبها لغيرك!

اقتربت أكثر من صوت جسدها...

تركت صوتي ولم يعد في المكان سوى صوت جسدها...

شـعرتُ بـه يهـمُّ ولكـن ليـس لي، أنـا غـير موجـودٍ معهـا، أنـا عـدم، رغـم أني أشـعر بهـا تشـعرُ بحضـوري، ولكنـي غـير مشـهودٍ لهـا...

أسمعُ جسدها يهمس بحبه أنه قد أرسل لها ولدها...

ولدها!!!!

ولكني لم أعرف لها ولدًا...

ولم يدم تعجبي طويلًا، بعد لحظات رأيته يدخل...

حينها زاد تعجبي مائة مرة...

رأيت الفتى محمد....

كنتُ أعلم أن هذا الفتى وراءه سرٌّ وأمرٌ أكبر من مجرد ليلة ستمرُّ علينا في المقابر بين الأموات...

كنتُ أعرف من كلماته وإشاراته وثقته في ذاته، كان هو من أريد أن أكون في معرفتي بذاتي، معرفتي بخطواتي التالية....

ولكن ما الذي يفعله هنا؟

لقد تركته في مركز دائرة المقابر قبل لا أدري كم من الوقت، لم أكن قد اعتدت بعد على ترك إحساسي بمنطق الوقت بعيدًا عما يحدث لي.

- حين تخرج من محدودية المكان فأنت تتحرر من وهم منطق الزمن، فلن تربطه بماضٍ أو حاضرٍ أو مستقبلٍ، ستربطه بالمعنى الذي إن اتصلت به فسينقلك عبر الأماكن بدون حدودٍ ومن خلال الأزمان دون قيودٍ...

- الآن ما الذي يجب عليَّ فعله؟

- لا يوجد واجب عليك، فقط استمع واربط ذاتك بالمعنى الذي يربطك بكل ما حولك لتبصر حقيقتك...

حينها لم أكن أعرف ما يقصده ولو عرفت ما سأكشفه بعد ذلك ربما ما كنت معك الآن، ولكن في النهاية سنعرف على قدر المتاح في الوقت المناسب..

لذا في لحظتها أخذت أستمع...

- أنت في باطن مُطَّلِع، أنت في نورٍ كاشف، فلا تخش واقترب!

كانت فاطمة جالسةً حين دخل هو، ولكني سمعت ما بداخلها من تلهف كما لو كانت في انتظاره من قبل أن تراه.

كان معه سيدة تبدو كما لو كانت والدته، كان في نفس العمر الذي قابلته فيه، حتى أنه كان بنفس الثوب الذي قابلني به، ربما سأرى نفسي معه بعد قليلٍ...

تحدثت السيدة أولًا:

- السلام عليكم، ها هو ذاا ابني محمد الذي حدثتك عنه وطلبت منك أن تضميه لطلابك.

ابتسمت فاطمة وأشارت إليهما بالجلوس ثم نظرت إليه قليلًا كما لو كانت تتأمله لتتأكد من ملامحه التي تعرفها من قبل.

كان هو صامتًا ولا يرفع نظره احترامًا لها. حين حضرت من سنوات مضت كنتُ في تلهفٍ ورغبةٍ في المعرفة وفضولٍ، ولكنه لم يكن مثلي، كان فيه هدوءٌ وثقةٌ كما لو كان بالفعل يعرفُ ما هو مُقبل عليه، كما لو كانت هي التي جاءت لتلتحق بصف طلابه.

كانا يعلمان بهذا التوازن، شعرتُ به، كان هو طالبًا لعلمها وكانت هي طالبة في مدرسته وكان هو أستاذًا لها كما كانت هي شيخةً له...

لم يبد أن أمه كانت واعيةً لحوار توازن المعرفة الذي يدور بين الاثنين، وشعرت لحظتها بمكاني حولهما، لست معهما ولكني مُطلع على ما في باطنهم، شعرت بما يعنيه أن أسمع لمعانيهم...

بعد قليلٍ تحدثت فاطمة، كم أفتقد صوتها:

ـ شكرًا لك يا نور، لقد وصلت الأمانة..

تعجبت نور والدة الفتى:

ـ أي أمانة؟

استمرت فاطمة في حديثها الهادئ:

ـ محمد، ولدي...

ـ تقصدين محمد ولدي؟

مدَّت فاطمة يدها وحملت كف نور بين كفيها وهي تبتسم لها:

ـ أنت أمه الترابية يا نور، أما أنا فأمه الروحية. لقد ذهب من قبل أن يأتي إليَّ والآن قد رجعت به إليَّ. فشكرًا لك على حفظ الأمانة...

تشاركت مع نور في الدهشة وعدم الفهم...

ولكن نور سمعت البركة في شعورها بالفرح، لم تكن تدرك الفرق قبل هذه اللحظة ولكنها لم تكن لتمانع أن يشاركها في ابنها أم أخرى تضيف عليه البركة. لم تكن لتغار عليه، كانت بالعكس،

تحبه حبًّا يسمح لها أن تشاركه مع غيرها لو كان في هذا ما يُضيف له...

هو كان يعرفُ من قبل، أو هكذا سمعتُ منه، لم ينفعل أو يندهش، شعرت بهدوء معرفته يزعجني قليلًا، لماذا أنزعجُ من هدوئه، هل لأني في حيرةٍ وهو لا؟ ربما هو لديه حيرته الخاصة التي لا أعلم بها بعد....

أعتقدُ أن ما أزعجني قليلًا هو شعوري بقربه منها، حب أمه نور قد يسمح لها بأن تشاركه مع غيرها ولكن حبي لفاطمة لم يكن يسمح لي بأن أشعر بها تشعر بغيري...

ـ ولكنك تعرف أنها تشعر بغيرك؟

ـ ولكنه غير الآخرين...

ـ لا تسمع لنفسك، اسمع لها. هل تحب هي غيره؟

توقفت عند شعوري بالانزعاج من غيرتي من هذا الفتى الذي أبصرتها تنتظر قدومه. رويدًا رويدًا تجسد لي حالي معها وحالها معه، كانت المشاعرُ متشابكةً في البداية تحجب حروف النور التي تسير معي في محاولتي لرؤية ما تشعر به...

ـ هل تسمع لما تراه صوتًا غير صوت حب واحد...

ـ أسمع أصواتًا كثيرةً لمشاعر متداخلة...

ـ لا تنخدع بما تراه ظاهرًا في المكان، في باطن ما تراه بسمعك هناك وضوحًا أكثر، هناك صوتٌ واحدٌ يُهيمن على تعدد ما

تـراه. هنـاك حـرفٌ واحـدٌ ينبـع منـه تنوعـاتُ المعـاني المخلوقـة بفيـض منـه...

ـ أسمع صورة الفتى وما يثير بداخلها من حب...

ـ هل توقف الحب عنده؟ ألم يكن موجودًا من قبله؟

ـ لا بـد أنـه كذلـك، فـلا يوجـد حـب بهـذه القـوة ينبـت فجـاءة بـدون مـا يسـبق ليمهـد لـه...

ـ إذا فـما تحبـه الآن هـو عـدم بالنسـبة لمعنـى الحـب الموجـود دائمًـا؟

ـ أعتقد ذلك...

ـ لا تعتقـد، اشـعر بذلـك. حبهـا في داخلهـا مسـتمر لا يتوقـف، تـأتي المظاهـر فيتجسـد الحـب بمـا يناسـب كل مظهـر ولكنـه هـو هـو، لم يتغـير. هـي تحـب واحـدًا وإن تعـدَّد في المظاهـر...

بـدأت حـروفُ النـون والـواو والـراء تكشـف مـا خلـف المشـاعر التـي تشـابكت، لم تكـن مشـاعر متشـابكة، كانـت تنويعـاتٍ لنفـس المصـدر، حـين أبـصرت مـا يهمـس بـه، بـدأت صـورة مـا بداخلهـا تتضـح لي...

هـي تحـب معنـى واحـدًا وكل مـا يتغـير عليهـا هـي مظاهـر لا تنقـصُ أو تزيـدُ مـن حبهـا شـيئًا...

لـذا فـلا يحـق لي أن أنزعـج، أنـا مثـل غـيري، كلنـا في الظاهـر مختلفـون ولكـن بالنسـبة لمـا تحبـه هـي نصـلُ بهـا لمعنـى واحـدٍ، يتكـرر في مظاهـر ولكنـه واحـدٌ بالنسـبة لهـا...

- أجل اسمعها هي ولا تسمع لنفسك، اسمع معاني حبها هي وستبصر حبك بها أوضح...

- لا معنى لغيرتي إذن، فكلنا شيءٌ واحدٌ..

- كل الكون مظاهر متنوعة لشيء واحدٍ لها، ولكنكم لستم شيئًا واحدًا في حقيقة حب كل منكم...

- أنا ومحمد ونور وفاطمة لكل منا حقيقة حب خاصة، كل منا مظاهر للآخر لحقيقة حبه الواحد ولكن كل منا بحقيقته الخاصة....

- وجميعكم واحد...

- لو عرفت هذا قبل الآن هل كان شيء سيختلف...

- لا تعرف لو، فقط اعرف الآن...

حبيبة

- الآن أنا حبيبة أحتاج أن أعرف ماذا تقصد فاطمة بالأم الروحية والأم الترابية؟ هل هذه درجات؟

- ليست درجاتٍ يا حبيبة، ولكن هي تنوعات في الوجود. ليس هناك من هو أفضل من الآخر فوجود أحدها لا ينفي وجود الآخر.

ـ وهـذا الوجـود إذن لا يقتـصر فقـط عـلى الأم بـل يمتـد لـلأب والأخ والـزوج والحبيـب والصديـق وكل مـن يرتبـط الإنسـان بـه بعلاقـة وجـود؟

ـ هنـاك علاقـاتٌ نُخلَـق في وجودهـا مـن لحـم ودم الـتراب الـذي خُلـق منـه آدم، هـذا الوجـود هـو الـذي تتحـدث عنـه فاطمـة. مـا بعـد ذلـك مـن عَلاقـاتٍ نحـن نخلقهـا مـن نـور الـروح التـي نُفخـت في هـذا الـتراب فهـي علاقـات روحيـة في الأسـاس حتـى وإن وجـدت تحـت اسـم الجسـد والـتراب الـذي منـه خُلقنـا.

ـ وهل هي عَلاقة واحدة؟

ابتسم وهو يُجيب:

ـ يـا حبيبـة، بعـد كل هـذا الحديـث أعتقـد أنـك قـد تجـاوزت فكـرة العلاقـة الواحـدة مـع المظاهـر المتعـددة، علاقتـك الواحـدة مـع الواحـد، غـيره كلهـا علاقـات عـلى نفـس الدرجـة مـن حيـث أنهـا تنـوُّعٌ لتجليـات تلـك العلاقـة الواحـدة الحقـة...

ـ حسـنًا، اشـتقت لـكي أعـرف مـاذا سـيحدث بعـد هـذا، يمكنـك أن تكمـل، أيـن أنـت الآن...؟

الشيخ الغريب

الآن كانـت نـور تواصـلُ حديثهـا مـع فاطمـة عـن ترتيبـات دروس ابنهما...

حـين انتهيـا مـن الحديـث وهـمَّا بالقيـام قالـت فاطمـة موجهـة حديثهـا للفتـى:

ـ غدًا سأعلمك سر الفاتحة.

لأول مـرة وجـدت الفتـى مشـتاقًا لمعرفـة شيء لا يعرفـه، فلمعـت عينـاه بالرغبـة في المعرفـة ولكـن للحظـاتٍ قليلـةٍ قبـل أن يجيبهـا وقـد عـادت إليـه نظـرةُ المعرفـة الخاصـة بـه:

ـ وأنا سأخبرك عن سر يس...

خـرج محمـد ووالدتـه نـور، وجلسـت فاطمـة مستسـلمةً لمـا أعرفـه عنهـا مـن لحظاتهـا الخاصـة معـه.

كنـتُ مـن قبـل أحسـبها لحظـاتٍ ولكنـي الآن في هـذه اللحظـة التـي لا أعلـم أبعادهـا غـير أني مُسَـلِّم لهـا صرتُ أؤمـن أنهـا خـارج حـدود المـكان وقـد تكـون مسـافرةً في الزمـان بمـا لديهـا مـن ارتبـاطٍ بمعانيهـا الخاصـة معـه.

ولكـن لم يكـن مـا هـي فيـه هـو شـاغلي، لقـد اسـتوقفني مـا قالتـه لـه ومـا أجابهـا بـه، لـدى كلٍّ منهـما أسرار خاصـة بكلـمات القـرآن في سـوره وآياتـه، لم تكـن غـيرةً هـذه المـرة، كان تعجبًـا منـي، كيـف أني في انسـياب اللحظـات التـي عشـتها معهـا في معـاني الحـب، نسـيت أننـا جميعًـا هنـا في هـذه الغرفـة لنتعلـم عنهـا دروس العلـم عـن اللـه...

كل مـن يحـضر إلى هنـا يـأتي ليتعلـم عـن الديـن، وليـس عـن الحـب، لمـاذا أنـا قـد انجرفـت لهـذا الجانـب مـن المعرفـة بـه؟ هـل هنـاك غـيري يتحـير بهـذه المعرفـة، ويسـعى في هـذا الطريـق؟ عـلى الأقـل الآن هنـاك هـذا الفتـى، ولكـن لم يكـن هـذا فقط ما اسـتوقفني، كان مـا اسـتوقفني هـو أني لم أكـن أشـعر بارتباطـي بمـا تبـادلاه مـن حديـثٍ، لم أشـعر أن لـديَّ مـن الأسرار مـا لديهـما. تسـاءلت بصـوتٍ

حالي، هل حان وقتُ الشك في صدق ما أريده منه؟ ربما أحتاج لأن أعود لأدرس من جديدٍ بصدق الرغبة في العلم، بعيدًا عن أوهام السير...

يبدو أن صوت حالي كان صادقًا فيما يريد أن يشعر به، للحظة صادقة فقدت الإحساس بفاطمة، لم أعد أسمع لشعورها، صارت معاني ذاتي هي ما يشغلني. لم يحتج الأمرُ مني سوى تلك اللحظة، وجدت نفسي في غرفة نوم لا أعرفها، لم أكن فيها كمكانٍ، كنتُ في الزمن الخاص بتلك اللحظة، كان هناك فتى في الفراش لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، كان يبدو عليه المرض. وعلى طرف السرير كان هناك رجلٌ عرفت من صوت مشاعره تجاه الصبي أنه والده. سمعتُ صوته يهمس بآياتٍ من القرآن، عرفت فيها سورة يس، كنت أشعر أني أعرف هذا الرجل، أشعر معه بألفة ولكني لم أعرف لماذا بالتحديد...

شعرتُ بالصبي مستغرقًا في نومٍ من حمَّى المرض...

كان في شعوري به شيءٌ مألوفٌ، لقد كنتُ أعرف هذا الصبي...

وعرفته، إنه الفتى محمد، ولكنه في سنوات تسبق اللحظة التي عرفته فيها.

لماذا أنا معه في هذه اللحظة...

ـ - لعلك هنا لتعرف طريقه الخاص معه...

ـ هل هذا طريقي لأُجيب على شكي فيما تساءلت ذاتي عنه؟

ـ ربما هو طريقك لتعرف ربك الخاص بك..

- ولكنـي أعـرف أنـه إلـهٌ واحـدٌ، شـكي ليـس في ذلـك، شـكي في ذاتي أنهـا لا تعـرف طريقهـا إليـه، أنهـا انشـغلت عنـه ولم تعـد تعـرف كيـف تصـل إليـه، أخـاف ألا يكـون سـجودي لـه سـجودًا لـه...

- لـكلٍّ منَّـا ربـه الـذي يسـجد لـه رغـم أننـا نسـجد لإلـهٍ واحـدٍ، ولكـن تصورنـا الخـاص عنـه يخلـق تعـددًا في وحـدة، وتنوعًـا بـدون اختـلاف... هـو يقبـل منـا أن نبـصره في تصورنـا الخـاص، ولكنـه لا يقبـل منـك أن تبـصره فيـما يتصـوره الآخـرون، يحـب منـك أن تتقبـل تنوعـه بتنـوع النفـوس التـي تعبـده، ولكنـه لا يريـد منـك أن تتقـرب إليـه بمـا يتقـرب بـه غـيرك، هذا هـو الشرك الخفـي، أن توحـده بمـا يوحـده غـيرك، أن تتبـع غـيرك لتصـل إليه، هـذا يقتـل معنـى الإلـه الحـي لديـك، وينسـخ إلهًـا لا يرقـى لمـا يريـده منـك الإلـه الحـق.

فهـو واحـدٌ في ذاتـه، متعـددٌ بمـا يُدركـه كلٌّ عـلى قـدره مـن هـذه الـذات، ومجمـوع مـا تعـدد هـو أقـرب شيء لحقيقـة الواحـد، الـذي هـو ليـس مجمـوع تلـك المتعـددات، فـلا يحـده حـدٌّ ولا يجمعـه جمـعٌ، ولكنـه يحـب أن يُـدرك بأكـثر صـور ممكنـةٍ منـا، لـذا حـين تمنـع عـن نفسـك فرصـة أن تضيـف لذلـك التصـور المجمـع عنـه، صورتـك الخاصـة، فأنـت تحـرم الوجـود مـن أن يقـترب مـن إدراك ذاتـه بمقـدار ذاتـك.

لا تُشرك به باتباع غيرك في معرفتك به...

- ولكنـي هنـا أتعَـرَّف عـلى طريـق هـذا الفتـى، ألا يأخـذني هـذا بعيـدًا عـن طريقـي...

كانت الإجابة صوت الأب، يردد من يس، (على صراطٍ مستقيم)

توقفت عندها،

سـمعتها ثانيـةً، ولكـن ليـس بصـوت الأب، بصـوت الفتـى، في منامـه، كان في رؤيـا خاصـة بـه، وكنـت معـه...

هنا شعرتُ به، شعرتُ بحبي له، بإيماني به...

هو وحده...

هو...

يأخـذك معـه بعيـدًا حـين تـترك مـن أجلـه كل قريـبٍ، تبعـد معـه حيـث لا قـرب سـواه، فتجـد ذاتـك في قـربٍ كاشـفٍ لـكل غـير...

حـين تركـت ذاتي لأسـمع لـه فقـط، لم أكـن أعلـم إلى أيـن سـأصل، كنـت أظـن نفـسي قـد وصلـت لأقـصى مـا في وسـعي مـن قبـل حـين عرفتـه في تلـك الليلـة عنـد النهـر، ولكنـي الآن بعيـدٌ عـن كل مـا عرفـت عنـه وعنـي...

الآن؛ هذه الكلمة التي لا نعرف إلا هي...

عـلى التحقيـق ليـس لي إلا الآن، حتـى لـو كان وهـمًا أو خيـالًا أو وعيًـا أو سـميه مـا شـئتِ، الآن هـو كل مـا لـك...

الآن أعـرف أني معـك ولكنـي حينهـا كنـت أعـرف أني معـه في تلـك الرؤيـا، لا أعتقـد أنـك ستسـألينني كيـف فلقـد صرت تعرفـين أن هـذا السـؤال ليـس لـه معنـى...

في تلـك اللحظـة، في ذلـك الآن عرفـت حقيقـة الإيمـان؛ الإيمـان تجربـة ذاتيـة، تمامًـا كالحـب، بـل الإيمـان هـو الحـب، تسـليم ووعـي وتصديـق...

تسليم له في حالك، ووعي بحالك معه وتصديق لما يكشفه لك من حاله...

ما حقيقة الإيمان إلا صدق الحب..

شعرت أني في طريقي للحب عرفت الإيمان، في تلك اللحظة، لم أشعر أني أشك في طريقي إليه، لم يعد يقلقني علم غيري به بطريقٍ غير ما أعرفه به...

فقط أحببتُ أني أعرفه ويعرفني بحب خاص بي له...

فاطمأن حالي وعشت مع ما أنعم عليَّ به في ذلك الآن..

كنتُ في رؤيا يراها وهو نائمٌ، لم أسأل هل يعلم بوجودي، ولم أبحث عن سببٍ لوجودي، فقط تركتُ ذاتي تنعمُ بالوجود الذي أوجدني فيه.

كنتُ أرى معه ما يرى، كنت أسمعُ لصوت إحساسه. لم يكن نفس إحساس العارف الذي سمعته في المرة السابقة، كان لا يزال في تردد، بل لعلي سمعت صوت خوفه من الموت نتيجة لمرضه، ربما خوفه لفقد والده، أو لفقد والده له...

كان الموت هو ما يشغل حال الصبي...

ثم جاءت الحروف...

ليس لنا في هذا الكون فعلٌ إلا الاستماع، فالحروف رسلٌ من نور لا تنقطع...

جاءت تحدثه عن الموت، جاءت حروف (قُل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلقٍ عليم)

لتستــقر في قلــب الكــون الــذي انفتــح لــه في رؤيــاه، وبــدأت تحدثــه...

حبيبة

توترت حين ذكر الشيخ الغريب الموت...

كنــتُ أعلــم أنــه حديــثٌ لا بــد منــه، أنــا هنــا مــن أجــل المــوت، شــعرت بذلــك مــن قبــل، ولكنــي كنــتُ أحــاول أن أهــرب مــن هــذه الحقيقــة، أُجِبــت بحديــث الحــب، وتمنيــت أن يــدوم...

- ما علاقة الموت بالحب أيها الشيخ الغريب...؟

انتبــه مــن حديثــه، لم يُجبنــي مبــاشرةً، قــام مــن مجلســه بجــواري وشــككتُ لحظــةً أنــه ســيُغادر كعادتــه.

تمنيتُ أن يُغادر، أردته ألا يُجيب...

ولكنه لم يُغادر وأجاب...

- المــوت أصــدق فعــل بعــد الــولادة ومــا بينهــما تــردد بــين نوايــا صادقــة ووهــم بالفعــل...

الحــب فقــط إن صــدق هــو مــا يجعــل لــك إرادةً صادقــةً بــين أصــدق حدثــين في حياتــك لا إرادة لــك فيهــما...

الحب يخلق للَّحظة قيمتها والموت يحفظ لك هذه القيمة...

لا يمكــن لمــن يريــد الحــب أن يبــصره في الحقيقــة بــدون أن يبــصر أن نهايــة الحيــاة بالمــوت لا تعنــي انتهــاء الحــب....

كانت كلماته لا تعني لي شيئًا...

شعرتُ في لحظةٍ أني لأول مرة منذ بدأت تلك الرحلة لا أشعر بالمعنى لما يُقال لي...

الموت هو نهاية، أنا أعرف ذلك...

أعرفه لأني عشت نهاية الحب في الموت...

أغلقتُ عيني، وغبت عن الشيخ الغريب، أو هو الذي غاب عني حين غاب عني المعنى الذي لم يصل إليَّ...

ولن يصل إليَّ...

هكذا حدثت نفسي، الموتُ هو نهاية الحياة كما عرفتها، الموت هو نهاية الحب...

- ربما نهاية لما عرفته عن الحب، وليس الحب بمعناه الحقيقي ...

كان صوتُ السيد نور هو ما أحتاجه الآن...

اختفى الشيخ الغريب من وعيي، لم أشعر بالدهشة، ربما لأني كنت مُحمَّلة بمشاعر أكثر من أن يشغلني شعورٌ بالدهشة في عالم الدهشة فيه هي أبسط ما يمكن أن تشعر به...

- لقد قلت لي في بداية رحلتنا أني يمكنني أن أتوقف حين لا أشعر أني مرتاحة لما أراه أو أسمعه...

الآن أنا أريد أن أتوقف، يكفيني ما عرفته عن معاني الحب، لا أريد أن أستمر، أعرف أني لن أستطيع أن أستوعب هذا الحديث عن الحب في حضور الموت...

- ولكـن المـوت هـو مـا أحـضرني إليـك، هـذه الرحلـة بدايتهـا المـوت...

إنه يعلم، لا ريب أنه يعلم..

- نحـن نعلـم بمـا أنـتِ فيـه يـا حبيبـة، لـذا جئـت إليـك، لـكي أُنـير لـك مـا غلفـت بـه ذاتـك مـن ظـلام، لتبـصري حقيقـة الحـب في حـضرة المـوت...

- كيـف أبـصر الحـب ومـن أحـب قـد ذهـب؟ كيـف أبـصر الحـب وهـو لم يعـد لـه وجـود؟

هــذا مــا حــدث؛ بعــد أن أخــبرني أنــه لــن يســتطيع أن يحبنــي، خطفــه المــوت.

أتذكـر تلـك الليلـة، كنـت مـا زلـت في صدمـةٍ مـن حديثـه في الصبـاح، تركنـي بعـد أن أبلغنـي أنـه لا يريـد حبـي.

في تلـك الليلـة جاءني اتصالٌ مـن مُنـى تخبرني أنـه في المستشـفى نتيجـة لحـادث سـيارة وحالتـه خطـيرة. أسرعـت لأطمـئن عليـه، أو ربمـا لـكي أجعلـه يعـود لحبـي لأحميـه وأشـفيه مـما هـو فيـه...

ولكني وجدت مُنى وحدها تبكي...

لقد رحل قبل أن أراه، لم يخبرها بشيءٍ عني...

رحـل واختفـى معـه كل أمـل في أن أحتفـظ بالأمـل في أن يعـود الحـب...

- أخـبرني يـا سـيد نـور كيـف سيسـتمر الحـب في حـضرة المـوت؟ كيـف يوجـد الحـب ومـن أحـب مفقـود؟

- ولكنك تعرفت على معاني الحب المرتبطة بلانهائي الوجود، كل ما في الوجود في حقيقته عدم. لقد تعرفت على كيف تبصرين الزمن بشعور الذكرى كما لو كان واقعًا، أليس في ذلك دليلٌ لك على أنه لا شيء يفقد لأنه لا شيء في الحقيقة له وجود؟

كنت أفهم ما يقول، كنت بالفعل أشعر بحديثه، أنا داخل فيض الزمن بذاتي، أنا أتحدث مع شخصٍ ربما هو في الواقع قد مات من زمنٍ بعيدٍ ولكنه في الحقيقة موجودٌ معي، يأخذني لعوالم لم أرها في واقعي ولكني أعيشها معه في حقيقته...

- هذا ما أتحدث عنه يا حبيبة، أنت الآن تعيشين بدون أن ترتبطي بواقع يحجبك عن الحقيقة، فلماذا لا تقبلين شعور أن الموت لم يقتل الحب بداخلك؟

- ربما كان الحب ما زال بداخلي ولكن حبه هو قد مات...

- حبه ما زال حيًّا بداخلك حتى وإن مات جسده...

- ستخبرني أن الجسد يبلى ولكن الروح خالدة؟ أعرف هذا الكلام، لقد كانت مُنى تُحاول أن تصبرني به... ولكني لا أشعر به...

- لا يا حبيبة، لن أكرر كلامًا تعرفينه، فقط أريد منك أن تُكملي رحلتك، حين تشعرين بالمعنى الحقيقي للحب، ستجدين من اختفى ما زال موجودًا لأنه في الحقيقة عدم.

كنتُ أريد أن أكمل الرحلة مع الشيخ الغريب ولكني أخاف من شكي أن يؤرقني فلا أجد من رحلته غير قصة لا تضيف لي شيئًا.

- أجبني أولًا، كيف ما زال موجودًا وهو في الحقيقة عدم؟

شعرت به يبتسم، كما لو كان قد شعر بأني أريد سببًا يجعلني أكمل

- تذكرين حين عرفت أن الحب واحد ولكن مظاهره متنوعة، تجلي الحب يظهر في مظاهر لا تفنى لأنها في الحقيقة غير موجودةٍ، ولكنها تتحول من مظهرٍ لآخر، إذا وصلت لشعور الحب بالواحد، فكل المظاهر ستتساوى عندك، لن يؤرقك اختفاء أحدها أو بقاؤه، لأنك لن تحبي المظهر، ستنعمين بالمظهر لحبك للمعنى الذي يكمن خلفه، للمعنى الذي تجلى فيه، هذا المعنى دائم، لذا فلن يموت الحب سيستمر حتى و إن اختفى من توهمتي وجوده، وهو كغيره عدم...

تجلي الموجودُ في العدم لا يجعل للعدم وجودًا في ذاته وبالتالي فإن اختفى العدم فلا قيمة للحزن عليه...

الموتُ نهايةٌ لعدمٍ لذا هو بداية لعدمٍ جديدٍ إذا أبصرت تجلي الحب الدائم فيه...

الحب لا يتوقف بالحب، الحب مستمر....

- وكيف لي أن أشعر بكل ذلك يا سيد نور...

- أنت تعرفين ولكن لا تدركين معرفتك به. فقط دعي نفسك معه وستصلين بوصوله...

تذكرت الشيخ الغريب...

ـ هل ترى أني ما زلت قادرةً على أن أصل بوصوله؟

ـ كما قلتُ لك في البداية، دعي عقلك جانبًا واستسلمي لما تشعرين به وستكونين حيث شئتِ...

ـ أشعر أني أريد أن أعرف كيف أتخلص من الموت الذي يمنعني من أن أحب. أريد أن أشعر بالحب من جديدٍ بدون أن أفقد من أحببت وما زلت أحب...

لم يجبني...

فتحت عيني ورغبتي في الحب هي ما يسيطر عليَّ. كنتُ قد أغلقتها وإحساسُ الموت هو ما منعني عن الشيخ الغريب فغاب عني، والآن فتحتها ورغبة الحب هي ما أريد، فحضر...

كما لو كنت قد غبت لحظة، كان هو لا يزال في مكانه، ينظر إلي بابتسامته...

ظننتُ للحظةٍ أنه والسيد نور شخصٌ واحدٌ...

ربما هما نفس الشيء ولكن بدرجاتٍ مختلفةٍ...

لم أكن أريد أن أتعب عقلي، بل لم أكن أريد لعقلي أن يحضر، أريد فقط لشعوري أن يسمع، ولخيالي أن يجمعني بما سيصلني به من معانٍ في رحلة هذا الشيخ الغريب.

كنتُ أريده أن يكمل، شعرتُ أن رحلته هي رحلتي، سواء كنت رفيقته أو هو رفيقي أو أنه ذاتي أو أنِّي رفيقي، لا يهم الآن...

الآن أريده أن يكمل...

ـ حسنًا، ما الذي رأيته في رؤيا محمد..

وقف الشيخ الغريب وأدار ظهره لي...

ـ تعالي سآخذك لمكان يساعدنا على أن تسمعي ما رأيت بشكلٍ أوضح..

تذكرت أني ما زلت في ذلك السرير في تلك الاستراحة على الطريق السريع في أشبيلية.

ـ أين هو هذا المكان؟ ولماذا نحتاجه؟

ـ في حضرة الحروف نحتاج أن نسمع في غياب الكلمات، سنذهب حيث تختفي الكلمات ويحضر الصوت...

كنتُ قد قمت من السرير وأسرعت خلفه...

ـ وأين ذلك المكان؟

لم يُجبني، فتبعته وأنا أعرف أن الإجابة في اتباعه...

لم يكن من السهل عليَّ أن أترك نفسي تسيرُ خلف شخصٍ ما هكذا. كان الوقتُ قد اقترب من العصر، والشمس قد هدأت حدتها، كان يسيرُ بمحاذاة الطريق في اتجاه المقابر، ولكنه لم يكن متجهًا للمقابر وإلا كان قد أخبرني، وبالفعل قبل الطريق المؤدي للمقابر غيَّر من اتجاهه وبدأ يسير بعيدًا عن الطريق في اتجاه الجبال المُحيطة به.

وأنا أتبعه تذكرت كيف كان من الصعب على تفكيري أن يقبل أن يسير في طريقٍ ما بدون أن يكون لديه تصوُّر مُسبق أو معرفة أولية عن محطة الوصول. الآن، وأقصد بالآن، تلك اللحظة

التـي كنـت أتبعـه فيهـا، صرت فقـط أسـير، لا أعلـم إلى أيـن. لم يكـن الأمـر هـو ثقتـي في الشـيخ الغريـب، أو تسـليمي لما يريـده منـي السـيد نـور، أدركـت في تلـك اللحظـة أنـه ليـس الثقـة فيمـن أتبعـه هـو مـا يجعلنـي أُسـلِم ذاتي بهـذا الشـكل الكامـل، كان الأمـر أبسـط مـن ذلـك، رغـم أنـه كان بعيـدًا عنـي.

كان تسـليمي في تلـك اللحظـة هـو وعيـي أن حيـاتي كلهـا خطـوات سأسـيرها إن شـئت أم أبيـت، أو في الحقيقـة إن توهمـت أني أريـد أو لا أريـد. فتسـليمي ليـس فعـل إرادة منـي، ولكنـه مظهـر إرادة منـه. أنـا رغبتـه وفعـلي في حقيقتـه هـو إرادتـه، وظاهـر رغبتـي أو رفـضي كلاهـما في الحقيقـة فعلـه. لـذا فـكُلي بوعـيٍ منـي أو جهـلٍ يسـير معـه وإليـه وبـه وفيـه. وتسـليمي ليـس إلا معرفتـي بذلـك...

فأنـا لسـتُ تاركـةً نفـسي للشـيخ الغريـب في تتبعـي لخطواتـه، التـي بـدأت تصعـد مرجًـا أخـضر يقـود إلى تـلٍّ صخـري في نهايتـه. لا لم أكـن في خطـواتي المتتابعـة ولا أنفَـاسي المتلاحقـة، أسـير في تسـليم لما سـيقودني إليـه، كنـت في تسـليم لوعيـي بـأني في الحقيقـة كل فعـلي تسـليم، أني ليـس لي غـير أن أُبـصر أني أسـير حتـى وإن كنـت في وقـوفٍ عـن السـير...

أوقفنـي بإشـارةٍ منـه، كنـا قـد بدأنـا نسـتعمل أيدينـا لتسـاعدنا عـلى الصعـود، حيـث بـدأت الصخـور تُشـكل عائقًـا عـن الاسـتمرار في السـير بشـكل مسـتقيم.

اسـتدار وأشـار إليَّ أن أنظـر خلفـي، نظـرتُ في دهشـةٍ حـين أدركـتُ أننـا لم نكـن نصعـد تـلًّا بـل جبـلًا، لم أشـعر بالوقـت، بالتأكيـد لم أشـعر

بالوقت، فخلفي كان الطريق السريع يبدو بعيدًا، كما لو كنا على ارتفاع ثلاثمائة متر أو أكثر.

أخذ بيدي وكشف لي عن منطقةٍ مستويةٍ من الأرض بين الصخور، بدت كما لو كانت مجلسًا من صنع الإنسان، وأجلسني وأنا أهتف به:

ـ كيف وصلنا لهذا الارتفاع بتلك السرعة؟

كان قد أخذ مجلسه في مواجهتي وهمس وهو ينظر في جلال لقمة الجبل من خلفي:

ـ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب...

لم أفهم العلاقة في البداية، كما لم أكن أعرف بعد كيف أن هذا المكان هو المناسب للحديث عن حضرة الحروف، فسألت كما لو كنتُ أسأل نفس السؤال:

ـ كذلك ما علاقة هذا المكان باختفاء الكلمات وحضور الصوت؟

فأجابني بنفس الإجابة:

ـ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب...

شعرتُ أن الإجابة مرتبطة بالجبل الذي نحن عليه، أو ربما بالجبال بشكلٍ عام، أو ربما بمظاهر الجبال وكيف أنها خادعة...

ـ هل تقصد أن حقيقة الشيء غير الظاهر...

ـ أقصد ما تعرفين ولكن لا تعين يا حبيبة؛ ظاهر ما عشت غير حقيقته في حياتك، الظاهر والباطن شيءٌ واحدٌ ولكننا لا

ندرك الحقيقة إلا بجانبٍ واحدٍ منها. أنت بالفعل قد عبرت في المكان بشعورك بالزمن ولكنك تحتاجين أن تبصري الحقيقة واحدة بتجلياتها التي قد تبدو متناقضة. كيف تسرع الجبال الراسيات المرور لتسابق السحب. نحن الآن على الجبل الراسي، ولكنه يطير كالسحاب. لذا هنا هو المكان المناسب لتسمعي صوت الحقيقة بدون أن تشغلك الكلمات...

الحقيقة الواحدة تتجلى بمظاهر متنوعة ولكنها تظل نفس الشيء عينه، كذا الكلمات هي في الظاهر تنوعات لحقائق واحدة، لمعانٍ واحدةٍ، ومهما تنوعت وتزخرفت وتبدلت من زمنٍ لزمنٍ أو من لغةٍ لأخرى فهي في النهاية تجلٍّ للمعاني ذاتها، ليس التعدد إلا تأكيدًا لغنى المنبع الذي تستقي منه تنوعها...

لذا نحتاج أن نسمع صوت الحقيقة والمعنى ولا تشغلنا الكلمة...

- وهل هذا ما أبصرته في رؤيا الفتى محمد..؟

كما لو كنت قد أعطيته الإذن ليبدأ في حديثه، فاختفت الكلمات وسمعت المعنى...

الشيخ الغريب

كان الفتى جالسًا في سريره، كان لا يزال به التعب، ولكنه كان في يقظةٍ تبصر ما حوله، كان حوله الغرفة ذاتها التي كان والده يجلس بجواره فيها يقرأ له سورة يس، ولكن الشيء المُختلف لم يكن فقط غياب الوالد، بل غياب الجدران من حوله، لم يكن

هنـاك حوائـط مانعـة لمـا حـول الغرفـة غـير أنـه لم يكـن حولهـا شيء، لم تكـن محـددة بحـدودٍ غـير أنهـا كانـت محاطـة بحمايـة خاصـة.

وكان هنـاك مصبـاحٌ فـوق رأس الفتـى، لم ألحظـه مـن قبـل، ولكنـه كان واضحًـا في الرؤيـا. في حضـور الحقائـق لـكل شيء حضـور مـا دام لـه معنـى، وحيـث إن لـه معنـى تبـصره فهـو حقيقـة تسـتطيع أن تدركهـا...

لـذا فهـذا المصبـاح الزيتـي، الـذي لا يختلـف عـن أي مصبـاحٍ آخـر والـذي لم ألحـظ وجـوده خـارج تلـك الرؤيـا، تحـوَّل إلى منبـعٍ للنور...

لم يكـن النـور يُـضيء مـا حولـه، بـل كان يُرسـل حروفًـا تتناثـر حـول الفتـى فتتحـول لنقـاطٍ منـيرةٍ في المـكان المُحيـط بـه.

رغـم أنهـا كانـت نفـس الحـروف التـي أعرفهـا وأتحـدث بهـا إليـك الآن، إلا أنهـا لم تكـن تتكـرر، في كل نقطـة نـور كان هنـاك حـرفٌ جديـدٌ، أعرفـه، ولكنـه حـين يسـتقر بجـوار حـرفٍ آخـر يصـير كـما لـو كان وجـودًا جديـدًا. لم تكـن هنـاك نهايـةٌ للحـروف، شـعرتُ أني في حضـورٍ لـولادةٍ متجـددةٍ، لا تنتهـي، لكـون يتلـوه كـونٌ.

كل حـرف حـين يسـتقر لجـوار حـرفٍ آخـر يلتحـم بـه وبالحـروف المجـاورة بتشـكيلاتٍ مختلفـةٍ متعـددةٍ متجـددةٍ...

لا نهاية لما يمكن أن يتشكل به وفيه ومنه وعنه...

لم يكـن مـا يتشـكل هـي الحـروف الظاهـرة لمـا نقـرأه، كانـت معـاني مـا يمكـن لـكي أن تبلغيـه في الكـون بخيالـك، أبـصرت مـا يبـصره الفتـى، كانـت نقـاط النـور هـي معـاني الكـون التـي تتشـكل في داخلـه، مـا يعرفـه ومـا سـيعرفه. كان الفتـى يبـصرُ في رؤيـاه مـا لديـه

مـن معـانٍ عـن الكـون، شـعرتُ بـه متصـلًا بمـدٍ لا ينتهـي، بزمـنٍ لا يتوقـف، بمـكانٍ لا يتحـدد...

أبصرته خالدًا...

معاني الكون التي تُخلق من خلال وجوده تجاوزته...

وفي لحظـةٍ بـدون تمهيـدٍ، أخـذتْ نقـاط النـور مـن حولـه وأمامـه تتجمـع عـلى جانبـيْ المـكان، كـما لـو كانـت تفتـح ممـرًّا لاسـتقبال ضيـفٍ خـاص، وبالفعـل بـدأت أسـمع صـوت خطـوات تقـترب، كـما لـو كان هنـاك مـن يـأتي مـن بعيـد، ولكـن بعـد لحظـات أدركـت أن مـا أسـمعه ليـس خطـوات، ولكـن دقـات، كانـت منتظمـة كدقـات القلـب، وكانـت نقـاط النـور المتجمعـة تنبـض مـع تلـك الدقـات...

كانـت هنـاك حالـة مـن التناغـم، كـما لـو كان معنـى التناغـم قـد حـضر في جملـة المعـاني التـي حـضرت، في حـضرة الحـروف التـي تحلقـت حـول الفتـى، فاسـحة ممـرًّا لدقـات القلـب التـي أخـذت في الاقـتراب...

ثم حضر القلب...

لم أر، ولكني سمعت...

صـوت النبضـات يتشـكلُ في كلـماتٍ بمسـاعدة الحـروف المُتحلقـة في غلالـةٍ مـن نـور...

كـما لـو كانـت كل نبضـةٍ هـي كلمـة تـسري بـين الحـروف فتنتقـي أجمـل الحـروف تعبـيرًا عـن معناهـا فتتشـكل صوتًـا لا تسـمعه بأذنـك بـل تشـعر بـه يتخلـل روحـك فتـدرك بخيالـك مـا يريـد منـك أن تعـرف...

وهكـذا تحـدث القلـب إلى الفتـى محمـد، كان حديثًـا لا أعـرف كـم اسـتغرق مـن الوقـت، ولكنـه اشـتمل الزمـن كلـه...

أخبره أنه سورة يس، أنه القلب...

ثـم أخـبره أنـه سـينبضُ مثلـه، لـن يتوقـف عـن أن يخلـق المعـاني مـن حـروف النـور التـي تشـكلت مـن حولـه...

ثم أخبره عن أسرارٍ لم يأذن له بكشفها في وقتها...

كان الفتـى يُبـصر حـاضره ومسـتقبله وعلـوم مَـن قبلـه وعلـوم مَـن بعـده وعلومًـا لا يعلـم بهـا إلا خالقهـا...

كان كشفًا مجملًا لتفاصيل سيأتي وقتها بعد حين...

وكنـتُ أبـصر مـا يُبـصره بـدون أن أشـعر أني أعلـم مـا يعلمـه ومـا سـيعلمه، فقـط أعـرف مـا هـو فيـه ومـا سـيكون عليـه...

ولكن....

لماذا هذا الفتى، لماذا أقتربُ منه لهذه الدرجة؟

ما الذي يربطني به؟

هل هي فقط فاطمة أم أن هناك شيئًا آخر؟

مـع تلـك التسـاؤلات اختفـى الفتـى مـن المـكان وتشـكل الصـوت مـن جديـدٍ ولكـن بـدون أن أسـمعه في صـورة القلـب...

أخـذني بعيـدًا، رغـم أنـه ليـس هنـاك بعـد، ولكنـي شـعرتُ بـذاتي تقـترب مـن كـونٍ بعيـدٍ عنـي...

أحضرني في قلب فاطمة...

كما لو كنتُ أحتاج لسماع القلوب لأبصر الحقائق...

ـ حين تبحث عن ارتباط فأنت تخلق الحجاب، وحين تخلق الحجاب ستجد الموت...

ـ وهل لهذا لم يمت الفتى في تلك الليلة؟

ـ حين امتزج الفتى مع المعنى فيما حوله من ظاهر، حضرته حقائق ذاته التي هي موجودة من قبل ولكنها تُخلق مع حضور العلم بها...

ـ فحين علم بها حضرت؟

ـ حين علم بها زال الحجاب فأبصر في وجود الغيب وجود العلم...

ـ والعلم حينها ينفي الموت...

ـ الموت في ظاهره هنا لا يموت ولكنه يولد حياة لا تنتهي...

ـ هل نحن الآن في أحد تلك الأشكال من لا نهائية الحياة التي تولد من الموت...

ـ ربما إذا رأيت ما أنت فيه هو موت الظاهر غير المعلوم، وبعثه معروفٌ بكشف حقيقة معناه...

ـ أنا في رحلة موتٍ إذن؟

ـ كل ما يُخلق فهو في رحلة موت...

ـ ثم حياة؟

ـ بعضهم يموت ويحيا في كل لحظةٍ، أغلبهم يكتفي بموتةٍ واحدةٍ ويحرم نفسه من متعة الخلود في الحياة...

- كيف ذلك؟

- كل ما يُخلق سيموت، لذا حين تموت لتُخلق من جديدٍ فأنت في الحقيقة تعيش أبدًا كما أنك تموت دومًا، وهذا خلود المخلوق...

- إذن موت الظاهر هو فرصة للخلود؟

- موت البشر هو طريقهم الوحيد للخلود، هو مخرجهم الطبيعي، ليس هناك غيره لمن لا يمتلك الرغبة في الخلود في الحياة المخلوقة...

- وإذا كان الموت يقود للخلود فلماذا لا تريد مني أن أبحث عن الارتباط الذي يقود للحجاب الذي يؤدي للموت؟

- حين تبحث عن الارتباط فأنت تخلق حجابًا يحكم بالموت على من تبحث عما يربطك به. الحجاب هنا ليس في موتك ولكنه في موت من تريد أن ترتبط به.

- كيف هذا؟

- حياة من تحب من أنفاس روح حبك، هو بك ومنك، حين لا تبصره ممتزجًا بك ستخلق ما يفصله عنك، فتقطع عنه أنفاسك التي يعيش بها في وجود كونك، فيموت...

- وكيف أحميه من الموت؟

- كل ما في الكون تجليات لحب لا ينتهي، هي منك وبك، لا تبحث خارج ذاتك عما يربطك بها، فقط أبصر ما هي عليه في الحقيقة، هي أنت، وحينها ستعيش هي وستعيش أنت...

- لو حققت هذا فليس هناك موت؟

- لو حققت هذا سيموت الموت...

حبيبة

- سيموت الموت!!!!

هتفت بصوتٍ خافتٍ كما لو كنتُ قد أدركت حقيقةً صعبةً على فهمي ولكن من الممتع إدراكها..

لذا أخذت أكررها بهدوءٍ:

- سيموت الموت... سيموت الموت... سيموت الموت.

في تلك العزلة عن الوجود مع هذا الشيخ الغريب، شعرتُ بذاتي تحتضنُ لفظ الموت، شعرت بالحروف تفتح لي أذرعتها، لكي تضمني في قربٍ للمعنى الذي تحتويه، والذي يحتويها...

كانت أول مرةٍ أشعر بما حسبته قصد الشيخ الغريب عن حضرة الحروف...

فتحت لي الحروف عن مكنونها فحضرت مع معناها في ظلٍّ من نور تجلياتها...

كل حرفٍ له تجلٍّ خاص يُضيء لي جانبًا من معنى لا يتوقف عن أن يتغير بتغير مصدر النور الذي أبصره من خلاله.

الميم والواو والنون...

م و ت

استوت الواو على زاويتها فسكنت في مركبها وأخذتنا نبحر في بحر التاء نقترب من جزيرتيه، ويُحيط من فوقنا الميم بسماء كوننا الخاص...

كان الشيخ الغريب يبصر رحلتي، أدرك في غيبي عنه ما أنا حاضرة فيه ومعه وبه...

وسمعت صوت المعاني يُحدثني بحروفٍ من تساؤلاتي، فأجابني بدون أن تسمعه أذني، بحديث قذفه في قلبي...

- لا يموت إلا من تحجبينه بحجاب الوصل....

لا فراق إلا لمن لا يرى إلا الفراق....

سيموت الموتُ في حياتك حين تُحيي من تُميتين بذكر موته...

ما في الوجود إلا حيٌّ بلا بدايةٍ ولا نهايةٍ، فكيف تخلقين ما ينفي الحياة وأنتِ لست إلا عدمٌ بلا حياة....

ثم عُدت...

فتحتُ عيني لأجدني كما كنت، لا أدري كم مرَّ من الوقت أو ربما لم يمر وقتٌ، أو ربما لم يعد هناك وقتٌ من الأساس...

كان الشيخُ الغريبُ لا يزال على جلسته، وما زلنا في عزلتنا في الجبل...

ولكني عرفتُ لحظتها أني لم أعد كما كنتُ، عُدت وقد علمت ما يجعل سؤالي له، وحديثي معه أكثر قربًا مما هو فيه عن ما كنت أنا عليه...

عرفتُ معنى أن تبصر علم من يعلم بدون أن تعلمه ولكن بمعرفة وجودٍ له يخلق لديك فهمًا بوجودٍ أكبر منك، لا تعقله ولكنك تؤمن بوجوده....

صحيح أنه قبل تلك اللحظة، كانت دهشتي بحضوري في الزمن بدون قيود من حدود الزمن التي نعرفها كماضٍ وحاضر ومستقبل، قد قلت، ولكنها قلت لتكرار ما يُدهش في البداية لذا صار هناك تعود عليه مع تكراره.

الآن مع معرفتي بما يعرفه الشيخ الغريب بمكاشفة هذه المعرفة، لم تعد دهشتي نابعةً من عدم علمي، بل صارت دهشتي حيرة مع ازدياد معرفتي...

- المعرفة تزيدك حيرةً، لأنك تريدين المزيد، فلا يسعفك علمك، فتتحيرين حتى تعلمي فتزدادين حيرة...

- سمعت هذا الكلام من قبل ولكني الآن أعرف معناه على التحقيق...

- وهل تحققت من حقيقة الموت والفراق والبعد وغيرها من الكلمات التي تجتمع حروفها حول معنى واحدٍ...

- أخبرني أنت، هل لو عرفت هذه الحقيقة الآن سينتهي لدى إحساسي بألم البعد والفراق والموت؟

ابتسمت وأنا أسأله..

وابتسم..

كان يعلـم أني أعلـمُ الجـواب ولكنـي بـدأتُ أتواصـل معـه بمـا يليـق بمعرفتـي...

كنـتُ أرى أني الآن بـلا إحسـاسٍ مـؤلمٍ بالفقد والبعـد والموت، صرتُ أعـرفُ كيـف أن مـن رأيتـه في الظاهـر قـد بعـد عنـي بالمـوت هـو حيٌّ بمـا أعيشـه في ذاتي مـن معـاني القـرب بـدون حجـاب البعـد...

ولكنه أجاب بما فاجأني:

- بالتأكيـد معرفتـك بحقيقـة المـوت الآن سـتزيد إحساسـك بـألم البعـد...

كـما لـو كان قـد ألقـى بي مـن فـوق جبـل ثقتـي إلى أعـماق كهوف شـكوكي مـن جديد...

- كيف ذلك؟

ابتسـم هـذه المـرة أيضًـا ولكـن ابتسـامة ارتبطـت بعـودة نـبرة الحـيرة في صـوت سـؤالي...

- ليـس هنـاك غـير الحـيرة يـا حبيبـة، ومـع الحـيرة يـأتي اليقـين الـذي يأخـذك لتسـليم، ولكـن هـذا التسـليم وذلـك اليقـين وهذه الحـيرة كلهـم يرتبطـون بمجهـولٍ لنـا معلـوم لذاتـه، يكشـف مـا يشـاء، وهـذا الكشـفُ يخلـق معرفـة تقودنـا لقـرب ولكـن القـرب يكشـف أننـا مـا زلنـا في بعـدٍ، رغـم أنـه أقـرب لنـا مـن ذواتنـا، ولكـن نقـص معرفتنـا يعيقنـا، فنشـعر بـألم بعـد المعرفـة بـه وليـس بعـد الوجـود معـه...

- وكيف نعيش هكذا...

أغلق عينيْه وهو يعتدل في جلسته..

- تعالْ أكمل لك ما حدث مع فاطمة والفتى لتعرفي كيف تعيشين هكذا...

ثم غاب وغبت معه...

الشيخ الغريب

عُدت إلى فاطمة...

لم أعد خيالًا أو مسبحة نور تجول في الزمن متجاوزةً حدود المكان...

عُدت بشرًا في ظاهر الكون،

عُدت بشرًا على بابها،

حيث كنت دومًا أجلس،

عُدت لمكاني على الأعتاب...

كم مرَّ من الوقت؟

بالنسبة لي لم يكن للسؤال معنى، فالوقت لم يعد يُقاس بالكم، صار الوقت يُشعر به بالكيف...

ولكن كم مرَّ من وقت كونها منذ تركتها لأبحث عنه بعيدًا عنها...

تُرى هل حضر الفتى أم لم يظهر بعد في حياتها؟

هل عرفت منه سرَّ يس؟

هل عرف منها سر الفاتحة؟

عـاد لي حينهـا ذلـك الشـعور بالغـيرة، ليـس غـيرة حـب كالسـابق ولكـن غـيرة عـدم معرفـة شيء يخـص مـن أحـب...

حـين تركـت الفتـى في منامـه، وحـضرت لوعيـي بجسـدي في كـوني، كنـت قـد توقعـت أن أعـود لحيـث تركتـه، في المقابـر، في الليـل، مـع الفتـى، ولكنـي وجـدتُ نفـسي حيـث كنـتُ قبـل أن أتركهـا.

لم أكـن نفـسي كـما تركتهـا، لقـد اختلفـت، لقـد تعرفـت عـلى وجـود يتجـاوز مـا كانـت تمنحنـي إيـاه، يمكنـك أن تقـولي، صرتُ في تلـك اللحظـة حـين عـدتُ مـن غيبتـي في مسـتوى مـن المعرفـة لم تتحـه لي معرفتـي بعلـم فاطمـة...

لـذا حـين تذكـرت كيـف أنهـا اختصـت الفتـى بمعرفـةٍ لم تتحهـا لي، شـعرتُ بـأن لـديَّ القـدرة عـلى أن أعـرف المزيـد، ولكنهـا لم تُسـاعدني، أنهـا تركتنـي أعـرف بـذاتي عـن ذاتي...

كنـتُ مـا زلـت جالسًـا عـلى بابهـا، كان النهـارُ يقـترب مـن انتصافه، ولم تكـن الشـمس في ذلـك الوقـت مـن العـام في عنفوانهـا، كانـت لا تـزال تنكـسر خلـف سـحبٍ ليسـت بكثيفـةٍ ولكنهـا تمنـع حدتهـا. لـذا لم أشـعر أني بحاجـةٍ للدخـول عليهـا، ربمـا كنـت متهيبًـا...

لم أكـن أعـرف كيـف سـأتحدثُ معهـا، لأول مـرةٍ كانـت لـديَّ معرفـة أكـثر منهـا، أو هكـذا ظننـتُ، كان مـا يجذبنـي للجلـوس لهـا والشـوق للقائهـا هـو افتتـاني بمـا أعرفـه مـن خلالهـا...

توقفتُ عند ذلك الخاطر؛ أنا لم أكن أحبها، فقط كنت مفتونًا بما أعرفه من خلالها، والآن وقد بلغت تلك المرتبة من المعرفة بدأ الافتتان يقل، هل هذا هو ما يجعل لهفتي للقاها أقل مما اعتدت عليه؟

أم هي الغيرة من الفتى وما شعرتُ به بينهما من رباط يتجاوزُ ما بيني وبينها؟

كنتُ أزدادُ معرفةً وثقةً بما لديَّ، وهذا يجعلني أشعرُ بأني لا أحتاج إليها، ولكن بنفس الدرجة كانت تساؤلاتي تزيد من حيرتي، هل عدم احتياجي إليها الآن هو شعورٌ عابرٌ لأني أريد أن أستقل بوجودي بعيدًا عنها لما عرفته عنها وعنه...

لم يطل انتظاري،

خرجت من غرفتها لساحة البيت،

وقفت إلى جواري،

تأملتها...

كنتُ أعلم أنها قد قاربت على التسعين، ولكن كان البهاء في وجهها من نورٍ، أعرفُ مصدره، يجعل من لا يعرفها يراها ابنة أربعة عشر...

كنتُ أستحيي أن أنظر إلى وجهها وهي في هذه السن من حمرة خديْها، وحسن نعمتها وجمالها...

كان لها حال معه...

لا يُمكنني أن أشرح لك كيف، فقط أعرف، كشف لي الزمنُ عن أسرارٍ تجعل من حسابات الأرقام أمرًا غير ذي معنى في حقائق السنين...

لم تكن تنظر إليَّ، رغم أنها تعلم بوجودي، كانت تنظرُ للسحاب المانع لحرارة الشمس، أو ربما كانت تتأمل ما وراءه أو ما بداخلها من خلاله...

ـ هل كنت هنا حين حضرت السيدة التي بالداخل؟

سألتني بهدوء...

هل أخبرها أين كنت؟ كان سؤالها يُخبر أنها لم يمر على غيابي وقتٌ محسوسٌ بالنسبة لها، أو ربما كان محسوسًا ولكنها تركت لي حرية أن أخبرها أين كنت وقتما أشعر أنه مناسب...

قررتُ أن أمنع نفسي عن الغرق في بحور حيرة المعرفة تلك، وأن أجيب بما يريده الله للحوار أن يصل بنا...

ـ لا لم أكن هنا. من هي؟

التفتت إليَّ كما لو كانت ستقول شيئًا ولكنها غيَّرت رأيها ثم أعادت النظر للسماء من جديدٍ وهي تُجيبني:

ـ إنها جارة قديمة، رحلت لبيتٍ بعيدٍ عن هنا من أعوامٍ عديدةٍ، جاءت إليَّ اليوم تريد مني أن أساعدها في الوصول إلى زوجها...

ـ وهل زوجها مفقودٌ في الحرب؟

ـ لا ولكنـه سـافر إلى بلـدةٍ بعيـدةٍ في تجـارةٍ لـه، ولـن يعـود قبـل ســتة أشــهر أخـرى.

ـ ولماذا جاءت إليك ولم ترسل إليه كتابًا مع عمال البريد؟

التفتت إليَّ مرةً ثانيةً ولكن هذه المرة كانت مبتسمةً:

ـ تريــد للرســالة أن تصلــه الآن ليــترك مــا يعمــل عليــه ويتحــرك عائــدًا إلى أشــبيلية الآن..

بدت الدهشة واضحةً في صوتي..

ـ ولكـن عـمال البريـد مهـما أوتـوا مـن سرعـةٍ، لـن يصلـوا إليـه قبـل أسـبوع عـلى أحسـن تقدير!!!

بـدأت تتجـه للداخـل كـما لـو كانـت تريـد منـي أن أتبعهـا وهـي تضيـف:

ـ لهذا جاءت إليَّ، لأرسل إليه الفاتحة...

ثـم صمتـت لحظـةً ثـم أكملـت حديثهـا بـدون أن تنظـر إليَّ لـترى مـا اعـتراني مـن دهشـةٍ، ربمـا لعلمهـا بهـا:

ـ ألا تريد أن تتعلم سر الفاتحة.....

كيف عرفت؟

أم أنها لا تعرف ولكنها شعرت؟

هل شعورها بما أقلقني دليل حبها لي؟

أم أن محاولتهـا تخفيـف انزعاجـي هـو مجـرد رد فعـل لمعرفتهـا بحبــي؟

لماذا تخلق المعرفة كل هذا الكم من الأسئلة؟

لم أستطع أن أكبح نفسي، كنت قد بدأت أدرك كيف ما ظننت أنه ثقة هو في النهاية وهم؛ المعرفة خلقت وهمًا لحظيًّا بالثقة ولكنها في الحقيقة تفتح الباب لطلب معرفة أخرى لم أكن أعرف بها من قبل...

لذا وهي تدخل أوقفتها بسؤالي:

ـ هل تعرفين؟

استدارت بهدوئها المحبوب:

ـ من يسمع له يزداد معرفة، ويعرِّفه من يعرف...

فتنتني من جديدٍ، كيف يمكن أن أصل لمعرفتها، لهدوئها، لحبها...

ـ هل هناك ما لا تعرفينه؟

كان هذا هو سؤالي من البداية، ولكني لم أعرف به إلا حين خرج مني هكذا بدون مقدمات، بشعوري، كنت أحتاجُ أن أعرف هل هي حيرتي وحدي أم هي حيرة الكون في حضوره أمام معرفته...

ـ وهل هناك ما أعرفه؟

ابتسمت وأخذت يدي وهي تسير بي للداخل مكملة حديثها:

ـ ستعرفه بالعقل، ستعرفه بالنقل، ستعرفه بالذوق، ستعرفه بالكشف، ستعرفه بأي شكل وكيف، ولكنك مهما عرفت عنه لا تدعي أنك عرفت شيئًا...

حسـنًا يـا عزيـزتي، أخبرينـي أيـن هـو زوجـك ولـنرى مـا سـيفتح علينـا مـن أسراره...

كنـا قـد دخلنـا الحجـرة حيـث تنتظرهـا السـيدة، وينتظـرني الفتـح...

حبيبة

- هل لي أن أسألك سؤالًا؟

توقـف الشـيخ الغريـب عـن حديثـه، ونظـر إليَّ نظـرةً مشـجعةً عـلى السـؤال...

- أشـعر في بعـض الأحيـان حـين تحـكي عـن موقعـك بالنسـبة لفاطمـة أنـك قـد أخـذت مـكاني في حديثـي معـك، وأن فاطمـة قـد أخـذت مكانـك هنـا لتقـوم بـدورك هـذا هنـاك، هـل إحسـاسي صحيـح؟

اتسـعت ابتسـامةُ الشـيخ الغريـب بشـكلٍ لم أره مـن قبـل، كـما لـو كان سـؤالي قـد فاجـأه بـشيءٍ سـعيدٍ لم يكـن ينتظـره...

- كل مريدٍ هو مُراد، وما من مُراد إلا وهو مريد...

- إذن إحساسي ليس إحساسًا مجردًا، بل هو واقع بشكلٍ ما؟

لم يزد إلا ابتسامًا وهو يقول...

- تعددت الآيات والأمر واحد..

حاولـت أن أفهـم منـه، ولكنـه واصـل حديثـه، كان كـما لـو كان قـد اقـترب مـن محـور قصتـه ولا يريـد أن يتوقـف الآن...

الشيخ الغريب

كانـت السـيدة تجلـس في انتظـار عـودة فاطمـة، التـي ابتدرتهـا بقولهـا:

ـ حسـنًا يـا عزيـزتي، أخبرينـي أيـن هـو زوجـك ولـنر مـا سـيفتح علينـا مـن أسراره...

انتبهت السيدة لوجودي وتلعثمت قليلًا قبل أن تجيب:

ـ لقـد غـادر مـن شـهر في اتجـاه شريـش، لا ريـب أنـه يصـل خـلال هـذه الأيـام.

أشارت إليَّ فاطمة أن أجلس إلى جوارها.

ـ ما ترى فيما تريد؟

كنـت مـا زلـت غـير عـارفٍ بمـا سـيحدث، لـذا مـرةً أخـرى قـررت أن أتـرك سـلوك طالـب العلـم وأن أكـون معهـا كـما يريـد...

وجهتُ سؤالي للسيدة:

ـ ماذا تريدين يا أمي...

ـ أريده أن يعود الآن، هناك أمرٌ لا يحتمل الانتظار.

نظرتُ لفاطمة وقلت لها:

ـ تريده أن يحضر في أسرع وقت..

قامت فاطمة وقالت للسيدة:

ـ اذهبـي الآن، وسـيكون عنـدك قبـل انتهـاء الأسـبوع بـإذن اللـه، فقـط أكـثري مـن قـراءة الفاتحـة...

نظـرتْ إليهـا السـيدة وهـي تريـد أن تصدقهـا ولكـن كان هنـاك قـدرٌ مـن الشـك في صوتهـا وهـي تودعهـا وتشـكرها...

خرجت السيدة والتفتت هي إليَّ:

ـ هل تعلم مقدار حبه لك؟

ـ هل يجب أن يكون هناك مقدار ليتأكد الحب؟

ـ لا، الحـب ليـس لـه مقـدار، ولكـن المحـب يهبـك مـا يجعلـك تبـصر حبـه لـك وحبـك لـه...

ـ هل تعلمين مقدار حبه لكِ؟

ـ لقد أعطاني فاتحة الكتاب...

ـ كيف أعطاك إياها؟

صمتـت لحظـةً كـما لـو كانـت تحـدد كيـف سـتُخبرني بمـا تريـد أن تعرفنـي بـه

ـ كل مـا في الكـون هـو مـن نفـس الـكاف والنـون، كل مـا في الكـون مـن حـروف منطوقـه أو غـير مسـموعة، كل مـا في الكـون هـو حديـث لا ينتهـي مـن كلماتـه.

كلامـه في كتابـه ظاهـره حديـثٌ محـدودٌ بحـدود مـن يقـرأه ولكـن باطنـه لا محـدود بمعـاني مـن أنشـأه.

منا مـن يكتفـي بظاهـره ومنـا مـن يفتـح عليـه بـأسراره فيشـعر بحـلاوة معرفـة لا وصـف لهـا...

هــو في حبــي لــه أهــداني معــاني الفاتحــة، حروفهــا، كلماتهــا، فكشــف لي بهــا مــا لا يــراه غــيري...

هل تقرأها معي...

كان حديثهــا يغيــب بي مــن جديــد بعيــدًا عــن حــدود المــكان والزمـان، شـعرت بحـضرة الحـروف مـن جديـد، لم أكـن في رؤيـا الفتى، أنـا هنـا معهـا، ولكنـي شـعرت بحـروف الكـون المنطوقـة وتلـك غـير المسـموعة تجتمـع مـن جديـد، ولكـن تتشـكل بلانهائيتهـا في كـون فاطمـة بمـا هـو خـاص بهـا...

كنـتُ في غيـبٍ عنهـا وإن كنـتُ في حضـورٍ معهـا، كنـتُ أبصرهـا وقـد شرعـت في تـلاوة الآيـات، لم تكـن تتلوهـا بحـروفٍ مختلفـةٍ، هـي ذات القـراءة التـي أسـمعها وأتلـو بهـا الفاتحـة، ولكـن كـما لـو كانـت تتزيـن بأنـوارٍ خاصـةٍ بهـا، فتتشـكل بوجـود لا يـراه غيرهـا، وأنـا كنـت حـاضرًا في تلـك اللحظـة...

أخـذت الحـروفُ تتجمـع في غرفتهـا الضيقـة، لم تعـد غرفتهـا ضيقةً كـما كنـت فيهـا قبـل لحظـات، صـارت كونًـا خاصًّـا بهـا، تجمعـت فيـه معـالم حبهـا لـه، فانعكسـت عـلى الوجـود سـعةً ورحابـة...

لم أكـن في رؤيـا أو في خيـالٍ متجـاوزٍ للزمـن أو المـكان، كنـتُ في حـاضري معهـا، جذبتنـي معهـا لكونهـا، أتاحـت لي أن أشـاركها تلـك اللحظـة اللامتناهيـة في المـكان والزمـان، لا حـدود...

رغـم أني كنـت أشـاركها إلا أني كنـت أعـرف أنهـا معـه وحـده، هـي سـمحت لي بالحضـور بـدون أن تسـمح لوحدتهـا معـه بـأن تتلـوث بغـيره...

علمـت في تلـك اللحظـة مقـدار حبـه لهـا ومقـدار حبهـا لـه، كـما أبـصرت مقـدار حبـه لي بـأن يسـمح لهـا بـأن تسـمح لي بهـذا الحضـور.

وأنـا معـك الآن يـا حبيبـة أشـعر بمقـدار حبـي لـه، فهـو معـي وحــدي، رغـم أني أشركك فيــما عرفــت، فمهــما كنتــي معــي، فهــو وحــده معــي...

ـ هل تشعرين بما أعنيه؟

ـ نوعًا ما..

ـ مهـم قبـل أن أكمـل تلـك اللحظـة لـك أن تعـرفي هـذا المعنـي، كيـف أن تكـوني معـه وحـده رغـم أنـك تسـمحين للغـير أن يكـن معـك، ليـس هنـاك تناقـضٌ، فقـط هنـاك أنـت وهـو ثـم الآخريـن، مـا بينـك وبينـه لـو كان قويًّـا وصادقًـا فلـن يتغـير أو يتأثـر بوجـود غـيره، فغـيره في الحقيقـة منـه...

ـ كيف ذلك؟

ـ كل الغـير هـو مظهـر لخلقـه فلـو أبـصرتِ الغـير كذلـك حينهـا لـن يكـون هنـاك غير.

ـ وهذا ينطبق على الزمان والمكان؟

ـ بالطبـع، فـكل زمـان ومـكان هـو منـه وبالتـالي ليـس هنـاك في الحقيقـة حـدود لـو أبـصرتِ مـا منـه في الزمـان والمـكان...

- وأنت كنت حاضرًا في زمانه ومكانه الخاص بها وبالتالي أنت كنت امتدادًا لكونها...

- أحسنت...

حين أبصرت حقيقة وجودي في كونها كتجلٍّ لحبيبها بدون أن أشغلها عنه، بدأت أفهم كيف أبصر كوني الخاص معه...

لذا تركت ذاتي لكونها فرحًا بأني جزء منها وهي جزءٌ مني وكلانا منه كلٌّ في كونه الخاص...

لم أعد مريدًا لها، كلانا مريدٌ للآخر وفي الحقيقة نريد حقيقة واحدة في ذاتها تريدنا معًا...

تركتُ ذاتي تذوب في حضور الحروف التي فتحت لي باب معرفتي بمقدار ما بينهما لأبصر حقيقة مقدار ما بيني وبينه...

كل ما في الكون درجات للقرب وفي الحقيقة هي القرب ذاته...

لذا حين أنصت للباء والسين والميم (بسم) والألف واللام واللام والهاء (الله) والألف واللام والراء والحاء والميم والألف والنون (الرحمن) والألف واللام والراء والحاء والياء والميم (الرحيم)

لم أكن أصغى لكلمات منفصلة،

بل لحروف متصلة،

داخل كل حرف باطن خاص به،

كون خاص به،

الباء لم تكن باء

كانت

ب

ا

ء

وبداخل كل حرف للحرف كون لا ينتهي...

كانت هي تواصل قراءتها وأنا أبصر ما تقرأه بحروفٍ داخل حروفٍ تكتب كونًا مختلفًا عن الوجود الذي اعتدته...

لم أكن أقف عند حرفٍ واحدٍ بل كانت كل الحروف حاضرةً وتكتبني معها من جديد...

لذا حين أقول لك إن الغرفة صارت كونًا خاصًّا بها فإني أعني ذلك بما تحمله كلمة كون من معانٍ...

تضيق عبارتي عن أن تصف ما حضرت فيه معها، ولكن هكذا هي العبارة، حدود تقتل اللامحدود من المعاني، ولكن أرواح أجسادنا هي ما تمحي تلك الحدود حين تصفو فتبصر اللامحدود...

حديثي لن يصدقه غير من له قلب يحوي تلك الروح وتحتويه...

قرأت الفاتحة مرةً واحدةً، أو ربما مراتٍ لانهائية، لا أذكر كم مرَّ من الوقت أو ربما لم يمر الوقت أو ربما لم يعد هناك وقت...

حضرت الحروف وما بها من معانٍ كيوم الحشر، تزاحمت في حضور بلا تراص ولكن بتناغمٍ، تلاصقت كما لو كانت كونًا واحدًا ولكن بكيفية يمكنك أن تبصري من خلالها ما وراء كل حرف...

تحدثـت إليهـا جميعًـا لا بصـوت آمـر ولكـن بحديـث ود كـما لـو كانـت في حـضرة أصحـابٍ لهـا...

همسـتُ في هـدوءٍ أو ربمـا بـدون صـوتٍ، لا أدري، غـير أنهـا طلبت منهـا أن تذهـب لفـلان زوج السـيدة ليحـضر إليها...

ثم عدت...

- هل تعلم مقدار حبه لك؟

همست بسؤالها، فأجبت:

- أعلم ولا أعلم..

ابتسمت

- هكذا هو، تعلم عنه لتعلم أنك لا تعلم..

- وهذا هو الحب.

- هذا هو عين الحب.

- وماذا بعد؟

- هل ما زلت في شك الحب؟

- تقصدين حبي لك؟

أومأت برأسها..

هـذا هـو السـؤال الـذي رحلـت عنهـا مـن قبـل لأجـد إجابـةً لـه، حبـي لهـا وحبـي لـه...

كيف أن حبي لها هو شكٌّ في يقين حبي له...

كنت أبحث عن يقين حبي له في حبي لها...

رحلت وأنا أريده وحده رغم أني لا أعرفه حقًّا إلا من خلالها، كيف أبرر حبي لها في رغبتي بتوحيد حبي له...

هذا هو شك الحب الذي من أجله رحلت عنها لأصل له وحده...

نظرتُ إليها محاولًا أن أجيبها بما بداخلي، رغم علمي أن العبارة لن تسعني:

ـ الحب له وحده، هذا ما لي شك فيه، الشك هو في حبي لك، هل هو مسموح به في ذات الحب له...

ـ الشك حين تفصل حبك لي عن حبي له...

ـ الشك هو حين أفصل كونه عنه...

ـ وهل أبصرته في كونه؟

ـ هو أبصَرني ذاته في لا حدود كونه...

ـ إذن هل زال الشك؟

ـ فني الفصل وحل الوصل فزال الشك.

ـ فمن تحب؟

ـ أحبك.

ـ من تحب؟

ـ أحبني.

ـ من تحب؟

ـ أحبه

ـ الآن تحب...

ـ الآن أحب يا فاطمة.

ـ الآن تحب يا محمد.

حبيبة

ـ محمد!!!!!

هتفت في مجلسي فوق ذلك الجبل، ولكنه لم يكن هنا معي...

كنت وحدي...

من هو محمد هذا؟

هل هو نفس الفتى؟

من هو الشيخ الغريب؟

هل هو نفس الفتى؟

أين هو؟

أين ذهب؟

بل أين أنا؟

وقفتُ في مكاني، كان الليل ما زال في منتصفه، لم أجده حولي...

هل انتهت رحلته معي؟

هل يجب عليَّ أن أكمل وحدي؟

جلست وكل تلك الأسئلة في رأسي...

شعرتُ برأسي تثقل بما تحمله من أسئلةٍ...

أغمضت عينيَّ...

شعرتُ بدفء حضوره وهو غير موجود...

مَن هو الذي أشعر به،

هل حبيبي الذي مات،

أم السيد نور،

أم الشيخ الغريب،

لعلها فاطمة،

أو ربما هو الفتى محمد،

أو ربما هي ذاتي؟

أو هم جميعًا في حضورٍ واحدٍ...

أنا

كلهم أنا، هم أنا...

شعرتُ بدفء حضوري،

شعرتُ بذاتي تجتمع بي،

ذاتي التي بدأت،

ذاتي التي عادت في الزمن،

ذاتي التي تجاوزت الوجود الظاهر،

ذاتي التي حلت في حضوري معه،

ذاتي التي أبصرت كوني الخاص في لحظات أكوان الآخرين،

أو ربما لحظات كوني مع الآخرين؟!!!

تجمعت أحداثُ الأيام الماضية في لحظةٍ واحدةٍ،

ربما هي لحظة واحدة؟

كل ما مرَّ بي هو شيءٌ واحدٌ،

حقيقة واحدة،

كما تجمعت الحروفُ في كونٍ واحدٍ،

تجمعت اللحظات في لحظةٍ واحدةٍ،

في كوني الخاص،

صارت الأكوان كونًا واحدًا...

حقيقة واحدة...

سمعت الصوت يُحدثني،

بصوتٍ واحدٍ،

بأصواتهم جميعًا،

بحضورهم جميعًا

بحضورٍ واحدٍ

- حقيقة واحدة يا حبيبة...

بصوت السيد نور

بصوت الشيخ الغريب

بصوت فاطمة

بصوت الفتى محمد

بصوت حبيبي الراحل

بصوت مُنى

- حقيقة واحدة يا حبيبة...

بصوتي

لم أسمعها مراتٍ متعددةً...

سمعتها مرةً واحدةً

- حقيقة واحدة يا حبيبة...

مُنى

وصلت مُنى إلى ساحة انتظار السيارات المُلحقة بالمبنى. كان الوقتُ يقترب من العصر، ورغم أن الشمس كانت خفيفةً في ذلك الوقت، إلا أنها شعرت أنها تقطع مسافةً مرهقةً من مكان سيارتها إلى مدخل المبنى..

كانت الخطوات ثقيلةً عليها، لم تكن تُحب تلك اللحظة، لم تكن تحب رؤيتها هكذا، رغم أنها اعتادت على تلك الزيارة إلا أنها لم تشعر يومًا أنها ستعتاد على رؤيتها هكذا.

كانت السيدة الجالسة في صالة الاستقبال تعرفها، لم تطلب منها أن تسجل اسمها، فقط أومأت إليها مرحبة.

كانت تعرفُ طريقها...

سـارت في الممـر المـؤدي للسـلم الـذي يقودهـا إلى غرفتهـا في الـدور الثـاني.

كان الهـدوء هـو سـمة المكان، لـذا شـعرتُ بنقـرات كعـب حذائها كـما لـو كانـت تخـترقُ الهـدوء لتتحـدث إلى الصمـت الـذي يلـف الوجـود الـذي ينتظرهـا...

كانـت تريـدُ مـن ذلـك الصمـت أن ينتهـي، كانـت تريـد منـه أن يتحـدث إليهـا، أو ربمـا كانـت تريـد مـن أذنهـا أن تسـمع فلربمـا كان للصمـت حديـثٌ لا تسـمعه أو لا تعـرف لغتـه.

كانـت تشـعرُ دومًـا أن الصمـت في هـذا الهـدوء هـو مظهـرٌ واهٍ لأحاديـث لا يسـمعها إلا مـن يفهـم لغـة الصمـت...

ليس الهدوء إلا حديثًا بلغة الصمت،

هكذا شعرت مُنى في ذلك اليوم...

لذا كانت متحفزةً لتسمع،

كانـت تريـدُ أن تسـمع مـن الصمـت حقيقـة مـا حـدث لهـا مـا دامـت لا تُخبرهـا بلغـةٍ تعرفهـا...

الحرف نور

لـكل شيء في الوجـود لغـة ولكـن لا تفقهـون حروفهـا، ربمـا تحتاجـون لفهـم المعنـى، حينهـا سـتتضح الحـروف.

هكـذا كنـتُ أحـدث نفـسي في تلـك اللحظـة، كانـت قصتهـا تقـترب مـن نهايتهـا التـي تكتبهـا، ولكنـي أعـرفُ أنهـا صـارت قـادرةً عـلى أن تعـرفَ أنـه ليسـت هنـاك نهايـة لـشيء وإنمـا هـي بدايـات بـلا نهايـات وأسـئلة بـلا إجابـات.

اقترب مني وهو يشعرُ بحديثي لنفسي:

ـ ما زلت غير مرتاحٍ لفكرة أن تكتب ما مرَّ بها..

ـ لماذا؟

ـ معـاني الكـون تتجـاوزُ حروفهـا الضيقـة، ألا تعتقـد أنهـا قـد تُسيء للمعنـى أو يُسـاء فهمها؟

ـ ولكنهـا معـاني كونهـا الخـاص، وتلـك قدرتهـا عـلى ترجمتهـا بحروفهـا الخاصـة، ربمـا أرادت لجانبهـا البـشري أن يعـي مـا لا يبـصره مـن حـروف الكـون الممتـدة.

ـ وما الهدف؟

ـ ربمـا لـو عـرف الآخـرون بعضًـا مـما عَرَفَـت لفتحـت لهـم أبـواب تأخذهـم لبدايـات أكوانهـم الخاصـة.

ـ ولكنها أبصرت حقيقة الكون بتجلي نور حرفك عليها!!!

ـ ربما سيمتد نور حرفي لغيرها من خلال حروفها...

ـ أتراها تبصر أنها أنت...

ـ كما أعرف أنك أنا، فهي ستعرف..

حبيبة

ـ العــارف مــن يُبــصر الواحــد في اجتــماع الأضــداد، مــن يُبــصر الوحــدة في عــين الجمــع...

سمعته في غفوتي،

كان هذا هو السيد نور الذي يُحدثني الآن...

أشعرُ به عائدًا إليَّ، ولكني لا أعرفُ بعد، أين قد عاد إليَّ؟

أين أنا....

ـ أنـت مـا زلـت في رحلتـك مـع الصـوت مـن خـلال مجـلى ووصـل نعـوت المحبـين...

هو السيد النور وهذه هي ألغازه...

هل أحتاج أن أتكلم ليجيب ويشرح؟

ـ لا يـا حبيبـة، نحـن الآن نتحـدث بلغة صـوت كونك، ستسـمعينني وسأسـمعك وتجيبينني وأجيبـك بحديثك الخاص...

هل أحدث نفسي إذن...

ـ كل ما في كونك هو منك، كله حقيقة واحدة، منه...

إذن فلماذا رحلت بعيدًا عن نفسي لأعرف ذلك؟

ـ مــن قــال إنــك رحلتــي بعيــدًا، أنــت في القــرب معــه ولكــن يخفيـك عنـه مظاهـر تمنعـك مـن معرفـة نفسـك لتعرفيـه. كل

مـا ظهـر لـك مـن مـكان وزمـان هـو حجـاب، أنـت الآن تنزعيـه، الآن تتحدثــين بدونــه...

حدثني إذن ما هي رحلتي مع الصوت...

سأحدث نفسي إذن عن رحلتي مع الصوت...

سأخبرُ نفسي بحديث العارف بما يعرفه في رحلة الحيرة،

بدأتُ وعندي حزن من الفراق،

لا، بدأت وعندي رغبة في اللقاء،

ما بين الفراق وبين اللقاء بدأت إذن...

سـوف تـأتي لحظـاتٌ لا تدريـن فيهـا مـا تريـد أن تكتـب ولكنـك تعـرف مـا سيُكتب

كأنك مُطلع على الغيب..

ولكنك لا تمتلك القلم لكتابته..

كأنك تبصر اللوح ولكنك لا تريد للغيب أن يُعرف..

أن تصمــت أو أن تخــبر فتختــار الصمــت لأن حديثــه أبلــغ مــن حروفـك المتسـاقطة مـن فمـك...

ولكنه غيبي أنا ما سأحدث به نفسي،

حتـى إن اخـترت الصمـت فصـوت الحقيقـة سـيتحدث مـن خـلال حـروف كـون الصمـت العـارف بحقيقـة مـا يحـدث لي...

ما حدث ويحدث لي منذ لحظة البدء،

لحظة الحيرة الممتزجة بالمعرفة،

لحظة المعرفة الحاضنة لقلق الحيرة،

لحظة الحزن من الفراق المخلوقة من رحم الرغبة في اللقاء،

لحظة الرغبة في اللقاء الساكنة في وجود الفراق،

حين اجتمع الضدان في الواحد،

فبدأت رحلة بلا نهاية وليست تلك هي البداية...

في الأزل بلا بداية،

وللأبد بلا نهاية،

ولكن وعيي بها هو ما يحدها، هو ما أستطيع البوح به، ربما خلق الوعي ليحُد ما يُسمح للعارفين بتعريفه، ربما خلقت حروف الوعي لكيلا يجمح الخيال خارج حدود حروف البشر، ربما علمت ذلك لكي أبصر ما وراء ذلك...

لن تبصر ما وراء الحدود حتى تعلم بالحدود،

لن تبصر ما وراء نفسك حتى تعلم نفسك،

لن ترحل إلى باطن نفسك حتى تصل لظاهر نفسك،

الآن أحكي ما حدث لي...

- جئت لي حين لم أعد أشعر بشيء يربطني بهذا الكون. أعدتني للحياة بصوتك، بحروفك التي لم يسمعها غيري، أخبرتني عن الحب...

- في البدء كان الحب، لذا من هناك بدأنا..

- بالحب استحضرت حروفًا ربطتني بالذاكرة بأبياتٍ من الشعر:

أنا القرآنُ والسبعُ المثاني وروحُ الروحِ لا روح الأواني
فؤادي عندَ مشهودِي مقيمٌ يشاهدُهُ وعندكُمُ لساني

حين تعيشين في حروف الحق، تحضرين في كون حبه من خلال حديثه الذي لا ينقطع، فتتحرر الأجساد من قيودها فتطير الأرواح بوعاء الفؤاد إلى ذلك الكون، فتختفي حدود الزمان وقيود المكان...

- كانت تلك الأبيات مفتاحًا لباب العودة لحيث بدأت رحلتي. الآن أعرف كم كانت الحروف هي من يحملني عبر الوجود، الحرف لا يختفي، بل يتكرر في الظاهر ويتعمق في الباطن، فالحرفُ الواحدُ مركب في بحر وجوده حين تبصر فيه نفس خلقه ووجوده.

الحروفُ موجودةٌ به، وحضوري مع الحرف يوجدني حيث أشاء بتسليمي لما يشاء...

لم أكن أنتقل في الزمن، كنت أطوفُ في دوائر وجودي، فالزمنُ ليس سوى ظاهر تراكم ما هو موجودٌ بدون حدودٍ من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ...

- ووجودك مرتبط بوجود الكون كله، فالكونُ من حيث أنت هو كونك...

- فما الشيخ الغريب وفاطمة غير تجليات لحقائق كوني؟

- رحلتك معه توضح بمشاهدة تجليه في قصص محبيه...

- ولكنــي الآن أعـرف أن الشـيخ الغريـب هــو هــو الفتــى محمــد، هــو هــو الشـيخ الأكبر، وفاطمـة هــي هــي نفسـها مـن عاشـت في حياتــه...

أخـاف مـن سـؤالي أن يبـدو سـطحيًّا في خضـم مـا نتحـدث عنـه، ولكـن هـل مـا عشـته هـو هـو قصتهـم؟ هـل مـا حـكاه لي الشـيخ هـو قصتـه عـن نفسـه واكتشـافه لأسرار ذاتـه؟

ظهـر لي الشـيخ الغريـب بنفسـه، وكـما عهدتـه مـن قبـل تحـدث بصوتـه الهـادئ:

- ليــس التاريــخ مــا تقرئينــه، مــا في ســطور التاريــخ حــروفٌ مــن وعــي البــشر، ولكــن هنــاك ســطورًا مكتوبــةً في حــضرة حــروفٍ لا تبصرهــا ســوى أرواح مجذوبــة لحقيقــة لا يعلمهــا البــشر...

عدتُ كما كنت تلميذة تسأل:

- إذن هل حزنك في اللوحة هو حقًّا لأنك فقدت حب فاطمة؟

- لحظة الحزن من الفراق المخلوقة من رحم الرغبة في اللقاء،

لحظة الرغبة في اللقاء الساكنة في وجود الفراق،

أنــتِ نظـرتِ للوحــة بعــين تبــصر فقــط مــا بداخلــك مــن حــزن للفـراق، لـذا إن نظـرت لهـا الآن بعـد مـا علمـتِ ما تعلمين، سـتبصرين نظـرة شـوق وليـس فقـط حزنًـا، سـتبصرين اجتـماع الضديـن في العـين الواحـدة، فهكـذا الكـون ليـس إلا حقيقـةً واحـدةً ولكنهـا متعـددة...

كذلـك أنـتِ نظـرتي لي وفاطمـة في البـدء كقصـة حـب كـما تعودت عليـه مـن قصـص، ولكـن في كل رؤيـا لـك كنـت تريـن اللوحـة تختلـف ويضـاف إليهـا تفاصيـل تأخـذك لمعـانٍ تتجـاوز مـا اعتـدت عليه...

هكـذا هـو يتجـلى بصـورةٍ تأخـذ بشـغاف قلبـك حبًّـا لهـا، ثـم يتجـلى بصفـةٍ تشـدك لمـا خلـف الصـورة، فيتبعهـا بتجـلٍّ لصـورةٍ جديـدةٍ تفنيـك عـن المعنـى والصـور لتجمعـك بوجـودٍ أبهـى يغـوصُ بـك لحضـورٍ لا يخطـر بـكل مـا عرفـت مـن وجـود فتزداديـن لـه حبًّـا، لا نهايـة لتجـلي صـوره في حبـه كـما لا نهايـة لحديثـه بحروفـه التـي تُخـبرك بحقائـق هـذا الحـب...

- ولكنـك كنـت تُشـعرني بأنـك والفتـى محمـد شـخصان مختلفـان، كان دومًـا يُمثـل مـن تركتـك فاطمـة لحبـه؟

- شـعرت بذلـك مثلـما كنـتُ أشـعرُ قبـل أن تترابـط حـروفُ قصـة وجـودي لأفهـم حقيقتـي، كنـتُ أحـكي لـك عـن ذاتي التـي تسـعى لتصـلَ وليـس الـذات التـي وصلـت. كلاهـما أنـا ولكنـي في كل حـالٍ شـعورٌ مختلـفٌ. لقـد عشـتِ معـي رحلتـي كـما أني عشـت معـك رحلتـك...

عاد صوتُ السيد نور ليكمل:

- هل تشعرين برحلتك انتهت؟

- لا، أشعر بها قد بدأت...

- هكـذا الحـب في تجليـه يـا حبيبـة، لا يتوقـف عـن أن يبـدي خلقه الجديـد، لحظـة بعـد الأخـرى، حبـه لا يتكـرر، لا يشـبه بعضـه بعضًـا، لـذا فليـس هنـاك قبـل وبعـد، هـو في شـأنٍ جديـدٍ.

لـذا دومًـا ستشـعرين بأنـه بدايـةٌ جديـدةٌ، بـأن كل مـا حـدث هـو مجـرد لحظـة، سـتتلوها لحظـةٌ تحتويهـا وتكـون هـي ذاتهـا. حـين عُـدت في وجـودك لم تكـوني تبدئـين رحلـة، كنـتُ في بدايـة لحظـة مـن فيـض حبـه، جمعـك بذاتـك لتبـصري كـم يحبـك، لم يخـرق لـك العـادات أو يصنـع معجـزةً خاصـة أو كرامـةً لـولي، أنـت فقـط سـمحت لذاتـك أن تبـصر مـا في وجـوده، بعيـدًا عـن حـدود وعيـك.

لقد أبصرتِ تجليات أسراره على خلقه بسماعك لنور صوته...

- لماذا أنا؟

- ومن قال إنك وحدك؟

- هل يبصر الجميع ما أبصر؟

- كل من خلقَه بصوت كافه ونونه يسمع، ولكن قد لا يفقه...

- هل هناك غيرك مع غيري يرشده ويدله؟

- هل هناك معه غيرك؟

- أنتَ؟

- أنتِ؟

- أنا وهو فقط؟

- هو فقط؟

- وأنا؟

- صورة لتجلي الحب...

- فلا أنا ولا أنت، فقط هو؟

- هو...

ماذا أفعل وقد كشف لي ما في الأرواح فأضحك وأبكي،

مـاذا أفعـل وقـد أبـصَرت روحـي مـا تريـد النفـوس فأسـعد وأشـقى،

مـاذا أفعـل وقـد بسـط لي كـوني فامتزجـت معـانيَّ بنَفَـسٍ كافـه ونونـه،

ماذا أفعل وأنا في قربٍ يُبعدني لأبصر قربًا يُحيي وقبرًا يفني،

سـأدفن جسـدي في قـبرٍ مـن عـدم يعلـوه شـاهدٌ مـن وهـمٍ وسـأتلو مـن روحـي عليـه فاتحـة مـن فرقـان حقيقتـه الواحـدة...

لم يعـد لسـؤالي معنـى، فلـم يعـد للحـروف حقيقـة حـين تمتـزج بـإرادة منـي، فمعناهـا في الحقيقـة هـو فقـط، لـذا ليسـت لهـا حقيقـة إذا توهمتهـا منـي أو تحـكي عنـي...

الحـروفُ حـين تقرأهـا في سـطورٍ مـن خطـك فهـي وهـم الحقيقـة ولكـن حـين تبصرهـا امتـدادٌ لا نهـائي مـن أزل علمـه إلى أبـد قـدره فهـي تحقيـقٌ للحقيقـة...

فهو في الأصل كونه، وأنا فعله وهذه حروفه...

وما حيرتي به إلا علم بمعرفة عدمي في وجوده...

فهـي يقـينٌ بوجـود الحـق وليسـت حـيرة فيـه، ولكنهـا حـيرة في علمـي.

- خلـف كل لحظـةٍ في حياتـك تقبـع إمكانيـة جديـدة مـن المعرفـة وهـي في نفـس الوقـت احتماليـة للحـيرة، ليـس شـكًّا فيـما عرفـت

من قبل وإنما كشفٌ بأن ما تعرفه لا يكفي لتفهم ما أتاحه لك خلف اللحظة التالية.

ـ كل لحظة كأنها بابٌ مغلقٌ...

ـ الزمنُ يا حبيبة أبوابٌ تفتحه بإرادتك أو تُفتح لك. الباب سر من أسرار معرفة كونك...

فالبابُ المُغلق يفتح للخيال مجالاتٍ رحبةً من احتمالات ما يحتويه خلفه. ولكن في اللحظة التي تفتح فيها أبواب البشر ينحسر الخيال ويحاصر و يترك المجال لما ترينه بعينيك واقعًا. ولكن بابه هو الوحيد الذي مهما تخيلتِ ما خلفه فإنك حين تفتحينه سيطلق لخيالك العنان...

ـ لذا خلال رحلتي كان الخيال يشعلُ رغبتي في فتح باب يخلق رغبةً في خيالٍ لا ينتهي...

ـ ليس هناك محفزٌ للخيال على التحقيق سوى الحقيقة الوحيدة، معرفته هو.

ـ مهما تعددت المظاهر، فالحقيقة واحدة..

شعرت به يبتسم...

ابتسمت ثم تذكرت:

ـ ولكن أين أنا الآن؟ كيف سأعودُ وإلى أين سأعود وبأي كيفية سأعود؟

حبيبة

كنتُ في تلك الحجرة ذات الجدران البيضاء، حيث بدأتُ كتابة قصتي معه، ولكني لم أكن جالسةً على مكتب أو ممسكة بقلمي لأدون ما حدث لي.

كنت نائمةً، أو في سريرٍ مغمضة العينين.

ولكني كنتُ واعيةً بما حولي، كانت الشمس تقتربُ من المغيب، كان الهدوء يلف المكان بفعل فاعل. الهدوء المصطنع، الهدوء المفروض على الأماكن التي لا يمكنك أن تجعلها هادئةً إلا حين تأمر البشر بذلك. كما لو كان الأمر بالهدوء مطلوبًا حيثما يأتي البشر، فبدون وجود البشر فالهدوءُ طبيعي، ولكن مع وجودهم فالهدوء مصطنع.

كنتُ واعيةً كذلك بأني في انتظار شيءٍ ما.

أو أن شيئًا ما ينتظرني.

ولكني كذلك أشعرُ بأن جسدي ساكنٌ، ليس سكون من يرتاح، ولكن سكون من لا يرغب في الحركة. لذا من ينتظرني عليه أن يتحلى بالصبر، فليست لديَّ رغبةٌ على الوصول إليه بجسدي في هذه اللحظة.

إذن أنا في انتظار شيء ما.

ثم أدركت فجأة...

أنا في عالمي!!!

أو في العالم الذي بدأتُ واعية بذاتي فيه...

ثم وصل من أنتظر...

حبيبة

لم آخـذ وقتًـا كافيًـا لأسـتوعب أيـن كنـت حـين عـدت ووجـدت ذاتي مـن جديـدٍ حيـث تركنـي الشـيخ الغريـب، فـوق ذلـك الجبـل في الأندلـس.

كانـت الشـمس قـد بـدأت تـشرقُ مـن جديـدٍ، ولكنـي كنـتُ واعيـةً، هنـا أيضًـا، أني الآن أنتقـل بـين ذواتي في وجـودي الخـاص، أنـا حبيبـة الراقـدة في تلـك الغرفـة وأنـا كذلـك الجالسـة فـوق ذلـك الجبـل.

يجمعني ذلك الشعور بأني في انتظار شيء ما.

حـضر مـن أنتظـره هنـا مـن خلفـي، جلـس كعادتـه، بهـدوءٍ خـاص بـه، كـما لـو كان هـو مـن خلـق هـدوءه.

جلس ينتظر سؤالي.

كنـتُ أريـد أن أندهـش لوجـوده في البدايـة قبـل أن أسـأله مـا يجـب عـلي سـؤاله. ولكنـي وجـدتُ أن دهشـتي أصبحـت ملازمـةً لوجـودي، صـارت كل لحظـة تدهشـني.

يا لها من نعمة...

- هـي نعمـةٌ ولكنهـا في الحقيقـة مـا يجـب أن تكـون عليـه النفوس المتصلـة بحقيقتـه، كل يـوم هـو في شـأن وبالتـالي كل يـوم أنـتِ في دهشـة...

كان يعرف ما بداخلي...

ما دام يعرف بدهشتي فهو لا شك عالم بسؤالي

- من أنت؟

- ألم يخبرك عني وعنه؟

- أخـبرني عنـك تقـوده خـلال رحلتـه ولكنـه رحـل وتـرك لي خـبرًا أنـه أنـت وأنـت هـو...

- إذن أنتِ تعرفين من أنا..

- أنـت الفتـى محمـد والشـيخ الغريـب، هـذا مـا أعلمـه ولكنـي لا أعـرف كيـف.

- أحقًّا لا تعرفين؟

ترددت في الإجابة:

- أنتما في خيالي؟

ابتســم ابتســامته المعهــودة، أقصــد ابتســامة الشــيخ الغريــب المعهــودة، كــما لــو كانــت الابتســامة تؤكــد لي أنهــما واحــد.

- بدايـة نحـن في كونـك ورحلتـك، وقبـل البدايـة نحـن مـن بدايـةٍ واحـدةٍ. ثـم بعـد ذلـك أنـتِ حـضرت في رحلتـي بمـا يعكـس رحلتـك.

قصتي في كوني الخاص بي كانت في جانبٍ منها جزءًا من رحلتك في كونك.

ـ وقصة فاطمة كذلك؟

ـ قصص الأكوان تتداخل بتداخل مقاديرها التي في البدء كانت قصة واحدة، تشعبت وتباعدت ولكن خيط الوحدة يجمعها.

ـ هل لك أن تقرب لي المعنى أكثر؟

ـ كل قصة في الكون هي دائرة تدور حول نقطة حرف البداية، كل قصة تمتد حروفها من خيوط تلك النقطة، فتداخل الخيوط يخلق تعدد القصص ولكن في النهاية هناك خط واحد كلنا نستمد منه أحداث قصصنا. قصتي مع فاطمة تداخلت مع قصتك في اللحظة التي سلمت فيها ذاتك لتلك الأبيات في تلك اللحظة في ذلك المكان.

ـ ولكني تحدثت معك في زمنٍ بعيدٍ عن زمنك؟

ـ لقد تحدثت مع حروفي في وجودي حين حضرت بوجودك.

ـ إذن أنت فعلًا في خيالي؟!!!!

ـ كلنا في حضرة الخيال حيث ينزل المعنى ويعرُج الحس. هنا نحن الآن بعيدين عن حجاب الظاهر ومبصرين بنور الباطن.

ـ ولكن خيالي يستمد مما أعرف، وأنا لم أكن أعرف بك من قبل، فكيف وجدتُ بكل هذه التفاصيل؟

ـ وهم الخيال البشري هو الذي يعيش على ما تقولين، ولكنك حين تخلصت من وهم الخيال لتلحقي بخيال الحق لم يعد

لكونـك حـدوده المعهـودة وصرت تسـمعين لغـة الخيـال بحـروف مـن نـور مـدد الحـق.

ـ فصرتُ أبصر خيالك وخيال فاطمة متجاوزة حدود خيالي.

سكت لحظة أتأمله.

كان متجسـدًا أمامـي، لم يكـن في ذهنـي، ربمـا أنـا كذلـك في خيـالي وبالتـالي هـو جسـدٌ مناسـبٌ لمـا أنـا فيـه الآن...

ـ أنـا الآن في كـوني، في لا حـدود وجـودي، متجـاوزةً مـكاني وزمـاني وأتواصـل مـع مـددٍ مـن خيـال الحقيقـة بحـروفٍ مـن لغـة لا يبصرهـا غـيري.

أخبرني إذن كيف سأعود لكوني الذي بدأت منه؟

ـ وهل تريدين أن تعودي؟

ـ ألا يجـب أن أعـود؟ أليسـت هـذه الرحلـة لتسـاعدني عـلى أن أتواصـل مـع حـاضري بوعـي مختلـفٍ؟ أم أنهـا رحلـة بـلا عـودة؟

ـ هـي رحلـةٌ بـلا نهايـة، لديـك الآن معرفـة لـن يبصرهـا غـيرك، ولن يصدقهـا مـن سـتحاولين شرحهـا لـه. إن عـدت سـتظل موجـودةً معـك ولكنهـا سـتكون لـك.

ـ كيف عدت أنت؟

ـ لقـد عـدت حينـما علمـت حقيقـة الحـب، حينـما علمنـي وأعلمنـي بـأسرار الوجـود فعـدت كـما كنـت عنـد فاطمـة، ثـم انطلقـت في حيـاتي مخـبرًا عـما أذن لي ببوحـه. عشـتُ حيـاتي وأنـا أعـرفُ أكـثر مـما أنطـق بـه، رحلـت في أرضـه وتحـت سـمائه كـما

طفت ببيته وزرت معالم كونه، ولكن في كل ذلك كنت مبصرًا ما وراء ذلك.

حين يختارك لمشاهدة كونك بحروف حقيقته لتنصتِ لقصة وجودك بدون حجاب ظاهرك فإنك ستعرفين أنك ليس لك من الأمر شيء، أنك حيث يضعك ستكونين.

فليست لكِ إرادة غير أن تقبلي إرادته...

ـ وهل يريد لي أن أعود؟

ـ هناك من لا يرى في الأشياء إلا هو وحده وهناك من يرى الأشياء ويراه فيها، هناك الواقفُ الذي وقف أمام ما كشف له من حضرة وجوده فلم يعد له ولا لكونه وجود وهناك الراجع الذي يعود بعد الكشف للوجود الخاص به ولكن يراه في كل ما يتعامل معه في رجوعه. هذا الأخير يرى الحق والخلق.

وهناك من تكون رؤية الحق هي رؤية العالم، هذا الذي يشاهد الواحد في الكثرة والكثرة في الواحد.

أنتِ تعرفين ما يريد منك.

ـ كيف أعرف وأنا ما زلت أسأل؟

ـ تذكري أنك لا تسألين عن مجهول عنك، أنت تسألين عن معلوم لديك في غيب وجودك، لكنك تحتاجين أن تبصري وجودك لتعرفي إجابتك. فإجابتك لديك. منك السؤال ولديك الإجابة.

أنا من فيض ذاتك لذاتك...

وأنتِ منه له...

انظري حولك...

حبيبة

فتحت عيني لأبصر، فوجدتُ نفسي في تلك الحجرة، ما زالت عيون جسدي مغلقة،

حين يكون النوم صعبًا رغم أنك في حلم، وحين تكون في حلمٍ لا تستطيع الاستيقاظ منه،

ولكني أبصرت مُنى تدخل وتغلق الباب خلفها.

اقتربت من السرير حيث أرقد، شاهدتها تقبل جبهتي وتهمسُ لي:

ـ كيف حالك اليوم يا حبيبة؟

لم تنتظر مني إجابة رغم أني كنت أريد أن أخبرها أني بخير، ورغم أني شعرت أنها تتمنى لو أحدثها.

ولكنها من تحدثت...

جلست مُنى بجوار سرير حبيبة، كانت تأتي كل يوم تجلس في نفس المقعد، تتأملها وتحدثها، كانت تشعرُ أنها تسمعها، رغم أنها ما زالت في تلك الغيبوبة التي غابت فيها منذ تلك الليلة في إسبانيا.

تلك الليلة...

- أعلـم أننـي أكـرر الحديـث عـن تلـك الليلـة كل مـرة آتي فيهـا إليـك، ولكـن مـاذا أفعـل، أشـعر أني كنـت المسـئولة عـن انهيـارك الـذي أدى لغيبتـك هـذه.

رغـم أن رحلـة إسـبانيا كلهـا كان الهـدف منهـا أن نخـرج مـن الحـزن عـلى فراقـه، ولكنـك كنـتِ شـاردة الذهـن طـول الوقـت، كنـتِ تتجولـين هائمـة، تنسـين الأماكـن، كنـتِ أفقـدك في الشـوارع وتختفـين لتعـودي ولا تذكريـن أيـن كنـت.

كان لا بـد أن أقطـع رحلتنـا لنعـود لتتابعـي علاجـك مـن تلـك الصدمـة النفسـية ولكـن صدقينـي لم أكـن أعـرف مـا الـذي يجـب عـليَّ فعلـه.

أعـرف أنني في تلـك الليلـة واجهتـك بحديثـي، أعـرف أننـي كنـتُ قاسـيةً عليـك في اتهامـي وإثـارة مواجعـك ولكنـي ظننـت أن المواجهـة قـد تخرجـك مـما كنـت فيـه، لتعـودي للواقـع، لتعـرفي أنـه قـد رحـل وأن الحيـاة يجـب أن تسـتمر.

لكـن يبـدو أنـك قـد قـررت أن تغيبـي لتثبتـي موقفـك أن الحيـاة لـن تسـتمر.

كل يـوم أكـرر حديثـي لـك، لأني أريـد أن أعـرف إلى أيـن رحلـتِ؟ هـل سـتعودين؟ هـل هنـاك أمـل في أن تعـودي؟

بدأ صوتها يتأثر بحديثها، شعرت بدموعها:

- أخـبرني الدكتـور اليـوم أن وظائفـك الحيويـة قـد بـدأت تقـل عـن المعـدلات الطبيعيـة، أنـك بهـذا المعـدل لـن تكـوني حيـة

بالمعنـى البيولوجـي، أنـه قريبًـا سـنضطر لأخـذ القـرار الصعـب، بـأن نوقـف أجهزتـك، أن ندعـك تموتـين...

هل تسمعينني يا حبيبة؟

اقتربتْ مني أكثر وأخذتْ تكرر جملتها:

- قريبًـا سـندعك ترحلـين مـن عالمنـا، سـندعك في عالمـك، حيثـما أنـتِ الآن، هـل تسـمعيني يـا حبيبـة؟

هل تسمعيني؟

حبيبة

كنتُ أسمعُها...

بل كنتُ أريد أن أجيبها...

كنـتُ أريـد أن أفتـح عينـيَّ في عالمهـا لأخبرهـا بمـا حـدث لي، لأخبرهـا بـأني عـدت وقـد عرفـت سر الغيـاب وحقيقـة الحضـور.

أخبرها عن كوني كما أبصرته...

أخبرها عما كُشف لي...

ولكني وجدتُ نفسي في حجرتها،

ووجدتها أمامي،

مبتسمةً...

فعلمت أني لم يُأذن لي بالعودة بعد،

فابتسمتُ لها...

- هل تسمعيني يا حبيبة؟

- أسمعك يا فاطمة، فأخبريني!

كانت غرفتها بسيطةً كما رأيتها بعيون الشيخ الغريب من قبل، بل شعرت به حاضرًا معنا، لم يعد غريبًا شعوري بحضوره، هو معي دومًا، فهو رفيقي في وجودي في هذه الرحلة، كما أني رفيقته في وجوده...

لم يعد غريبًا عني، ولا أنا غريبةٌ عنه، ربما فقط ما زال غريبًا عمن لا يعرفه، أو من لا يفهمه...

ولن ألومَ غيري، فأنا لو لم أعش هذه التجربة بذاتي، لكان صعبًا عليَّ فهمه. كان من الممكن أن أتفهم التجربة لو قرأتها كما تقرأها أنت الآن، ولكن أن أسلم نفسي لها بالكامل هكذا؛ أشك...

تابعتْ فاطمة

- لم يعد هناك شيء أخبرك عنه، ولكن ما زال هناك كل شيء لتعرفيه...

- كيف سأعرفُ إن لم تخبريني؟

- وهل تحتاجين لمن يخبرك لتعرفي؟

- وكيف عرفت ما عرفت حتى الآن، كلكم تخبروني؟

- لسنا إلا انعكاسًا لمعرفة كُتبت عليك ولك وبك وفيك، نحن نتجلى بما كُشف لك...

- فمن يتحدث؟

- صوتٌ واحدٌ، من نفَسٍ واحدٍ...

- هل يُحدثني من خلالكم...

- يُحدثك من خلالك، بما أودعه فيكِ...

- لماذا إذن تقولين أنه ما زال هناك كل شيء لأعرفه، ألا أعرف ما فيه الكفاية؟

- لقد عرفت عن كونك ولكن لم تعرفي عن كونه، لذا فما زال أمامك كل شيء لتعرفيه...

- أليست معرفتي بنفسي وكوني معرفة به؟ هكذا تعلمت...

- معرفتك بك تعرفك (به) ولكن لا تكفيك لتعرفي (هـ)...

- ما الفرق؟

- (به) معرفةٌ (ب) وجودِه أما (هـ) فهي معرفة بحبه...

ما بين الباء والهاء أكوان من الوجود، أنت عرفت باء البداية ولتعرفي هاء النهاية تحتاجين أن تعرفي ما لا بداية له ولا نهاية، تعرفي حبه...

- هل معرفته هي معرفة حبه؟

- معرفة كونه هي معرفة الحب...

- ولكني عرفت عن الحب في قصتك وقصة الشيخ الغريب...

- وهذا لا شيء بجوار كل شيء...

- كل شيء هو الحب؟

هزَّت رأسها مبتسمةً:

- تعالي أحدثك عن الحب، عن كل شيء...

- هـل تعلمـين مـا هـو السـؤال الـذي أحـاول أن أكتشـف إجابتـه، والـذي سـألته دومًـا لمـن شـاركني رحلتـي، لمـاذا أنـا؟ مـا الـذي فعلتـه لأسـتحق كل ذلـك؟

أكملت فاطمة ابتسامتها:

- ما هو هذا الذي استحقتيه؟

- أن أعيش تلك التجربة،

كررت سؤالها:

- ما هو هذا الذي استحقتيه؟

- أن أبصر ما لا يبصره غيري..

- ليس هذا، هناك شيء أهم..

- أن أبصر نفسي في كونه.

- هنـاك الحـب يـا حبيبـة، سـؤالك يجـب أن يكـون، لمـاذا أسـتحق هـذا الحـب. حـين أعطـاك مـن فيضـه هـذا المـدد لتبـصري مـا هـو عـلى التحقيـق حقيقـة كونـك، هـو أمـدك مـن حبـه، هـو وهبـك هـذه البصـيرة لأنـه يحبـك...

- حسنًا سؤالي هو لماذا يحبني أنا؟

- الإجابـة أنـه ليـس أنـت فقـط، هـو يحـب جميـع مـا صنعـت يـداه.

- ولكن لا يوجد غيري في ما أنا فيه من فضل.

- لأنها تجربتك وكونك وحياتك. أنت تعرفين فقط ما أنتِ فيه من نعيم، ولكن غيرك في نعيم من حبه ولكنك لا تبصرين تجربته، قد تكون بشكلٍ مغايرٍ لما أنتِ فيه، ولكنها لا ريب موجودة.

- إذن لِمَ أشعر به يحبني أنا وحدي، أشعر بأني متميزة فيما أنا فيه؟

- لأنك تحبينه، هذا هو شعور المحب تجاه محبوبه، يرى أنه له وحده، وأنه المميز لديه، ولكن هذا ليس الحال، هو من يخلق لديك هذا الشعور من حبه لك، لتعرفي على التحقيق كم أنت مميزة لديه، ولكن الكل كذلك، غير أنه واحد. وهذا هو حقيقة الحب...

- كيف حقيقته؟

- الحب واحد وإن تعددت مظاهره، وإن تعدد من يحبه فهو واحد، وهم في تعددهم واحد. كلنا في الإنسانية واحدٌ وإن تعددت أشخاصنا، هكذا هو في النهاية حبٌّ واحدٌ وإن تعددت مظاهره.

- هل أنتِ والشيخ الغريب والفتى محمد شيء واحد إذن؟

- كلنا واحد إن نظرتِ بعين الحب.

- ما الذي يميزني إذن؟

- يميـزك أن تعرفيـه في حبـه لـك. لهـذا كـما قلـت لـكِ أن تعـرفي حبـه هـو مـا يجعلـك تعرفـين حقيقـة كل شيء. مـا يميـزك هـو وجـودك في حبـه لـك، مـا يميـزك هـو معرفتـك بهـذا الوجـود في كونـه، معرفـة وجـود كونـك في كونـه، حينهـا سـتدركين مـا يميـزك.

- حينها سأعرف لماذا أنا؟

- أعرف الآن لماذا أنا...

رويـدًا رويـدًا أبـصرت حروفهـا في حـروفي، صوتهـا في صـوتي، معناهـا في معنـاي...

رويدًا رويدًا غابت هي في وجودي أنا...

رويدًا رويدًا أبصرت أنه لا وجود إلا أنا...

ثم أبصرت وجودي بوجودي،

فرويدًا رويدًا أبصرت أنه لا أنا،

اختفى كوني الذي رحلت فيه لأصل إليه،

ثـم اختفيـت في حقيقـة عدمـي حـين وصلـت لحقيقـة وجـود حبـه...

ظهرت مُنى وهي جالسة تهتف بي،

اختفت...

ثم عاد...

ففتحت عيني...

وعدت...

الحرف نور

كان صوتي يردد تلك العبارة:

"فعلمنا أن لقاء الله لا يكون إلا بالموت فاستعجلناه في الحياة الدنيا فمتنا في عين حياتنا عن جميع تصرفاتنا وحركاتنا وإرادتنا، فلما ظهر الموت علينا في حياتنا التي لا زوال لها عنَّا حيث كنا، لقينا الله فلقينا، فكان لنا حكم من يلقاه محبًّا للقائه. فإذا جاء الموت المعلوم للعامة لم يتغير علينا حال ولا زدنا يقينًا على ما كنا عليه".

- لم تكشف حقيقتنا؟

همستُ له وما زالت الكلمات تتردد في داخلي:

- قلتُ لك من قبل، من نحن لتعرف عنا حين تعرف عنه، نحن فقط هنا لنكشِف لا لنُكشَف...

- ولكنها بدأت بالحديث عنك ثم ختمت حديثها بدون أن تذكر ما حدث بينكما في النهاية...

- لسنا في الكون لنُذكَر بل لنُذَكِر. نحن حروف حديثه، من نور معانيه، ليس لنا غير أن نُخبر بحديثه ونُسمع بحبه.

كانت قد اختارت أن تفتح عيونها للكون الذي بدأت منه رحلتها، أرادت أن تعود لتجعل من وجودها دليلًا على ما أبصرته، كانت تعلم أنها ليست مجنونة، وأنها لن تستطيع أن تفسر لهم ما مرَّ بها. ولكنها أردات أن تعيش معه في حياتها بما شهدته في غيبتها.

باحـت لي بأنهـا سـتكتم سرهـا عنهـم، سـتحتفظ بـه لنفسـها، لا تريـد غـيره ليعلـم بهـا.

لا تريـد لغيرهـا أن يبـصر تجليـه عليهـا في قصـص الحـب التـي مـرت بهـا،

تريد أن تحتفظ بما يميزها لنفسها،

ليس عن أنانية، ولكن عن حب لنفسها في تجليه،

أخبرتنـي أنهـا كتبـت تلـك السـطور لتحتفـظ بحروفـه لتفتـح لهـا أبوابًـا لكونـه،

كلـما نفـدت منهـا الحـروف، تقـرأ مـن جديـدٍ فيمدهـا بحـروفٍ مـن نـوره،

يمدها بنا،

نحن أهل نوره،

نحن حروفه،

هي تعلم من نحن، ولكنها ستخفينا لنفسها...

نحـن ترتيـل حقائـق حبـه وهـي معـاني ذلـك الحـب حـين تسـتحضرنا لكونهـا لنعـرج بهـا لكونـه...

نحن حبه لها وحبها له...

اقتربت منها وهي تسطرني في خيالها،

احتويتها وهي ترويني لوجودها،

ترويني فأسقيها،

فتزهر بأنوارٍ من عشق لا يدري به غيرها،

ولِمَ لا وهي وحدها من تعرفني حروفًا تدنيها لكونه،

فتفنيها عن كونها...

أنا الحرف الذي يحملها بنورٍ من معانيه...

وهي الكلمة التي خلقها مني...

فلا معنى بدوني،

ولا مسموعٌ بدونها،

ولا وجود لي ولها،

فلا وجود إلا هو...

حبيبة

كانت حبيبة تسمعُ لحديثي

كنتُ أسمعه يُحدثني:

ـ كيف حالك اليوم يا حبيبة؟

كان كونها يُحدثها

كانت مُنى تحدثني

ـ أنا بخير، أعتقد أن صحتي أفضل بكثير...

ابتسمت مُنى

- حسنًا يمكنني أن أخبرك إذن أن الدكتور قرر أن يسمح لك بالعودة للمنزل في نهاية الأسبوع..

أظهرت سعادتي

- هذا خبرٌ رائعٌ، أعتقد أني أحتاجُ أن أعود لحياتي الطبيعية من جديدٍ.

هي بحاجةٍ لأن ترى كيف ستكون حياتها بما فيها من تفاصيل وهي مرتبطة به...

أعتقد أني بحاجة لأرى كيف ستكون حياتي بتفاصيلها العادية بعد ما عرفت ما بيني وبينه.

نظرتْ إليها مُنى للحظةٍ قبل أن تسألها بصوتٍ يملؤه الحزم:

- هل أنتِ خائفة؟

لا أعتقد أنك خائفة. ربما متحمسةٌ لما سيأتي ولكنك واثقة مما سيحدث...

لستُ خائفة بالتأكيد، فقط أريد أن أراه في كل شيء وبكل شيء لأسمعك تحدثني من جديدٍ...

تعلمين أني دومًا أحدثك؟

أسمعك في كل شيء، ولكني محبة، والمحب يريد أكثر وأكثر رغم أنه يرضى بالقليل...

- هل تسمعيني يا حبيبة؟

- أجل، لا تقلقي، لستُ خائفة...

قامت مُنى من مكانها واقتربت من حبيبة وقبلت رأسها مودعةً:

ـ حسنًا أتركك تكملين ما تفعلين..

واستدارت لتخرج فهتفت باسمها:

ـ مُنى..

ـ نعم يا حبيبة.

ابتسمت قبل أن أهمس لها..

ـ شكرًا لك على كل شيء.

ابتسمت في شيء من توتر لم أفهم سببًا له وأجابت:

ـ العفو يا حبيبتي، لم أفعل إلا ما كنتِ لتفعليه لي.

ثم خرجت في استعجال وأغلقت الباب خلفها كما لو كانت تداري دموع تأثرها بما في الحديث من مشاعر.

لم ألتفت لها كثيرًا...

وجدت قلمي وعدت لأكمل حواري معه...

مُنى

تركت مُنى عيونها تذرف الدموع التي كتمتها في غرفة حبيبة، وأخذت تهبط الدرج إلى غرفة الدكتور المسئول عن حالة حبيبة...

طرقت الباب ودخلت بعدما سمعته يهتف لها بالدخول.

جلسـت في صمـت، كان يتوقـع حالتهـا، تركهـا تفـرغ مـا في مشـاعرها مـن بـكاء.

- هل رأيتِ ما أقصد؟

هزَّت مُنى رأسها في ألم:

- ولكنها تعرف من أنا؟

قام الدكتور من مقعده خلف المكتب وجلس في مواجهتها:

- هـي تعـرف مـن أنـت، وتعـرف أنهـا كانـت غائبـةٌ عـن الوعـي فـترةً طويلـةً، وتتذكـر حياتهـا قبـل هـذه الفـترة، ولكنهـا تعيـش في عـالمٍ مـوازٍ مـع معيشـتها معنـا هنـا. هـي تحدثـك وتحـدث غـيرك، هـي لا تعـترف بذلـك ولكـن أفعالهـا تخـبر عنهـا.

- شـعرت بذلـك كـما لـو كانـت تسـمع لأكـثر مـن شـخص وتتحـدث مـع أكـثر مـن شـخص، ليـس في نفـس الوقـت ولكـن تتحـدث إليَّ، ثـم تصمـت كـما لـو كانـت تسـمع مـن غـيري تعليقًـا ثـم تُكمـل كلامهـا بحديـث ليسـت لـه علاقـة بمـا أقـول، ولكنـه مرتبـطٌ بمـا يـدور في ذهنهـا ثـم تعـود لتتحـدث معـي كـما لـو كان مـا بـين كلامـي وكلامهـا لم يكـن لـه وجـود.

- هل رأيتِ ما تكتب؟

كـما لـو كان قـد ذكرهـا بمـا جعـل قلبهـا يعتـصر ألمـا فـوق مـا بـه مـن ألم:

- لا شيء.

- أجل لا شيء.

- صفحـات بيضـاء، ولكـن لمـاذا هـي مقتنعـة أنهـا تكتـب شـيئًا مـا بـل وتخفيـه عنـا؟

- هي تكتب لعالم لا نعرف عنه، عالمٍ موجودٍ فقط في ذهنها..

- أليس هناك علاج لتلك الحالة، أريد لصديقتي أن تعود؟

نهض من مقعده وسار قليلًا في الحجرة قبل أن يلتفت ليجيبها:

- لقـد عـادت ولكـن ليـس بالشـكل الكامـل، لهـذا اقترحـت أن تعـود لحياتهـا الطبيعيـة وبيتهـا لعلهـا رويـدًا رويـدًا تعـود بالشـكل الكامـل.

- حسـنًا مـا دمـت تـرى ذلـك، ولكنـي أريـد رأيـك بصراحـة، هـل مـن الممكـن ألا تعـود كـما كانـت حبيبـة مـن قبـل؟

نظر إليها مباشرةً وهو يقول بصوتٍ لا يحمل الشك:

- يجـب أن تعـرفي يـا سـيدتي أنهـا حتـى لـو عـادت فلـن تعـود كـما كانـت حبيبـة مـن قبـل، لا يوجـد شيء يعـود كـما كان.

حبيبة

تركتُ القلم من يدي وهمستُ بحروف اسمه،

أعلمُ أنه معي، ولكني أحب أن أسمع حروفه في وجودي،

لم يعـد للسـيد نـور وجـود الآن كـما كان مـن قبـل، لم يعـد لـه وجـود خـاص، يظهـر ويختفـي، بـل صـار دائـم الوجـود في كل حديـث بينـي وبينـه،

أعلم أني أغيب عمن حولي في حضوري معه،

كالمجذوب،

يحسبونني مجنونة،

ولكني ما زلت كما أنا،

فقط عرفت من أنا،

فقط عرفته،

ليس من السهل أن يعرفك العالم كما اعتاد عليك حين لم تعد أنت تعرف نفسك بما اعتاده منك، لذا فجنوني الظاهر لهم، هو حقيقتي الباطنة في معرفتي...

يكفيني أن أعرف من أنا...

يكفيني أن أعرفه،

أنا حبيبته،

حبيبة....

أنتِ حبيبة،

وكفى...

أغلقت عين الجسد بهذا اليقين للحظاتٍ، ثم فتحتُ عين وجودي...

وجدتُ نفسي في اللوحة بجوار سور القصر، عرفتُ الآن أني مستعدةٌ لأكون جزءًا منها، قمت من مجلسي، وتوجهت للباب، وجدتها تقترب من الباب، هل ستدخل معي؟

اقتربـت منــي وأنــا أقــترب مــن البــاب رويــدًا رويــدًا، ابتســمت لي، نظـرت خلفــي للرجـل الجالـس عــلى الصخـرة، هـل سـيلحق بنـا ليدخــل؟

لمحــت ابتســامته، ولكنــه لم يتحـرك، لم يحــن بعـد موعـد دخولـه للقـصر، ربمـا عليـه أن ينتظـر ليرشـد غـيري...

اقتربنــا مــن البوابــة التــي أخــذت تنفتــح رويــدًا مـع اقـتراب خطواتنــا، وحــين بلغنــا الأعتــاب فتحــت عــلى مصراعيْهــا،

سـمعت حـروفي تهتـف بـأن أدخـل، صـارت حـروفي مـن حـروف نـوره، وأبـصرت السـيد نـور فيهـا، أبصرتـه يدعـوني للدخـول...

فدخلتُ...

مجموعة قصصية
مُراد ماهر
أولياءُ كاذبون

منتصر امين
رواية
شتاء أخير

مجموعة قصصية
أحمد عويضة
زهرة الشيخ
عشق

رواية
امرأة بطَعم التوت
حلا المطري

رواية
بنت نبي
محمود حافظ

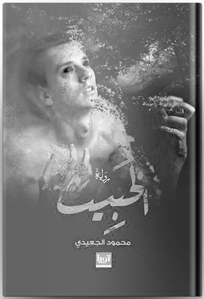
رواية
الحبيب
محمود الجعيدي

رامي أحمد
«بث مباشر»
Belly
بيلي
broadcast live

وقت جيد للتحليق
مجموعة قصصية
بيتر ماهر

أحمد عاطف
الحياة على سطح البطيخ

النبض صفر
"أنا الموجود فوق الأرض.. وأنا من يحيا تحتها"
رواية
عبدالرحمن جاويش
تويا

بيضة مان
فلسفة التحول
كيرلس بهجت
تويا

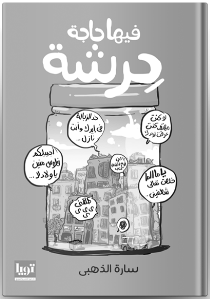
فيها حاجة
حرشة
سارة الذهبي
تويا

مجيد طوبيا
الهؤلاء
رواية
تويا

الطبعة الثالثة
... رواية ...
تغريدة عشق
هالة البشبيشي
تويا

ايهاب مصطفى
اسمها زينب
قصص
تويا

أيالو
حقل الأحلام
مصطفى يوسف

علاقات خطرة
د. محمد طه
تويا

رواية
الطريق إلى
السيدة العجوز
محمد آدم
تويا

ياسمين حسن
رواية
ماريا

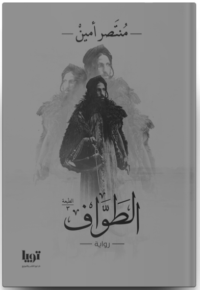

مُنتَصر أمينُ
الطواف
رواية

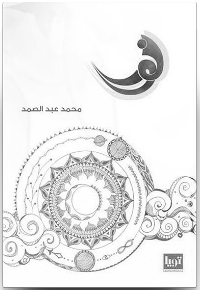

محمد عبد الصمد

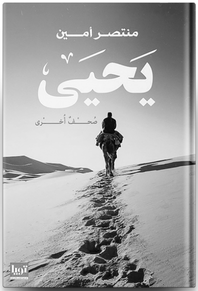

منتصر أمين
يحيى
صُحفٌ أخرى

أحمد عويضة
وتاه لتراه
مجموعة قصصية

عرايا الروح
رواية
حلا المطري

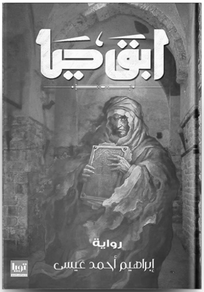

ابق حيا
رواية
إبراهيم أحمد عيسى

معرض الكتاب
إغتيال بدوافع أدبية
رواية
عبدالرحمن جاويش

ملكوت
رواية
شريف عبد الهادي

Subject
الورقة
Book!
البوم اجتماعي ساخر
النسخة 15000

الطبعة 8
رواية
حواديت السعادة
شريف أسعد
تويا

شريف أسعد
#اعترافات_جامدة
الطبعة 11
تويا

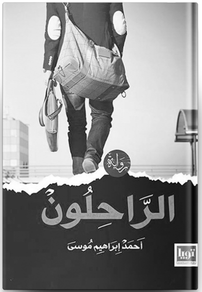
رواية
الرّاحِلُون
أحمد إبراهيم موسى
تويا

مصطفى شهيب
كل الطرق تؤدي
ل ٦٠ داهية !
تويا

بالطوو فانله وتاب
أحمد عاطف
اتجاه ساخر

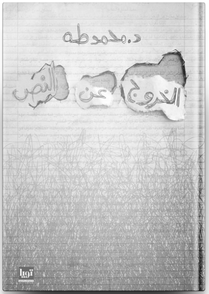
د. محمد طه
الخروج عن النص
تويا

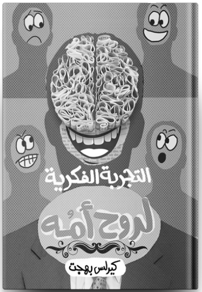
التجربة الفكرية
لروح أمه
كيرلس بهجت

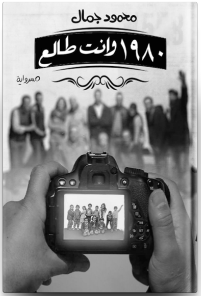
محمود جمال
١٩٨٠ وانت طالع
مسرواية

دار تويا للنشر والتوزيع